

عاطف أبو سيف

الحاجّة كريستينا

الأهلية



الأهليّة للنشر والتوزيع

e-mail: alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)

المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية **12**

هاتف **00962 6 4638688** ، فاكس **00962 6 4657445**

ص.ب: **7855**، عمّان **11118** الأردنّ

الفرع الثاني (المكتبة)

عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية **34**

◆

الحاجّة كريستينا / رواية عربيّة

عاطف أبو سيف / فلسطين

◆

الطبعة العربيّة الأولى، 2016

حقوق الطبع محفوظة

◆

تصميم الغلاف: **زهير أبو شايب**، عمّان، هاتف **00962 7 95297109**

لوحة الغلاف: **تيسير البطنيجي / فلسطين**

◆

الصفّ الضوئيّ: **إيمان زكريّا خطّاب**، عمّان، هاتف **00962 7 95349156**

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية : (2016/8/3676)

الترقيم الدولي: ISBN 978-9957-39-138-6

رواية

عاطف أبو سيف

الحاجّة كريستينا



إلى محمد وعُدي صُبح

الشبح

انتشر الخبر بسرعة البرق.

مَنْ يُصدق أنّ شبحاً ضخماً يظهر في البحر ويختفي، يلتهم الأفق المظلم، تضرب يده الماء ببطء، جاهدةً تحاول أنْ تنجو من الموج، ينثر رعباً وقلقاً يأكلان وجوه المارين جوار الشاطئ. ينتشر الخبر في كل غزة، من بيت لبيت، ومن هاتفٍ لهاتف، ومن شارعٍ لشارع، وعبر الإذاعات وقنوات التلفزة المحلية، وعلى مواقع التواصل الاجتماعي، وفي طنين الرسائل النصية التي تصِل دفعةً واحدةً إلى كل الهواتف المحمولة في قطاع غزة. وما إن يدركَ النّاسُ الأمرَ، حتى تصيبهم مشاعرُ متناقضة من الخوف والقلق والدهشة وحب الاستطلاع.

يدٌ ترتفع وسط العتمة، تنغرس في كبد السماء، تبعثر النجوم وتطيح بها يميناً ويساراً، ثم تهوي بيأسٍ فوق خد البحر، تصفعه بقوةٍ وغضب، فينتشر الرذاذ صاعداً نحو السماء، ثم يهبط مثل بقايا مصابيح مهشمة.

الناس تتدافع على شاطئ البحر، يتناقلون آخر ما سمعوه، أو آخر ما وصلهم من أخبار الغريق الباحث عن النجاة عبثاً. آلاف

المواطنين يتجمهرون قرب تخوم الموج، يحملون معهم كشّافات كهربائية، وبعضهم مصابيح كيروسين، وبعض آخر يحمل شموعاً يتخاتل ضوؤها من نسيم البحر. رجال الشرطة يدفعون بهم بعيداً عن الماء. الصحفيون يتسابقون لالتقاط صورة واضحة للشبح الذي يظن بعضهم أنه سيلتهم غزة عما قليل، ويظن بعض آخر أنه روح حبسها البحر وحال دون وصولها لغزة، ويقول طرف ثالث: إنه عذابٌ من الله لابتعاد خلقه عن الدين.

الطراد الإسرائيلي يطلق النار في الماء محاولاً اكتشاف الأمر. تختفي اليد في بحر الضوء الذي أحدثه كشّاف الطراد البحري، ثم تعاود الظهور مرة أخرى بكدٍ وعناد. صوت مروحية عسكرية تقترب فوق المكان، تعلو وتهبط في السماء، كأن يد الشبح تلاحقها. ثم تلحق بالمروحية ثلاث طائرات أخرى، فيحاصر هديرُ محركاتهن صخبَ الموج.

باستثناء شاطئ البحر، فإن غزة ظلت تغرق في العتمة، حيث بدا الضوء الكثيف على الشاطئ مثل خط أبيض لامع على طرف لوحة سوداء. التباين الصارخ بين العتمة والنور، بين الخوف والدهشة، بين تذّكر الماضي والعجز عن تبّصر المستقبل، بين الإمساك بالحلم والسعادة الفارة من أرواح الناس، بين السير البطيء نحو الموت والهرولة في دهاليز الحياة، ما الذي يمكن أن يحدث أكثر من ذلك!

تظن أنَّ غزة كلَّها خرجت عن بكرة أبيها إلى البحر تستكشف الأمر. الشرطي يتوسل عبر هاتفه المسؤولَ أن يأتي بنفسه ليستطلع الحدث. المذيعة في إحدى الإذاعات المحلية تقول بغنجٍ

مشوبٍ بقلق لمراسل الإذاعة إنها ستلحق به بعد أن تترك المستمعين مع بعض الأغاني الحماسية. الأطفال يندفعون ركضاً نحو الشاطئ غير آبهين لتوسلات أمهاتهم اللواتي سرعان ما سيلحقن بأبنائهن تاركات المنازل لنسائم الليل تداعب الستائر، وتحنو على أصص النعناع المرصوصة فوق العليّات.

مثل عواءٍ يلهث بشراهة خلف فريسةٍ تسابق الريح، يلتهم الخوف وجوه الواقفين، وهم عاجزون عن تفسير ما يحدث. ألسنتهم فشلت في العثور على الكلمات المناسبة، شفاههم تتدلى من هول الصدمة، عيونهم تقفز يميناً ويساراً لا تمسك بتفاصيل المشهد، أرجلهم تصطك من الخوف المجبول بقليلٍ من البرد، أيديهم تشير بترددٍ إلى جوف البحر حيث رذاذ الموج ينتشر بعنفٍ نحو السماء، ثم ترتفع يد الشبح مرة أخرى وتهوي، كأنها تهرب من رصاص الطراد الحربي والطائرات المروحية. وكُلما عاد الشبح للظهور في كبد الأفق، يهربون بعيداً عن الشاطئ، يظنونه سيركض نحوهم عما قليل.

صخب الموج، همهمة الناس وهمسهم، صراخ رجال الشرطة عبر مكبرات الصوت، فحيح الطرادات البحرية، أزيز الرصاص بين فينةٍ وفينة أخرى، هدير المروحيات، ترانيم وابتهالات الشيخ القلقة من جامع البحر، زعيق سيارة الإسعاف، الصمت المهيب الذي يرين بين وقتٍ وآخر، الظلام المدقع الذي يسبح في أوصال الناس، دبيب الخوف في أرواحهم، ثقل وقع أقدام المجهول، صوت ارتطام الموت حين ينزل على الشاطئ ببلادةٍ ونزق. كل ذلك صورةٌ غامضة عن لحظات لم يخبرها الناس من قبل، رغم ما مروا بها من مآسٍ، وما ذاقوا من ويلات وآلام، وألِفوا من حروب ونكبات.

غزة تجلس على الحافة الجنوبية الشرقية للبحر. ترتمي، على شاطئه، شريطاً رفيعاً من البنايات والقليل من الحقول، تلهث من التعب والأرق، فزعةً وهي تترقب الشبح مهول الحجم وهو يحاول أن يصل إلى الشاطئ، لا تعرف ما الذي سيفعله في أول ثانية له على الرمل. في كل مرة يرفع يده نحو السماء، يدب الرعب في قلبها، وينتفض جسدها، وتميد الأرض تحت مبانيها، وتظنها ستسقط عما قليل إذ هوت عليها يد الشبح مثل مطرقة القدر.

يمكن لغريب أنْ يظنَ أنّ الأمر مجردُ مشهدِ رعبٍ جديد في فيلم يُعرضُ في آخر الليل، أو مجرد إشاعة يميل فيها الناس لتضخيم حدث بدا لهم غير مألوف، لكن المؤكد رغم ذلك أن خروج كل سكان غزة إلى شاطئ البحر يبحلقون في عتمة جوفه، وهلع الناس وهم يتناقلون الخبر، والإرباك الذي يسري في كل كلمة تقال في غزة أو عنها، كله يشير إلى أن الأمر أكثر من مجرد خزعبلة جديدة أو هلوسة أخرى أو خبر عاجل في مدينة تُخبز الأخبارُ العاجلة في فرن حياتها الضخم.

وقبل أن تبدأ تباشير الفجر، ويفترق خيطه الأبيض عن الأسود، اختفى الشبح. لم يعد ما يدل عليه إلا خوف الناس وهلعهم وهم متسمرون ينتظرون خروجه مرة أخرى. وقبل أن تبدأ الشمس بالنهوض بخفة من خلف البنايات والحقول المقابلة للشاطئ حتى فرغ الشاطئ، كأن شيئاً لم يكن.

تناقل الناس تفاصيل الخبر في الصباح. غزة كلُّها تتحدث عن الغريق الذي يظهر شبحه في البحر. الأطفال في طريقهم إلى المدارس، سائقو سيارات الأجرة مع الركاب، أصحاب البسطات

والمحلات في الأسواق، النسوة يجلسن على عتبات البيوت، موزعو الغاز، الباعة الجوالة. البعض يظن أنّ كابوساً كبيراً غزا عقولهم واندمغ في ذاكرتهم ليلاً. كأنهم جميعاً حلموا نفس الحلم، عاشوا في نومهم نفس الكابوس. لم يحدث شيء. كأن الأمر لم يكن أكثر من مجرد حلم مزعج. في الصباح كان الشاطئ هادئاً، رماله ناعسة، لم يبدُ عليها أيّ أثر لخطواتهم المتزاحمة فوقه، لا يوجد ما يدل على وجودهم الكثيف ليلة أمس.

وما إن يحلّ الليل، حتى تشخص عيونهم نحو الغرب حيث يرقد البحر، منتظرين أن يخرج الشبح من جوفه. وفيما عيونهم تحاول أن تقتنع أن الشبح لم يعد موجوداً، وأن ما شاع يوم أمس لم يكن أكثر من كابوسٍ مزعج عاشوه، حتى تصعد يد الشبح تخترق البحر صاعدة نحو السماء، فتتساقط النجوم، وتهوي الكواكب، وتسقط قلوبهم بين أرجلهم، وينهش الخوف والقلق تضاريس وجوههم.

عاد الشبح مرة أخرى، لم يختفِ. فقط في النهار، وحين ينشغلون بأعمالهم وينهمكون في حياتهم، يرتاح قليلاً، ثم يعاود محاولاته اليائسة، ولكن الحثيثة، للوصول إلى الشاطئ. يختفي الشبح في الصباح ثم يعود للظهور بعد المغيب، وبعد أن يُكمل الليل لف غزة بسدوله حالكة السواد. لكنه وحين يختفي في الصباح لا يختفي من حياة الناس، بل يظل يهيمن على نقاشاتهم وأحاديثهم، وخوفهم المتبادل، وعثراتهم وخيباتهم المتكررة في البحث عن الهدوء، ولو مؤقتاً.

نشرات الأخبار تتناقل قصة «شبح» غزة، ويبرع المراسلون في نسج الحكايات حول الشبح وحقيقته، مستعينين بمحللين وخبراء ونفسانيين وشيوخ ومشعوذين. كل إجابة تبدو مقنعةً وقتها، وما إن

ينتهي المتحدث ويشكره المذيع، حتى يعود اللايقين ينهش أجساد المستمعين والمشاهدين. وحيث لم تتوقف مآذن المساجد عن إطلاق التسابيح ونشرها في السماء، ولم تتوقف الكنائس عن قرع أجراسها، ولم تتوقف برامج قنوات الراديو والتلفزة المحلية عن بث البرامج التي تحاول الإمساك بالأمر، ولم تتوقف القيادة السياسية عن الاجتماع من أجل البحث عن حل للغز الشبح، الذي قال بعضهم إن وجوده بات يشكل تهديداً لمستقبل البلاد، ولم يتوقف الناس عن التدافع من أجل الوصول إلى نقطة واضحة يمكن من خلالها رؤية الشبح كاملاً، فإن ليل غزة بات مثل نهارها وصمتها مثل صخبها، وظل الاستقرار المنشود نعمة لم تفلح بالإمساك بها.

كلُّ نهار سيركب الصيادون لنشاتهم ويعبرون البحر يبحثون عن الشبح، أو ربما يحاولون إخراج الغريق من معدة البحر. يدفعون اللنشات فوق الماء بهمة وخفة، ثم يبدأ الخوف يسيطر على حركة أيديهم وأرجلهم وهم يشّغلون محركاتها حتى تنطلق في البحر. عيونهم تبحث تحت الماء. لا يجدون شيئاً غير ارتباك نظراتهم، وبعض ظلال أفواج السردين تهرب من الضوضاء.

أيضاً في النهار تقف مجموعة من الرجال بلحاهم الطويلة في دائرة على الشاطئ، يرتّلون أدعية وتسابيح ويهللون، ثم يتمتمون، ثم تشخص أعينهم نحو البحر حيث مرقد الشبح، ثم ترتفع نحو السماء تناجي الله. أحدهم يملأ يده رملاً، يقرأ فوق الرمل بعض الأدعية، يتثاءب ثم ينثر الرمل فوق الماء، فيهيج الموج، فيعلو التكبير. يواصل الرجال تعاويذهم، محاولين إخراج الأرواح من البحر، كما يقول مراسل إحدى الفضائيات المحلية.

وأيضاً يجلس مسؤول الشرطة حائراً مع ضباطه، متحلقين حول طاولة بلاستيكية وضعوها في مقر الشرطة البحرية. يفرك ذقنه الطويلة بيده، حائراً لا يعرف كيف يجيب على أسئلة المستوى السياسي. تدخل مجموعة من المسلحين يشاركون الشرطة جلستهم. يبدأ الحديث عن العدو الذي يتربص بغزة ويريد بها شراً. يزداد قلق مسؤول الشرطة وهو يطالب عناصره بمحاولة حفظ النظام أكثر في الليل؛ حتى لا يستغل بعض العابثين الوضع ويقوموا بتحريض الناس على الحكومة.

ظلت قصة شبح غزة تشغل بال الناس بضعة أسابيع، تلهم الصحافة بعناوين براقةٍ وجذابة. الشبح يختفي في النهار ويظهر في الليل. والناس لا تمل انتظاره، ولا يجهز عليها قلقُها المكبوت.

الشبح ظهر، الشبح اختفى. اختفى، ظهر، ظهر، اختفى. بات الأمر مثل لعبة الغُميّضة التي يلهو بها الأطفال في أزقة المخيم. وهكذا دواليك حتى أمسى جزءاً من حياة الناس وتفصيلاً آخر من تفاصيل يومهم.

مع تعرض غزة لعدوان شهر تموز من العام 2014 نسي الناس أمر الشبح، إذ صارت الحياة والنجاة من الموت همّهما الوحيدين في حربٍ ضروسٍ استمرت واحداً وخمسين يوماً، أكلت الأخضر واليابس. قتلت الحرب من قتلت، وأخذت معها ما أخذت من بيوت ومبان وشوارع ومنشآت وأرواح، وتركت خلفها ما تركت من ألم ورعب وحزن ودموع، وخطوات غير مكتملة، وأحلام ناقصة، وأجساد مبتورة.

الحياة في غزة تجعل هذا التراكم الكبير من الألم مباحاً للتأقلم وللتكيف، وتُعمل فيه مبضع جراح النسيان الماهر. لكن عميقاً يظل

طعمه الخفيف لا يختفي، كأنه روح لا تذهب. مثل كل شيء آخر في غزة، باتت قصة الشبح شيئاً من الماضي، وطبقةً أخرى من طبقات الأسى والذكريات التي تتراكم في دفاتر الحياة. صار على الناس أن يعيشوا أيامهم الجديدة ويتكيفوا مع ما خلفته الحرب من ألمٍ وفقدٍ جديدين.

في الحقيقة، لم تغب قصة الشبح عن بال الناس، ولم تختفِ من دفتر حكاياتهم، ولا هم نسوها. لكن للحياة حِكماً، غير مرغوبة ربما، لكن ليس لنا أن نتجاهلها. ظل شبح غزة أحد الأشياء الكثيرة الغامضة التي يموج بها المكان، وأحد علامات الاستفهام التي لم تنجح في أن تجد إجابتها اللائقة.

ذهب الشبح كما تذهب أشياء كثيرة، لكنه مكث كما تمكث أشياء كثيرة في السطور الباهتة لكل حكاية، وفي الظلال المائية لكل لوحة، وفي التقاسيم غير الظاهرة على الوجه.

اختفاء كريستينا

لم تتخيل الحاجة كريستينا طوال حياتها لحظة أسوأ من تلك اللحظة تنتهي فيها عِلاقتها بجيرانها في المخيم، تلك العلاقة التي ناهزت الخمسين عاماً. ولا حتى في أسوأ كوابيسها، كان يمكن أن يخطر ببالها مثل تلك النهاية.

وقف الجيب اللاندروفر التابع للصليب الأحمر الدولي في شارع الحارة. ترجّل منه ثلاثة رجال، اثنان منهم يبدوان غربيين، فيما الآخر موظف محلي. ظل الرجل المحلي يحرس الجيب، فيما تقدم الرجلان الغربيان صوب بقالة حمدي -البقالة الأقدم في المخيم-. التوتر والاندفاع حكما إيقاع خطواتهم وهمسهما القلق وهما يسألان عن بيت الحاجة كريستينا. البيت الصغير بجوار المدرسة كأنه أحدُ فصولِها المُهملة، وشجرة الكينيا الهرمة مثل مظلة تقيه المطر وحرارة الشمس. بعض العائلات وصلت قبل أيام إلى المدرسة للعيش فيها بعد أن دمرت الحرب بيوتهم وأكلت الطائرات الزنانة أُلفتهم. دخل الرجلان الغربيان إلى البيت الصغير، فيما ظلتْ عينا الرجل المحلي تحرسان الجيب من الفتية الذين التفوا حوله. صوت الانفجارات يملأ المكان، والطائرات تمسح السماء في كل اتجاه، وفي الأفق حيث

البحر، ترمي البوارج حممها مثل حية تقذف رشقاتِ السم. خرج الرجلان ومعهما الحاجة كريستينا إلى الجيب اللاندروفر الذي انطلق بسرعة مهولة يأكل الشارع ويطوي الحارة خلفه. ضاع صوت عجلات الجيب بين زحمة الأصوات التي تُصدرها الطائرات وهدير القصف المستمر. لكن المؤكد أن الغبار الكثيف الذي رمت به عجلات الجيب، وهو ينطلق بسرعة مهولة، وضع ستارة كثيفة من المسافة والزمن بين الحاجة وجيرانها في المخيم، حيث لن يعودوا يرونها بعد اليوم.

لم تودعهم، لم تقل إنها مغادرة. حتى إنها في الليلة السابقة، حين كانت تجلس مع نسوة الحارة يتناقلن آخر أخبار العدوان على غزة، والأصدقاء الذين قُتلوا أو أُصيبوا أو رُحلّوا من بيوتهم، وفيما كانتْ الدمعاتُ جمراتٍ تكوي الخدود حزناً على كل ذلك، فإن الحاجة كريستينا لم تذكر شيئاً يوحي أنها سترحل يوم غدٍ. لم تذكر أن ثمة مَنْ سينتشلها مِنْ الموت المحقق، أو أنها ستتدبر أمرها لتنجو بجلدها وتفلت من تروس ماكينة الموت التي تلتهمهم كل يوم. انتهى مجلس النساء في الحارة مثلما ينتهي كل مرة بالتحيات والسلامات والدعوات بالنجاة والسلامة. لم يكن أحدٌ يعرف ما الذي سيحدث في اليوم التالي.

لم يكد رجال الحارة ونسوتها يفيقون على خبر الجيب الغريب الذي وصل حارتهم، ونزل منه ثلاثة رجال يسألون عن الحاجة كريستينا، حتى كان المشهد قد انتهى. مثل حكاية لم تبدأ لكنها لم تعد موجودة أصلاً. التموا أمام البيت فيما بقايا الغبار الذي أثارته عجلات الجيب تبرق لهم أن كل شيء قد انتهى فعلاً، لكنه الغبار الذي يموج

في الرأس طارحاً أسئلةً عصيةً على الإجابة، لا تجلب معها إلا علامات الاستفهام التي ترتسم مثل منجلٍ يحصد الاستقرار والهدوء.

اختفت الحاجة كريستينا، كأن الأرض انشقت وابتعلت الجيب الذي ركبت فيه، أو كأنه غاص في الأرض دون أن يراه أحد. لم يكلم أحدٌ الرجال الثلاثة، الذين سيقول البعض: كأنهم نزلوا من الفضاء. حتى حين سأل الرجلان الغربيان حمدي صاحب البقالة، لم يكترثا كثيراً لإجابته، إذ إن السؤال بدا روتينياً حتى يظهر وجودهما المفاجئ في شارع الحارة أمراً طبيعياً. فقبل أن ينتهي حمدي من فرد أصابع يده بعد أن وضع المسبحة، التي كان يداعب حباتها بأصابعه، في جيبه، ليشير إلى بيت الحاجة، حتى اندفع الاثنان نحو الباب الصفيحي. طرقات خفيفة لم يسمعها أحد، ثم خرجا بصحبة الحاجة إلى الجيب.

هل كانت الحاجة كريستينا تنتظرهما؟ هل كانت تتوقعهما؟ هل كانت تقف قرب الباب منتظرة طرقة اليد الخفيفة لتفتح لهما الباب وتخرج معهما؟ لابد أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث، وإلا بماذا يمكن تفسير السرعة المهولة التي انتهى بها كل شيء. وقف الجيب اللاندروفر كأنه سقط من السماء أو انشقت عنه الأرض، ترجّل منه ثلاثة رجال، اثنان توجها إلى البقالة ليسألا عن منزل الحاجة كريستينا (حتى إنهما أشارا لكريستينا بـ«الحجة» أيضاً)، ودون أن ينتظرا إجابة، توجها للمنزل بثقة، فيما ظلت عينا الرجل الثالث تمسحان الشارع بهدوء. بعد برهة جلب الرجلان الحاجة وركب الجميع الجيب وانطلقوا. ثم كأن الهواء ابتلع الجيب الذي سرعان ما اختفى في زوبعة الغبار التي أثارتها عجلاته. تبخر كأنه لم يكن. يمكن بالكثير من اليقين، كما اتفق أهل الحارة، القول إنها فعلاً

كانت في انتظارهما، إذ أن الزمن الفاصل بين طرقهما على الباب الصفيحي وبين ركوبها الجيب معهما لا تتعدى خمس دقائق. لم يقم أحدهم باحتساب الوقت، لكن يقينهم حول ذلك كان جازماً. نظراتهم الباهتة وعيونهم الشاخصة في الفراغ الذي تركه الجيب تشير إلى الفزع الذي خلّفه الحدث في نفوسهم.

ها هي الحرب التي بدأت قبل أيام حصدت المئات، ومازالت أنيابها تلتهم المزيد، يأخذ نهرها الجارف الحاجة كريستينا من بينهم. لا يمكن توصيف ما حدث بأي حال. يمكن لصحفي أن يقول: الاختفاء المفاجئ للحاجة كريستينا. ولكن من سيهتم وسط كل هذا الموت بخبر اختفاء حاجة تجاوزت السبعين. فالموت الذي يحصد أرواح الشباب والأطفال ويهدد كل ما يدب على الأرض يواصل مهمته القاسية بالكثير من الثقة. من يأبه لمثل هذا الاختفاء! من يكترث لسيدة بلغت من الكبر عتياً حين اختفت، فيما الموت يمزق أشلاء الناس وينثرها مثل قمح مطحون!

بصراحة لم يكن أهل الحارة بهذه القسوة على الحاجة كريستينا رغم غضبهم الشديد مما حدث. كما لم يكونوا متفقين بشكل كامل على تفسيره، فالمزاج العام يتقلب ويتبدل بين ساعة وأخرى. ففي اللحظة الأولى للحدث ساد قلق كبير أن ثمة من خطف الحاجة بغية قتلها أو سرقتها. ثم ما إن تكشّفت الحقائق والتفاصيل حول خروج الحاجة برضاها دون مقاومة مع الرجلين، حتى بدأت الشكوك تأكل يقين الناس وثقتهم بالحاجة كريستينا.

قال جمال اليساري: لقد خرجت معهما كأنها تعرفهما. سألا حمدي ولم ينتظرا إجابة. نظر لحمدي يطلب مصادقته على روايته، ثم أكمل: كانا يعرفان أنها تنتظرهما.

ساد صمت قطعه الشيخ محسن بصوته الغاضب:أنا من الأول مش مرتاح لهذه اللي بتقول عنها «حجة». يا جماعة نسيتوا إنها بتسمي حالها كريستينا؟ ونظر إلى السماء كأنه ينتظر جواباً من الله.

دائماً هناك مساحة للعقل، حتى وإن كانت صغيرة بحجم ثقب الإبرة لكنها كافية دائماً، خاصة حين تأتي في ذروة الغضب وفلتان السخط من عقاله. صوت صفية الخافت كان الأقوى رغم ذلك في كل هذا النقاش، إذ قالت موبخةً الجميع إن «الحاجة كريستينا واحدة منا. فرحت معنا وحزنت معنا. أهلها ماتوا في النكبة، وزوجها أحد أبطال المخيم، وابنها لليوم ما بنعرف شو أخباره. لما بتختفي بدل ما تدوروا عليها، وتشوفوا شو اللي جرى لها، بتتفلسفوا قاعدين». رمقتهم بنظرة حملت من الازدراء أكثر مما حملت من العتب، ثم سارت نحو بيتها الواقع قرب بيت الحاجة كريستينا.

عيونهم الآن تنظر في الأرض، لا تريد أن ترى الخجل في وجوه الآخرين. لم تصدر كلمة واحدة عنهم. الشيخ محسن كان أول المنسحبين، حتى إنه لم يتمتم بكلماته المعهودة عن الغضب الإلهي ووعود الآخرة. هذه المرة انشغلت أصابعه بمداعبة حبات مسبحته السوداء الكبيرة مثل قطع من الرخام. بعدها انفض الجمع وسار كلٌّ إلى طريقه.

حُسم الأمر الآن: إنها قصة اختفاء مفاجئ لا تحتمل كل هذه التأويلات ولا العواطف والمواقف الشخصية.

لم يكن من المجدي التوجه للإذاعات المحلية لإذاعة مناشدة تطلب ممن يعرف معلومة عن اختفاء الحاجة أن يُبلغ أهل الحارة بها. فالإذاعات ومذيعوها مشغولون بالأخبار العاجلة التي ترد كل ثانية

من مكان ما في قطاع غزة حول القصف والدمار والقتلى والجرحى. ضحك سامي، الصحفي الشاب، الذي بات صحفياً متمرسا يعمل في إحدى وكالات الأنباء المحلية، حين اقترحوا عليه في الحارة أن يساعدهم في نشر مناشدة حول اختفاء الحاجة.

قال: فقط أخبار الحرب يمكن إذاعتها، لا شيء آخر.

استخدموا معه كل وسائل الضغط الممكنة. ذكّروه كيف أن الحاجة هي القابلة التي قامت بتوليد أمه وسحبته من بين فخذيها إلى الدنيا، وكيف أنها قطعت له «الخوفة» أكثر من مرة، والكثير الكثير من الفضائل التي قدمتها لكل الحارة. ابتسم ابتسامة من يَشعر بأن ما سيقوله لن يُقنع مستمعيه، وقال: صدقوني الموضوع لا علاقة له بأهمية الحاجة، بل بأهمية الحرب التي لا تُضاهى. وأمام الضغط الشديد تناول هاتفه الجوال واتصل على زميله في إحدى الإذاعات المحلية. وكي يثبت صحة ما قال، قام بتشغيل مكبر الصوت في الجهاز حتى يسمع الجميع. ضحك زميله على الطرف الآخر للخط كأنه سمع نكتة دسمة. قال باستغراب كبير: «اختفت!!.». رد سامي: «آه جارتنا واحنا قلقانين عليها. بصراحة كل الحارة نسيت الحرب وعم بتفكر في اللي صار للحجة». واصل زميله على الجانب الآخر الضحك، تظن أنه أصيب بنوبة من الضحك الذي لن ينتهي. ثم قال فجأة كمن اكتشف اكتشافاً: إذا بدك بنقول إنها استشهدت. اجتها قذيفة، وقع عليها لوح أسبست طار من بيت تم قصفه... شيء زي هيك.

بس هي ما ماتت. اختفت.

فاهم فاهم، بس في الحرب اللي بختفي يعني مات.

مش بالضرورة.

بعدين عمرها مليون سنة (ضحكة هستيرية).

دبّرها من عندك.

يا رجل هو فيه حدا سأل عن الحجة كريستينا أو الحجة فوزية!

مين هاي الحجة فوزية؟

ضحك الشاب على الطرف الآخر ثم قال:جارتنا احنا، إجتها قذيفة انبارح.(صمت) سامي أنا مشغول. الأخبار زي المطر بتنزل فوق رأسي. معلش باي.

رمق حمدي سامي وقال: يوم ما نحتاجك بطلعش بإيدك شي.

لم يعرف سامي ماذا يفعل. قال إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقوم به هو أن ينشر خبراً على صفحة إلكترونية يشرف عليها هو ومجموعة من الشباب. صحيح أنها صفحة لا تلقى رواجاً كبيراً، لكن «ريحة البر ولا عدمه».

التاريخ اليوم هو 9/ 1/ 2009. إنه اليوم الرابع عشر للعدوان الجديد على غزة الذي بدأ يوم السبت 27/ 12/ 2008. في ذلك اليوم أغارت الطائرات على أهداف متنوعة ومتعددة في غزة في لحظة واحدة. كان ذلك قبل الظهر بقليل عند الساعة الحادية عشرة والنصف. المذيع في الإذاعة المحلية قال مصدوماً: غزة تحترق. ألسنة الدخان الأسود القاتم تصعد من مواضع مختلفة خاصة من السرايا والجوازات وأنصار وموقع الـ«17»، مثل مداخن آبار النفط. ثمة دخان يتصاعدمن كل ناحية، ثم يتلاقى في السماء فيُغطي غزة بسحابة سوداء تحجب الشمس التي بدأت نشطة في ذلك النهار

الشتوي. استهدف القصف أماكن مختلفة في القطاع. خرجت كريستينا إلى الشارع مثلما خرج كل سكان الحارة فزعين يبحثون عن مكان القصف. الأرض تميد تحت أقدامهم والسماء تشتعل حمماً تسقط من الطائرات. ثم فجأة شدت صفية كريستينا جانباً وهي ترى صاروخاً يهوي من الطائرات ليسقط شرقاً والشظايا تتطاير في شارع الحارة. كان الموت قريباً للدرجة التي يمكن فيها اشتمام رائحته.

لم يكن الأمر مزحة أو مجرد قصفٍ عابر أو غارة روتينية. كان ثمة شيء غير عادي في كل ذلك. ثم بدأت أصوات الإسعافات تدوي وتولول والسيارات الخاصة والأجرة تركض في الطريق تمتد من نافذتها رِجل شخص مصاب، أو نصف جسد لشهيد مسجى على المقعد الخلفي. كانت رائحة الموت بطيئة، لكنها برعب وثبات تتخلل جسد غزة مثل مخدر، قبل أن يصبح الموت خبراً عادياً. مجرد خبر. دائماً قد نكون عرضة لأن نكون خبراً صغيراً في نشرة المساء، أو قد نكون شهوداً على حدث كبير، لكن قليلاً ما ندرك هذا لحظة الحدث، إذ إن الصدمة والخوف والمفاجأة قد تسرق منا لذة الإدراك.

الفلسطينيون يحترفون الحديث في السياسة. هواهم، طبعهم، عادتهم، أي شيء. «على الطلعة وعلى النزلة» يجلسون في الشارع، في التاكسي، في البيوت، في أماكن العمل. وهم لا يتحدثون فقط فيما يخصهم، بل في كل ما يجوب العالم من أخبار. أبو درويش، أحد أركان الحارة الأساسية، مات وهو يحمل جهاز الراديو يُقّلب مؤشره بحثاً عن محطة تأتيه بخبر يسعده. ربما ظل جهاز الراديو يتلو الأخبار ويبث التحليلات، وأبو درويش يرقد في قبره أيضاً ينتظر أن يسمع خبراً؛ حتى لو بعد فوات الأوان. الحاجة كريستينا أيضاً تدمن الحديث في السياسة. تحترف تفسير الأحداث. سرعان ما يفد عندها

سكان الحارة يسألونها عن رأيها فيما يحدث، وعن تحليلها لما يجري. ثم سرعان ما يسأل أحدهم: «شو بقولوا الأجانب يا حجة؟». فالحاجة كريستينا، التي عاشت أكثر من عقد من صباها في لندن، لم تتوقف يوماً عن سماع نشرة الأخبار باللغة الإنجليزية من إذاعة الـ«بي بي سي»، حين يتوفر لها ذلك. بل إنها اشترت مؤخراً جهاز ساتلايت لتشاهد قنوات التلفزة الإنجليزية.

هكذا اندفع أهل الحارة يحللون ويُفصّلون ويشرحون ويروون ما سمعوه في الأخبار قبل ذلك عن الوضع، ويستحضرون كلمات الساسة قبل أيام. يُغلفون كل ذلك برغباتهم وأحلامهم ومواقفهم الشخصية مثل الكريما البيضاء التي تلف قطعة من الفحم. بالطبع لا يخلو الأمر من ألمٍ وقلقٍ يأكلان أرواحهم، يصيبانها بالعطب والعفن. لذا كانوا يتلهون وينشغلون عن الألم بالحديث عنه، بالاقتراب منه أكثر، بملامسته. هكذا نفعل في مرات كثيرة حين نشعر بالعجز وقلة الحيلة، ندفع العجز إلى أقصى مداه. فعل ناجم عن اللافعل. ثم نكتشف أن شيئاً داخلنا يخبو وينطفئ، ولا يبقى منه إلا بريق خافت، لكنه مثل ضوء ضعيف يموج في العتمة، يشير إلى نهار قادم. بريق ناهزت كريستينا السبعين وهي تنتظره، تقبض عليه رغم قسوة الزمن، تفكر في يافا المدينة التي خرجت منها طفلة وقد احتفلت بعيد ميلادها الحادي عشر في ذلك الصباح التموزي من العام 1947، ولم تعد لها بعد ذلك. الصبا الذي ذهب هناك لكنه بقي معها، مثل لحظة تجمد عندها الزمن.

في اليوم الرابع عشر للحرب اختفت كريستينا.

من سيهتم بخبرٍ يتحدث عن اختفاء سيدة في عقدها الثامن! قبل أن يُتم سامي تنزيل الخبر على صفحة الإنترنت التي يديرها مع

أصدقائه، كانت شارة الأخبار العاجلة على الصفحة تقول إن عدد الشهداء زاد عن ثمانمائة شهيد والجرحى عن الثلاثة آلاف، وما إن تنتهي الحرب في الثامن عشر من يناير حتى يكون تعداد الشهداء قد اقترب من ألف وأربعمائة شهيد. وحين يبدأ الناس لململة آلامهم ولعق جراحهم ويطوي المُهجّرون أمتعتهم القليلة، ويعودون إلى بيوتهم المهدمة يبحثون عن بقايا الأثاث والألعاب وأدوات المطبخ، ينتشلون ذكرياتهم من قاع الركام، ويبدأ الساسة بالحديث عن إعادة إعمار غزة، والصمود الأسطوري والبطولة والانتصارات المحققة وتلك المتخيلة والأخرى المُشتهاة، وفيما لا يكل المحللون عن استعراض مهاراتهم في تشكيل الكلام وتزويقه والعبث بآلام الناس كمادة للحوار والتسلية، ويصير الحديث عن الحرب جزءاً من حديث أشمل عن الماضي، سيظل أهل الحارة مشغولين باختفاء الحاجة كريستينا الذي كان أقل أحداث الحرب شأناً، لكنه الأكثر وقعاً على حياتهم.

مثل الكثير من الأحداث، كان الزمن كفيلاً بتغطيتها بطبقة كثيفة من غباره، لتصبح تدريجياً قصة جديدة من قصص الفقد التي تملأ حياة الناس. فحياة الحاجة سلسلة طويلة من الفقد منذ خرجت من بيتها في يافا ولم تلتم منذ ذلك الوقت على عائلتها. وربما فقط المقارنات المريرة بين ألمٍ وألمٍ آخر، وبين معاناة وأخرى، هي ما تجعل المرء في مرات كثيرة يمطّ شفتيه ويهز كتفيه في لامبالاة تكسر رتابة الزمن، وتتمرد على رمله الذي يذروه في العيون.

لكن في الحقيقة لم تخمد قصة الحاجة كريستينا كما قد يقترح هذا الحديث، إذ إنها ورغم تراجعها في مجالس الحارة أمام أحاديث أخرى أكثر إلحاحاً وتصيب تفاصيل حياة الناس، إلا أنها بقيت

تظهر بين فينة وأخرى ملحةً على إجابة واضحة: أين ذهبت الحاجة؟ يبدو هذا السؤال الآن في الحارة مثل سؤال المليون دولار.

سامي، الذي بات سؤال اختفاء الحاجة بالنسبة له قصة صحفية يمكن أن تجد مكانها بين عشرات قصص الاختفاء والبحث عن المفقودين التي تنجم عن أي حرب، قام بعمل صفحة خاصة حول الأمر بعنوان «وين الحجة؟». الصفحة لاقت رواجاً كبيراً بين مستخدمي وسائط التواصل الاجتماعي، وصارت «هاشتاج» رائجاً بين الشباب الفلسطينيين. للصدفة البحتة، أو ربما لغاية مقصودة، فقد قام سامي بوضع مجموعة من صور الحاجة في مراحل مختلفة من حياتها تبدأ بصورتها أمام بيت والدها في يافا حيث بالكاد تجاوزت سنو عمرها عدد أصابع اليد، وتنتهي بصورة لها وهي تقف أمام منزلها في الحارة، وهي صورة تجاوزت فيها السبعين عاماً. وبين الصورتين عشرات الصور الأخرى التي كان الكثير من أهل الحارة يرونها للمرة الأولى. منها صورة لزوجها مع الضابط المصري مصطفى حافظ الذي كان يقود العمل الفدائي في خمسينات القرن العشرين في غزة. وصورة أخرى لها تبدو مقتطعة من صحيفة وسط مئات الناس، كتب تحتها: «في استقبال عبد الناصر في غزة». وأخرى في استقبال مالكوم إكس مع مجموعة من نساء القطاع.وصورة فوق جسر لندن خلال زواج الملكة اليزابيث الثانيةفي نوفمبر عام 1947،وصور أخرى مع نساء الحارة في مناسبات مختلفة خاصة حفلات الأفراح. بجانب الصور الشخصية مثل صورتها مع زوجها وابنها الوحيد، وصورتان لها مع ياسر عرفات. ألبوم غني ومتنوع وجده سامي في بيت الحاجة الصغير في الحارة.

في البداية واجه سامي صعوبة في الدخول لبيت الحاجة والتنقيب بين أشيائها بحثاً عن أي شيء قد يدل على سبب اختفائها. كل أهل الحارة عارضوا الأمر وعدوه إهانة للحاجة. وحدها صفية، رفيقة درب كريستينا، وافقت الشباب على مطلبهم بضرورة تفتيش بيت الحاجة. في جنح الليل تسلل سامي بصحبة اثنين من أصدقائه داخل البيت، بعد أن أعطتهم صفية المفتاح، وقاموا بالتنقيب داخله.

وجد سامي في البيت مجموعة كبيرة من الصور. يبدو أن الحاجة كانت تهوى التصوير. بعض هذه الصور لم يقم بتنزيلها على الصفحة مثل صور الحاجة في الكنيسة في غزة خلال احتفالات أعياد الميلاد.

رسائل بريد مكتوبة بالإنجليزية موجّهة للحاجة من صديقاتها وأصدقائها في لندن تعود آخرها إلى سبعينات القرن العشرين، موضوعة بعناية داخل مظاريفها التي مازالت تحمل طابع البريد.

بعض قصاصات من الصحف عن أحداث هامة ومفصلية.

أوراق متناثرة مكتوبة بخط اليد، تبدو مشروعاً أولياً غير ناضج ليوميات غير مكتملة باللغة الإنجليزية.

ورقة منزوعة من دفتر شخصي مرسوم فيها فتاة بقلم الرصاص.. مثل بروتريه شخصي.

بضعة كتب بالإنجليزية بعضها روايات ومسرحيات، خاصة: «حكاية مدينتين» و«جين إير» و«مرتفعات ويذرنج» و«الوسيط» و«الملك لير».

حقيبتا سفر، واحدة بنية اللون تتدلى من أحد أذرعها خرزة، والأخرى زرقاء اللون. بعض الملابس مازالت مرتبة بعناية داخل الحقيبة كأن صاحبها سيسافر للتو.

أخذ سامي كل شيء إلا حقيبتي السفر فقد تركهما تنتظران الحاجة حين تعود.

بعد قرابة شهر من حادثة اختفاء الحاجة حُسم الأمر بعد جدل عنيف دار في الحارة. لم يكن هناك سبب مقنع حول اختفاء الحاجة. وها قد مر شهر ولم تقم مثلاً بمحاولة الاتصال أو التواصل مع أحد في الحارة، فهذا يعني أنها تركت الحارة بمزاجها، ولم تكن مرغمةً. موظف الصليب الأحمر الدولي قال لوفد الحارة، حين سألوه في مقر الصليب الجديد قرب دوار حيدر عبد الشافي، إن سيارة الصليب الأحمر حقاً جاءت وأخذت كريستينا، فهي مواطنة بريطانية وحكومتها كانت قلقلة عليها أن تصاب في الحرب. الصليب الأحمر كان وسيطاً وسلمها عند حاجز «إيرز» إلى سيارة أرسلتها السفارة البريطانية. ببساطة الأمر ليس معقداً كما يبدو.

كأن الناس اكتشفوا ما يعرفون، فالحاجة كريستينا حقاً مواطنة بريطانية منذ عادت من بريطانيا في شهر فبراير من العام 1958، لكنهم نسوا ذلك. سحبوا أجسادهم بتثاقل خارج مقر الصليب الأحمر. وقفوا دقائق على باب المقرغير مصدقين الصدمة. فالحاجة كريستينا عادت إلى بريطانيا بعد واحدٍ وخمسين عاماً تقريباً. بعد كل هذه السنين قررت أن تعود إلى هناك. اكتشاف مرير لكنه يفي بالغرض: أن يفهموا ما حدث. فالقصة لم تعد لغزاً يحتاج لقراءة الغيب لفك طلاسمه. مواطنة بريطانية تعيش في مخيم اللاجئين قرب غزة، تشعر حكومتها أن حياتها مهددة بالخطر، فتقرر أن تقوم بعملية إنقاذ لحياتها. طبعاً يمكن لمن يريد أن يُعّقد القصة أن يحتج على قبول الحاجة وعدم اعتراضها. لكن من يعترض على منحه

فرصة أخرى للحياة فيما الموت يجوب الشوارع حوله! الرومانسية الزائدة كما التشاؤم وكما الطوباوية الزائدة لا تقدم تفسيراً للواقع ولا تقدم حلولاً للخروج من المحن، إنها فقط تسلينا وتواسينا أن ثمة حلاً آخر لا يقدر عليه الجميع، لذا فهو غير موجود ولم يتحقق.

كان يجب أن يتم طي هذه الحكاية، ووضعها في صندوق الماضي الذي يعج بآلاف الحكايات المختلفة التي تزخر بها ذاكرة الناس ونسيانهم أيضاً. هكذا أصبح ما حدث في التاسع من يناير عام 2009 مجرد قصة أخرى من قصص المخيم، قصة لا تتميز إلا بهذه المرارة التي تركتها الحاجة كريستينا في نفوس الناس حين تركتهم يواجهون موتهم المحقق وحيدين، وقررت النجاة بنفسها.

خيانة!

معقول الحجة تخوننا!

هربت.

بل نجت بجلدها.

يعني خانتنا!

من يترك فرصة للنجاة؟!

كل الشباب بتفكر في الهجرة.

صار عمرها أكثر من سبعين سنة، شو بدها بالدنيا!

حياتها وهي حرة.

في الليل اجتمعوا مرة أخرى حول نار ضخمة أوقدها حمدي أمام بقالته. الأمر لم يعد مجرد اختفاء، فالحاجة كريستينا اختارت أن

تنجو بنفسها، وتترك أهل الحارة وحيدين يواجهون الموت المحتمل. كان يمكن لها أن تبقى معهم ثم ترحل بعد انتهاء الحرب، لكنها بحثت عن حياتها وحدها، فحياة الناس لا تعنيها. لكن لماذا لم تهرب من غزة قبل ذلك؟ مثلاً خلال الانتفاضة الأولى حين كان الموت أيضاً يبحث عن فرائسه بين الناس، أو خلال الانتفاضة الثانية حين كان من السهل أن تموت في أي عملية قصف قد تحدث، أو حتى لماذا لم تعد إلى انجلترا حين احتلت إسرائيل قطاع غزة وصفعها يومها الجندي على خدها وطرحها أرضاً. كان يمكن لها أن تسحب نفسها وتخرج، لكنها لم تفعل! ضحك الشيخ محسن وقال بقوة العارف للأسرار: كانت تعرف أنها لن تموت في كل تلك الأحداث، لم يكن الخطر محدقاً بها. أما في هذه الحرب فقد أدركت أن الأمر أخطر مما يُحتمل.

لم تُجدِ كل مرافعات المدافعين عن الحاجة في تغير الرأي الذي بات يتشكل بأن الحاجة خانت الحارة وهربت. أحد المسلحين حاول الدفاع عن الحاجة لكن بلا جدوى. قال وهو يعيد لف كوفيته حول عنقه: يا جماعة يمكن الاحتلال خطف الحاجة. ضحك البعض على الاقتراح الساذج كما وصفوه، وقال أحدهم: «ليش شايفها هلقد خطر على إسرائيل».أحدهم قال بمرارة: إنها فعلت الأمر نفسه حين كانت طفلة صغيرة حيث تركت الأهل في يافا «وهربت» (وشدد على الكلمة) إلى لندن بحجة العلاج. أسهل شيء أن تجد عذراً تبرر فيه الخطأ، لكن الصعوبة تكمن في أن تكون منطقياً. كما ختم المتحدث . كان هذا أيمن، المدرس الجامعي. إذاً الأمر لم يبدأ اليوم، بل إن الحاجة قد اعتادت على خذلان الناس وتركهم في الأوقات العصيبة. هل يمكن لهذا القول أن يحتاج إلى برهان!

انتهى الأمر، وانتقلوا إلى حكايات ومواضيع أخرى. حمدي يقلب حبات الكستناء على قطعة الصفيح الصغيرة التي وضعها على طرف كانون النار. صوت حبات الكستناء تطقطق كأنها تبعث فيهم قلقاً قرروا أن يضعوه جانباً.

المفارقة في ذلك أنه في الوقت الذي قرر أهل الحارة نسيان الأمر، بعد أن اعتبروا ما حدث خيانة من الحاجة لهم، فإن قصة الاختفاء المفاجئ للحاجة صارت تتفاعل أكثر خارج الحارة وخارج المخيم وخارج غزة حتى. فصفحة «وين الحجة»، التي أطلقها سامي على الانترنت، جذبت عشرات آلاف المتابعين الذين باتوا يساهمون في نشر الصفحة وتعميمها، حتى صارت الصفحة أحد أبرز مواقع الحديث عن العدوان على غزة، بل صار يصعب الحديث عن غزة على مواقع التواصل الاجتماعي دون الإشارة إلى الصفحة. بعض الشباب قاموا بكتابة «وين الحجة» على الجدران. بكلمة أخرى صار مألوفاً أن تجد أحدهم يتحدث عن الأمر؛ لكن ليس في الحارة التي قررت نسيان الأمر عنوة قبل أن يعود للطغيان على تفاصيل حياتهم.

الصحافة المحلية جذبتها القصة لاسيما بعد أن استنزفت صفحاتها وأقلام مراسيلها ومحرريها وهي تتحدث عن قصص متشابهة بعد الحرب. في قصة الحاجة ما يغري. سيدة في عقدها الثامن تأتي سيارة جيب لاندروفر دولية، وتحملها وتذهب بها مع الريح، دون أن تترك أثراً إلا الغبار وعلامات الاستفهام. في تقرير نشرته صحيفة محلية، ركّز الصحفي على صورة الحاجة في استقبال عبد الناصر والعلاقة -كما قال- مع ياسر عرفات والحياة في لندن. شذرات متباينة متناقضة تقترح أن ثمة حكاية جديرة بالمتابعة. في

الحقيقة لم يعد يهم متابعو الصفحة كثيراً الإجابة على السؤال الذي خُصصت له صفحة «وين الحجة»، إذ إن حقيقة الاختفاء لم تكن إلا مفتاحاً لأحاديث أخرى حول الحاجة وحياتها ومقتنياتها وعلاقاتها وقصتها التي بدأ الناس ينسجون عليها بعض الغرابة. لم يكن مهماً أين الحاجة الآن، أو من الذي خطف الحاجة، أو من ساعدها في الخروج من الحارة وقت الحرب. هذه أسئلة لا تهم أحداً، صار الحديث فيها حتى على الصفحة مملاً أمام جاذبية الحكايات التي بات الناس يختلقونها حول الحاجة وحياتها، بدءاً من خروجها من يافا قبل النكبة للعلاج في لندن، ومروراً بعودتها المفاجئة للمخيم في خمسينات القرن الماضي، وزواجها واختفاء ابنها بعد خروجه للتعلم في مصر في الثمانينات، وصولاً لاختفائها فجأة في اليوم الرابع عشر للحرب في يناير عام 2009.

بعبارة أخرى، صارت الحاجة أحد المواضيع الجذابة حين يتم الحديث عن غزة. وصار يمكن سماع قصص يمكن الجزم بأنها من اختلاق الناس، لكنها تصب في نهاية المطاف في تحويل الحدث البسيط إلى واقعة مهولة. فالجميع بات يشعر، بدرجات متفاوتة وحب وكره متفاوتين، أن قصة الحاجة هي قصته، وأن الأمر يعنيه شخصياً. ليس هذا فحسب، بل إن من حقه أن يبحث بطريقته ليس عن مكان الحاجة، بل عن «ماذا كانت الحاجة؟»، وما هي قصتها الحقيقية، وكيف لسيدة فلسطينية أن تكون بريطانية وتتنصل طوال كل تلك الفترة لكل ذلك، وفجأة تعود إلى «بريطانيتها»، وتترك أهلها.

أكثر من صحيفة أجنبية جذبتها أيضاً القصة وكتبت حولها تقارير طويلة أيضاً تصّدرتها صور الحاجة في أماكن مختلفة. مراسل

إحدى الصحف الإنجليزية وجد في قصة مواطنته حكاية تستحق أكثر من مجرد تقرير، فقام بتسجيل قصص رواها له الناس عن الحاجة كريستينا ومكانتها في الحارة، وعن حقيقة كونها مواطنة بريطانية.

لكن مثل كل الألغاز، ومثل كل القصص العجيبة، فإن كثرة تداولها يحولها إلى شيء مألوف، ثم يوضع في أدراج الزمن في رقاد وسلام. فرويداً رويداً بدأت قصة الحاجة على مواقع التواصل تهدأ أمام الكم الهائل من القصص الأخرى التي بدورها تشتعل مثل النار ثم تخمد، حيث الحياة في غزة لا تترك لك برهة للتأمل والتوقف أمامها، فهي سريعة التغير والتبدل، وما أن تظن أنك هضمت ما حدث حتى تجد نفسك مصدوماً من حدث جديد. فالأمر ليس له علاقة إذاً بالحاجة ومكانها في قلوب وحياة الناس. فرغم السخط الكبير الذي شعروا به لخيانتها لهم وتركهم وحيدين في الحرب، إلا أن نمط الحياة جعل من هذا الشعور مجرد شعور آخر بالخذلان وقصة أخرى من خيبات الحياة. أما صفحة «وين الحجة» التي أشعلت الدنيا نقاشاً وأثارت قصة الحاجة في عوالم بعيدة، فقد تحولت مع الوقت إلى موقع إخباري عن غزة يزود القارئ بآخر الأخبار والتقارير والصور من المدينة الملتهبة بالأحداث دوماً. الشيء الوحيد الذي لم يتغير في الصفحة هو ألبوم الصور الموجود على جانبها، والذي لم يعد أحد يلتفت إليه في ظل زحمة الصور الأخرى التي يزخر بها الموقع، خاصة مع تسارع الأحداث واستقطاب الموقع لأقلام هامة لتكتب فيه سواء تقارير صحفية أو مقالات رأي.

ومرة أخرى اختفت قصة الحاجة ولم يعد أحد يسأل فعلاً «أين الحاجة؟»، أو ما الذي حدث لها، ولا كيف يمكن العثور عليها. ومثل الكثير من علامات الاستفهام فإن الإجابة لم تكن

ضرورة، أو أن قسوة الواقع وتبدّل الحال وسرعة التغير الذي يحدث في المجتمع، كل ذلك جعل البحث في حقيقة اختفاء سيدة في العقد الثامن من عمرها ترفاً زائداً، فيما مئات الأطفال، الذين لم ينعموا برحيق الحياة بعد، يغادرونها بلا سبب وبلا ذنب. من يكترث حقاً للحاجة كريستينا! ربما حفنة قليلة من الأصدقاء والمعارف الذين حبسوا ألمهم في صدورهم هم أيضاً، وتركوا شراع الحياة يحملهم على موجها المضطرب.

لكن لننتبه!! لا شيء يختفي بالكامل، ليس لأننا لا نريد أن ننسى، أو لأن ثمة أشياء وأحداث عصية على النسيان، بل لأن هناك حكمة غير مرغوبة اسمها «المفاجأة». وحياتنا ليست إلا سلسلة مضطربة وغير منتظمة من المفاجآت التي تحدث حين لا نتوقعها بالطبع، وما إن تحدث لا تعود مفاجئة، حيث تأخذنا الدهشة إلى عمق الواقع الذي أحدثته وتصبح أمراً عادياً أيضاً. تسلسل عجيب وانتقالات مهولة بين المدهش والعادي، بين المفاجئ والمتوقع، بين المألوف والغريب، بين ما يمكن تصديقه وما لا يتطابق مع العقل، وكيف تتحول الأشياء من موضع إلى آخر وتنتقل من الشيء إلى نقيضه. نحن لا نحس بذلك دائماً، وحين نفعل يكون الأمر قد انتهى. الحاجة كريستينا كانت تقول: كل شيء حلم حتى يحدث. وكانت تقصد أن حياتها سلسلة أمنيات لا يمكن لها أن تجزم بتحققها إلا حين لا يعود الأمر أمنية. هكذا علمتها الحياة في غزة، وهكذا علمتها السنوات النيف والسبعون من عمرها التي قضتها كأنها تسير على حافة جدولٍ وتموت من العطش.

من يعرف كل هذا الألم ولا يتألم !

أيدٍ لا تلوح في الهواء

اندفع القطار مثل ثعبان مرهق بين رمال صحراء سيناء قبل أن ينسل بخفة إلى غزة، حيث تظل بقايا الصحراء عالقةً حتى يصعد الجسر الصغير فوق وادي غزة المندفع بمائه من جبال الخليل. عند هذه النقطة لا يعود للصحراء طعم ولا أثر، حيث تتوارى آخر أشجار النخيل الكثيفة خلف الوادي، وتتراجع رائحة الرمال. مازالت مدينة غزة تختبئ في داخل الحزام الذي تشكله بيارات البرتقال المنتشرة بكثافة حول أطرافها الجنوبية. بعض البيوت بدأ تتدريجياً في الظهور على جانبي خط السكة الحديد قبل أن يصبح القطار وسط المدينة، شاقاً طريقه تجاه «المحطة» الواقعة في حي الشجاعية.

لا أحد هناك يلوح لها بيده، لا أحد ينادي على اسمها حين اندفع المسافرون من أبواب القطار. لا عيون تبحث عن وجهها بين الوجوه. ثوبها القطني الطويل الضيق عند الخصر والحزام العريض المصنوع من نفس قماش الثوب مربوط بشكل رخو مبرزاً بشكل حاد وركيها. قبعة ضيقة من القش فوق رأسها، ينسل من تحتها شعرها الكستنائي القصير. وحده ثوبها لفت الانتباه لهذه الفتاة «الأجنبية»، كما تهامس الشبان وهم ينثرون حولها كلمات الغزل،

قبل أن يزجرهم عامل المحطة وهو يساعدها في جر حقيبتها الزرقاء من ماركة «أنتلر» الإنجليزية مستطيلة الشكل من داخل القطار، فيما جرّت الفتاة حقيبة بنية أطرافها معدنية تبدو أكثر قِدماً من الأولى، تتدلى من مقبض يدها خرزة زرقاء مربوطة بإحكام بقطعة قماش، ثم واصل عامل المحطة عمله وهي تومئ له بالشكر. وضعت الحقيبتين على الرصيف. لا تعرف كيف تبدأ رحلتها الجديدة. رحلة عليها أن تقوم بها. الرحلة التي وجدت أنها الطريق الوحيد الذي تركته الدنيا أمامها. ستكتشف كريستينا بعد ذلك أن فكرة *الطريق الوحيد* هي إحدى التعويذات التي يرميها القدر على مصيرها. ففي كل مرحلة في حياتها ثمة طريق وحيد وإجباري عليها سلوكه، أو ربما طريق تجد نفسها تسلكه رغماً عنها.

لم يلوح لها أحد. لم يركض أحد نحوها ليحضنها. ظلت ساهمة تنظر في الطريق المفروشة أمامها، تحاول أن تتبصر كنه المستقبل. شعرت بغصة في قلبها. بدت لندن خلفها الآن أكثر من أي وقت مضى. الآن تأكدت أن أيامها في لندن قد انتهت، رغم محاولاتها التمسك بآخر ما تبقى منها. تيقنت أن كتاب الحياة انفتح على صفحة جديدة. في هذا الكتاب تصبح فيه الصفحة المطوية من الماضي الذي لا يُستعاد. في الأسبوع الأخير، قبل وصولها إلى القاهرة في الطريق إلى غزة، وحين بات محتوماً أنها ستترك لندن، كانت تجلس على ضفة نهر «التايمز» الجنوبية تتأمل الماء الساكن وأوراق أشجار «الدلب» تتساقط على حواف النهر. لو أن الحياة كتاب فعلاً نمزق الصفحات التي لا نريد منه، ونضيف صفحات جديدة فيه. انفتح كتاب الحياة أمامها. رأته يستقر فوق سطح الماء، يطفو. سقطت عليه ورقة من الشجرة الهرمة التي تجلس تحتها. غطته الورقة، غاص في قاع النهر

واختفى. كل شيء سيتغير عما قليل، حياة جديدة ستبدأ، كتاب آخر سيسجل تفاصيل جديدة. طريق وحيدة أمامها، عليها أن تسير فيها دون أن تعرف تفاصيلها. لا حاجة للسؤال في مواقف مثل تلك، لأن السؤال يعني المزيد من الألم، الكثير من الحيرة. سماء لندن ملبدة بالغيوم مثل عقلها. لكن الفرق بينهما كبير، حيث من الصعب توقع الطقس في لندن فإن عقلها أسير دوامة واحدة لكنها كبيرة تكفي للإجهاز عليه. الصمت صديق وحيد في الأزمات، لكنه أيضاً دليل الأزمة والبرهان على وجودها.

التفتت خلفها.المسافرون مضوا في طريقهم. كل شيء هدأ وسكن في جوف المساء، فيما الشمس الباهتة تلتقط أنفاسها الأخيرة وهي تميل نحو الغروب. عامل المحطة أقفل باب غرفة التذاكر وهو ينظر إلى الفتاة الأجنبية التي تبدو مرتبكة وهي تنظر إلى حقيبتيها وتمسح وجهها بمنديل أبيض، تزيل عنه الغبار الذي علق به. رفعت القبعة عن رأسها حين وصل عامل المحطة سألاً إذا كانت تريد مساعدة. رغم أنها فهمت سؤاله، إلا أن لغتها العربية لم تسعفها عل الإجابة. الرجل الأربعيني استدرك بلغة إنجليزية معقولة. ابتسمت وردت بأنها فعلاً بحاجة لمساعدة. كانت قضبان السكة الحديد تمتد بعند في قاع مجرى القطار شاهدة على آلاف المسافرين الذين وصلوا بيوتهم وآخرين تركوها، لكنها -أي تلك القضبان- ستظل محفورة عميقاً في ذاكرة الشابة لعقود ستأتي. تماوجت الصور في عقلها وهي تحدق في مجرى القطار. رأته نهراً يجري، تغطي أوراق أشجار الدلب سطحه، تتقافز فوقها العصافير. ثم تعود قضبان السكة الحديد لتتماوج مثل ماءٍ رقراق. يختفي النهر ثم يعود. لحظات لا تفارق عقل الشابة وهي تعيد تثبيت قبعة القش فوق شعرها الكستنائي.

فقط صوت عامل المحطة سيسحبها من قعر مجرى السكة أو مجرى النهر، حيث تمتزج الأخيلة في شغفٍ مؤلم، ليعرض عليها أن ترتاح قليلاً في غرفة الكونترول.

كان هذا أحد صباحات فبراير من العام 1958.

الشاي يغلي في الركوة التي وضعها العم منصور كما ستعرفه منذ الآن، وهي تحاول أن تشرح له قصتها. صوت قطار آخر يقترب، احتكاك عجلات القطار مع القضبان مثل نصل ينغرس في القلب. تسقط دمعات من عينيها. في مرات كثيرة لا نعرف كيف بدأت الحكاية، ولا كيف وجدنا أنفسنا نخوض غمارها، فقط في اللحظة التي لا عودة فيها ندرك أننا في غمار قصة أو ورطة أو مصيبة. تشبه حكاية كريستينا ورق الأشجار المتساقط في قاع النهر. هكذا أجملت قصتها وهي ترّطب شفتيها بلسانها، بعد أن ارتشفت آخر ما تبقى في كأس الشاي بالنعناع الذي حضّره لها العم منصور.

طريق طويلة كان عليها أن تقطعها بعد أن تركت كل شيء خلفها، وجاءت تبحث عن عائلتها في غزة. لم تكن عملية بحث بالمعنى الدقيق للكلمة، بل عودة إلى الأهل. تركت كل شيء، تركت إحدى عشرة سنة خلف ظهرها. تركت المدرسة والأصدقاء والجيران والعمر الذي كان مثل طريق مفروش بالورود أمامها، وجاءت إلى غزة. ظلت تحدق في الطريق التي يطويها القطار والدمعات لم تزل عالقة على أهدابها. لم تسعفها سنو عمرها الاثنتان والعشرين على هضم ما جرى فجأة، ولم تفهم كيف انقلبت حياتها رأساً على عقب. مرت إحدى عشرة سنة على خروجها من يافا، لكنها الآن لا تعود إلى يافا بل تعود إلى مخيم اللاجئين الذي أصبح مستقر عائلتها وجيرانها.

القطار ينهش صحراء سيناء مثل ثعبان يزحف على وجه الرمال الممتدة بلا نهاية. بين فينة وأخرى تُخرج الورقة الصغيرة من جيبها وتنظر إلى تفاصيل الرحلة التي عليها أن تقوم بها.

كل شيء كان مُعداً سلفاً. أقلتها الطائرة من المطار في لندن إلى القاهرة. ابتسمت السيدة «جين» في وجهها وهي تتأكد من انتهاء معاملات السفر. ظلت عيناها تراقبان الفتاة إلى أن صعدت إلى الطائرة، وحتى بدأت الطائرة في الزحف على الأرض، قبل أن تحلق في الجو. بعد أن هبطت الطائرة في مطار القاهرة، كما تُملي عليها الورقة الصغيرة، عليها أن تأخذ التاكسي إلى محطة القطار في القاهرة حيث ستركب أقرب قطار متجه إلى غزة. فعلت كل شيء كما هو مكتوب، كأن الورقة الصغيرة تلك التي لن تمزقها طوال حياتها، هي قدرها المنصوص فيه ما الذي يجب أن تفعله. الورقة التي قضت بأن تتغير حياة كريستينا من شابة لندنية إلى فتاة تعيش في مخيم للاجئين، ستظل لزمن ورقة شؤم ونحس، لكنها ستظل تحتفظ بها، مثل أن يحتفظ أحدنا ببقايا قميصه الممزق. كأن شيئاً يجب أن يظل عالقاً في الذاكرة، أو كأنها تصر وبعناد على أن تتذكر. لكن لكل وقت لغته الخاصة، وفي كل زمن تأخذ ذكرياتنا لوناً مختلفاً، كما سيكشف مستقبل الورقة التي ستصبح علامة من علامات الحنين، وشارة تستبشر كريستينا الخير حين تنظر إليها.

لم يكن هناك حدود بالمعنى التفصيلي للكلمة. فقط عند رفح، وحين تنتهي حدود مصر، صعدت لجنة التفتيش عن الجوازات والتذاكر، وبعد برهة قصيرة واصل القطار اندفاعه من رفح باتجاه غزة. ضربات عجلاته على القضبان، عادم الدخان الصاعد من فوهة المحرك باتجاه السماء، وجوه المسافرين وهم يستعدون لإنزال

حقائبهم، زغرودة المرأة في القاطرة الأمامية تملأ القطار فرحاً وبهجة بالوصول. بعض المسافرين نزلوا في محطة دير البلح وقبلها في خانيونس. الرجل الجالس قبالتها أدرك التوتر على وجهها وهي ترى بعض المسافرين يهبطون من القطار. نظر إليها وقال: «هذه دير البلح.. حين يصل القطار لغزة سأقول لك». هذا الحوار غير موجود في الورقة التي تقول إن القطار سيقف في غزة في نهاية الأمر. طوت الورقة وبدأت تستعد للقدر الذي لا تعرف.

لم تعرف شيئاً من كل هذا. فجأة كان عليها أن تواجه هذا المصير، أن تعيشه. ليس مُهماً أن تشكو أو أن تتألم، المهم أن عليها أن تتقبل كل هذا. الوقت، رغم كل ما يصحبه معه من غبار وأتربة تدمي عيوننا، إلا أنه كفيل أن يجعلنا نتقبل كل آنّات الحياة، نسكن إليها، تصبح جزءاً من ذكرياتنا. دروس كثيرة ستتعلمها كريستينا منذ تلك اللحظة. تقضي أهمها أن قطار الحياة مثل القطار الذي تركبه الآن، سيمضي، وأنه دائماً هناك قضبان تسير عليها عجلاته.

مثل أشياء كثيرة ستكتشفها في حياتها بعد ذلك أيضاً، وجدت كريستينا نفسها تسير في الطريق الجديد وتترك الحياة في لندن لتعيش في مخيم للاجئين في غزة، دون أن تمتلك الكثير من المقاومة. وجدت نفسها هناك. لم تقف تتأمل الرحلة القادمة، إنها تعيشها الآن بالكثير من اللامبالاة ربما، أو الشعور بعدم الرغبة في التفكير في التفاصيل. فقط شعرت أن عليها أن تواصل. وأن تواصل يعني أن تمسك بأقل قدر من الواقع حولك، أن لا تنظر بعيداً في جوف الطريق، أو أن تتفحص، بروية المتأمل، جوانبه. فقط عليك أن تدفع قدميك للأمام حتى يصبح السير ممكناً. لكن من يعرف ماذا يخبئ لنا القدر! من يعرف كيف تبدو الطريق في نهايته! ستكتشف لاحقاً، وحياتها ستكون

سلسلة من المفاجآت المذهلة، كيف كانت الطريق ملغومة وحبلى بمصائر لم يتنبأ بها أصحابها، ولا خالجهم ولو لثانية أنها ستحدث. يمكن لنا أن نقول إننا لو عرفنا لكنا غيّرنا الطريق واتخذنا مسلكاً آخر. لكن يمكن لمن يعرف الحياة جيداً، ولمن عاشها بحلوها وبمرها، أن يقول إننا كنا أيضاً سنسلك نفس الطريق، رغم كل ما قد يبدو في صورة الغيب من ثقوب سوداء واضطرابات حادة وآلام تنتظرنا.

لم يكن الأمر سهلاً، كما لم يكن مجرد قرار ذاتي تقوم به. بكت بكت بكت مثل غيمات تمطر في شهر آذار العاصف. طوال ثلاثة أيام صامت عن الكلام. لم تنطق حرفاً. لم تأكل لقمة. فقط قطرات من الماء تقيها الانهيار. لم تخلع ملابسها التي جاءت بها من لندن. تنام بها وتصحو. بعد كل ذلك ماذا تبقى لها هناً. على الأقل الزمن الذي عاشته في لندن أكثر من الزمن الذي عاشته في يافا بأسابيع. صحيح أن بعض ذكرياتها استيقظت وهي ترى وجوه صديقات طفولتها وأصدقاء والدها الذين كانوا يترددون علي بيتهم في يافا، لكن أيضاً هناك في لندن لديها صديقات وأصدقاء كثر، أكثر بكثير مما لديها هنا. لكن ما الذي تبقى لها هنا؟ لا شيء!

حتى هنا لم تعد يافا، هنا مخيم لاجئين.

لم تعد لبيتهم الجميل على شاطئ البحر حيث النوارس تقف قبالتها على الصخور البارزة في جوف البحر كل صباح، تخفق أجنحتها في وجه الشمس، والياسمينة تتشعبط عليّة البيت. كانت كريستينا في طفولتها تعشق لعق رحيق زهرات الياسمينة البيضاء. صور جميلة تغزو ذاكرتها، ولم تغب عنها حتى وهي هناك في لندن، لكنها لم تعد إلى هذا الواقع. على الأقل لوجدت عزاءً في أنه جزء

منها، من ماضيها حتى لو كان هذا الماضي قصيراً. لكنها تعود الآن إلى مخيم وبيوت واهنة وطرقات مغبّرة، وأهم من كل ذلك تعود إلى عالم لا أهل لها فيه. لماذا تبقى إذاً؟

في حقيقة الأمر لا شيء. فهي الآن وحيدة في غزة.

كادت تفعلها وتغادر. لكنها لم تفعل. كل مرة كانت تتراجع في اللحظة الأخيرة. تمسك حقيبتيها، وتعيد ترتيب الملابس فيهما، ثم تحكم إغلاق أقفالهما الجانبية، وتكاد تخرج. كأن شيئاً يسحبها للخلف. تقاوم. تعاود حمل الحقيبتين ثم تجد أن جاذبية من نوع خاص تطرحها أرضاً. تحس بوهن في قدميها وعجز كبير عن السير. قدماها تتسمران في الأرض، تشعر بدوار شديد. تعيد الحقيبتين إلى الركن الذي تضعهما فيه في الغرفة بجوار الخزانة، لم تغير مكانهما، لم تقم بتخبئتهما في مكان لا يراه أحد. دائماً كانت الحقيبتان في مرمى البصر شاهدتين على رحلة مفروضة فرضاً على كريستينا، وعلى طريق دائماً تجد نفسها مجبرة على السير فيه.

شعور متناقض ورغبات متعارضة، وألم مهول يأكل استقرارها. مرات كثيرة فكرت في إتلاف الحقيبتين كي ترتاح من فكرة السفر، لكنها أيضاً تراجعت في اللحظات الأخيرة. كان منظر الحقيبتين مغلقتين كأنهما تتأهبان للسفر يستفزها، يثير فيها لواعج وذكريات ورغبات وأمنيات تخدّر جسدها، فترى أطيافاً متداخلة وأشكالاً متمواجة، وتعود لذهنها صورة النهر الرقراق الذي ينساب في مجرى السكة الحديد والقطار الذي يمشي بخفة فوق ماء النهر. قلبها يعتصر، تشعر باضطرابات في معدتها، الدمع يغرغر في عينها. النسوة يقلن لها إن كثرة البكاء تفقد البصر، وكثرة الدمع في العين

تشوش الرؤية. لكنها لم تملك حيلة إزاء ذلك، كما إزاء أي شيء. للزمن عِبرٌ كثيرة، لكن واحدة من أهمها أن رياحه العاتية تظل تعوي في الروح، تنثر رذاذاً من الحسرة والحنين للأشياء التي لم تعد بأيدينا.

من يفهم هذا الألم!

بيوت المخيم مبنية من الحجارة المصنوعة من الأسمنت والرمل الخشن المضغوطة في قالب، ومسقوفة بالقرميد الأسود. البيوت بأشكالها الحادة عبارة عن غرفة أو اثنتين وبعضها قد يصل لأربعة تمتد أمامهم ساحة محاطة بسور من الحجارة غير مسقوفة، تشكل قاع البيت أو الصالون حيث يجلس الضيوف. الشوارع رملية وقنوات المجاري تسير مثل شرايين النهر في الطرقات. بئر الماء شرق المخيم، حيث تصطف النسوة أمام صف من الصنابير، حاملات جرارهن ينتظرن دورهن لتعبئة المياه الخارجة من جوف الأرض، فيها حارس البئر بشاربه الكث يقوم بمساعدتهن، وتنظيم الجرار تحت فوهات الصنابر، والماء الرقراق ينهمر من جوفها المعدني.

خرجت للشارع تسير بلا هدى. مخيم اللاجئين حيث وجدت نفسها تعيش الآن، أكبر مخيمات قطاع غزة وأكثرها اكتظاظاً. سكنه أول النكبة، أي قبل عشر سنوات من وصولها، قرابة 35 ألف نسمة، قطنوا مساحة لا تزيد عن كيلو متر ونصف مربع حيث تم تهجيرهم من مدنهم وقراهم عام 1948 للعيش فوق الكثبان الرملية شمال مدينة غزة بجوار بساتين الفاكهة وبيارات البرتقال والليمون. من بين هؤلاء سكان الشارع والحي الذي ولدت فيه كريستينا في يافا. الشوارع تتشابه والبيوت كذلك ووجوه الناس المليئة بالألم، حتى ذكرياتهم تتشابه، خطوات الأطفال وهم يحاولون اللهو في الممرات الترابية بين البيوت.

سيارة تابعة لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين (الأونروا) تقف قبالة بئر الماء. تخرج منها فتاة شقراء تمسك بأطراف تنورتها الواسعة من أسفل والضيقة عند الخصر وانحناءاتها وتثنياتها الكثيرة ولونها التيركواز الذي يعانق زرقة السماء. أمسكت كاميرتها وأخذت تلتقط صوراً للنسوة وهن يملأن مواعينهن بالماء. ثم التفتت إلى أطفال يقفون ببؤس أمام أحد البيوت المقابلة، قبل أن تدعوهم كاميرتها للاصطفاف في صف واحد ورسم ابتسامات باهتة على وجوههم. وبين فينةٍ وأخرى تقوم موظفة وكالة الغوث بالتأكد من أن تنورتها لم تلامس التراب الكثيف المغبّر الذي يملأ المكان.

التفتت فتاة وكالة الغوث لكريستينا وابتسمت سائلةً:

صحفية؟

اقتربت كريستينا أكثر من الفتاة وهي تنقل قبعتها من يد إلى اليد الأخرى. كأنها لم تسمع السؤال، بادرت بسؤال آخر:

ماذا تصورين؟

الفتاة أشارت بإصبعها للنسوة يملأن الماء، ثم للأطفال الذين تسمرت ابتسامتهم على وجوههم كأنهم صورة معروضة في الهواء الطلق. تناولت كريستينا الكاميرا من يدها وأخذت تنظر من خلف العدسة. ذهبت الفتاة لتقف وسط النسوة قرب بئر الماء. هذه المرة كان عليها أن ترفع تنورتها التيركواز إلى ركبتيها حتى لا تبتل بالماء.

خذي صورة هيا.

هزت كريستينا كتفها في إشارة للرفض. ابتسمت الفتاة وقالت: «هيا». نظرت كريستينا من خلف عدسة الكاميرا. كادت

تضغط على الزر، فيما الفتاة تجاهد لتمسك بنفسها وسط زحمة الأطفال والماء الكثير تحت الأرجل، وترفع التنورة التي باتت الآن فوق ركبتها بكثير. نظرت إلى الرجل الذي ينظم النساء قرب صف الصنابير، وقالت له بعربية مكسرة: «اشتغل»، فهي تريد الصورة أن تبدو طبيعية. أنزلت كريستينا الكاميرا عن عينيها ومدتها نحو الفتاة. وقبل أن تكمل استدارة ظهرها لتواصل سيرها أو ربما تيهها داخل شوارع المخيم، كان صوت «فتاة الأونروا» تسأل مرة أخرى:هل أنت صحفية؟

وقفت كريستينا وجهاً لوجه قبالة الفتاة.

لست صحفية.

ماذا تفعلين هنا إذاً. سياحة!

بدت الكلمة فجةً ومستهزئة في نفس الوقت. لم تعرف بماذا ترد. صمتت. ثم سألت:

ماذا تقصدين بـ «ماذا تفعلين هنا»؟

عادت الفتاة صوب السيارة التي تنتظرها لتضع الكاميرا في الكرسي الخلفي، ثم التفتت نحو كريستينا، هذه المرة بجدية.

أقصد ماذا تفعل فتاة أوروبية مثلك هنا؟ هل هذا سؤال صعب!

لم تعرف كريستينا كيف خرجت من فمها الإجابة بدون تفكير وبقليل من التردد رغم ذلك، لكنه هذا التردد الذي يساهم في جعل إجابتنا عفوية.

أنا من هنا.

لم تنتبه لردة فعل الفتاة. سارت باتجاه شارع المدارس وقبل أن تصل طرف الشارع كانت سيارة الأونروا تقف قبالتها ليطل وجه الفتاة سائلةً باستغراب: «من هنا؟!».

هزت كريستينا رأسها بحركة لا إرادية وهي تشير للفتاة أن تتركها وحدها، فهي لا تريد أن تجيب على كبشة الأسئلة التي بدأت تنطلق من فمها. كأن الأمر حُسم هكذا. فهي من هنا. لكن خطواتها المتعثرة صوب البيت تقول لها بكثير من القلق إنها غير واثقة فعلاً من أن هذه كانت الإجابة الصحيحة.

كادت أن تعود. حملت حقيبتيها ودلفت خارج البيت، لولا صراخ العم منصور فيها قائلاً: أنت ابنتي الآن.

حين وصلت كريستينا إلى غزة ونزلت من القطار لم تشعر لدقيقة بأن الأمور ستسير بهذه الوتيرة. عاد العم منصور إلى غرفة الكونترول حيث تركها لربع ساعة. لم يكن قد بدأ بينهما الحديث الفعلي حول سبب وجود فتاة أجنبية في محطة قطار غزة تحمل حقيبتين، لا ينتظرها أحد ولا يلوح لها مُستقبِل على الرصيف. لم تعرف ماذا تقول أو من أين تبدأ. كل ما تعرفه كما قال لها المستر «جورج» قبل وفاته هو أن أهلها يعيشون في مخيم بُنى بعد النكبة شمال مدينة غزة حيث وصلته على عنوانه رسالة بعد النكبة بثلاث سنوات من صديق مشترك تخبره بذلك. هذا كل ما تعرفه. لم تأت على ذكر الرسالة. فقط قالت إن أهلها يعيشون الآن في ذلك المخيم. وأنهم هُجّروا من مدينة يافا. ابتسم العم منصور وهو يتفرس وجه الفتاة بكثير من الفضول الذي بدا لها مزعجاً. سرت في جسدها رغم ذلك نمنمة خفيفة أسكنت الراحة في نفسها. هل يمكن للقدر

أن يحمل لنا دائماً هذا الكم المذهل من الإشارات والعلامات التي تدلنا على الطريق.

العم منصور كان موظفاً في محطة السكة الحديد في يافا. كان يعمل في محطة المنشية. الآن يعمل في محطة غزة حيث نجح، من خلال رجل كان يعرفه من أيام يافا، أن يجد عملاً في محطة غزة بعد النكبة. لكن القطار الوحيد الذي يتمنى أن يستقله العم منصور أو يستقبله لا يفد إلى هنا. فلا قطار يصل من يافا ولا قطار يغادر صوبها. فقط قضبان السكة الحديد المنطلقة إلى الشمال حيث تتوقف قرب حدود قطاع غزة عند بيت حانون وحدها تشير إلى القطار الذي لا يصل.

سأل الفتاة فجأة: «تقصدين أنك عربية؟!».

لا أعرف.

لكنك قلتِ إن أهلك يعيشون في المخيم.

صمت.

أنا أعيش في المخيم الذي تحدثتِ عنه.

لم يصدق العم منصور نفسه. صمت مطولاً. أخرج سيجارة وأخذ يسحب أنفاساً عميقة. كريستينا تتأمل الدخان المتماوج الخارج من فمه ومن أنفه. قطعت التوتر قائلة:

في الحقيقة لا أعرف. هذا ما قالوه لي. قالوا لي إن أهلي من عائلة السعيد.

عوني السعيد. عوني السعيد والدك؟

تمشي كريستينا في المخيم بجوار العم منصور وهو يحمل حقيبتيها الزرقاء والبنية قبل أن يصلا لشارع الحارة حيث رجال الحارة يقفون قرب بقالة حمدي الصغيرة ببضاعتها الخفيفة. روت كريستينا قصتها وكيف خرجت من يافا عام 1947 وكيف تعود الآن للعيش مع أهلها في المخيم. هزت رأسها وقالت بحزم: «نعم أنا فضة بنت عوني السعيد».

وحده العم منصور كان إلى جانبها. وحده صدقها بلا تردد. قال أمام الجميع: «أنا أصدقها».

شو بتفكر حالك بتفتش عن تذكرة قطار!

أنت بتعرف أنو ولا واحد فينا بعرف الحقيقة.

أي حقيقة؟ البنت بتقول إنها بنت عوني. وكلكم بعرف إنه عوني إله فعلاً بنت راحت بريطانيا.

طبعا هادا بنعرفه.

وكلكم ازعلتوا منه كيف بخلي بنته تسافر لبرا مع راجل غريب. جورج. عارفينه أظن كويس.

يا منصور القصة مش هيك.

هي هيك. بس انتو ما بدكو اياها هيك. هاي هي القصة.

ونفض جسده غارزاً قدميه في الرمل مثيراً غباراً شديداً، كأنه يرميه عليهم. وسار والغضب يطفح من وجهه بشاربه الخفيف الذي اصفّر منتصفه من تدخينه النهم.

ما لا تعرفه كريستينا أن العم منصور هو من كتب الرسالة لجورج يخبره برحيل العائلة إلى المخيم بعد النكبة، وهو من أخبره

بمقتل أهلها كلهم خلال الهجرة، وهو الشيء الذي لم يخبرها به حتى الآن، ولا أخبرها به جورج قبل ذلك. كلاهما كان ينوي أن ينقل لها مأساة العائلة تدريجياً. في المحصلة، محتوم عليها أن تواجه هذا القدر هنا والآن.فيما الرجال يرسمون علامات الاستفهام على وجوههم، حملت الحقيبة البنية وحمل العم منصور الحقيبة الزرقاء، وسارا نحو بيته.

من الواضح أن ثمة المزيد من المفاجآت في الطريق. المفاجآت التي لم تتوقف عن الظهور في وجه كريستينا منذ اكتشفت العائلة أن إبهام يدها اليمنى يعاني من التهابات حادة. كانت في ذلك الوقت قد أنهت عامها الحادي عشر واحتفلت بعيد ميلادها، حين سافرت إلى لندن. مفاجآت اعتادت كريستينا عليها حيث لم يعد يقلقها كثيراً أن اسمها كريستينا وليس فضة، كما لم يعد يقلقها كل النقاش الذي دار في شارع الحارة بين رجالها حول وصولها المفاجئ للحارة واختلافهم حول هويتها إذا ما كانت حقاً فضة بنت عوني السعيد أم لا. لكن الشيء الذي أثار انتباهها أن والدها لم يكن بين الرجال، وأن العم منصور لم يأت على ذكره.

وقفت في منتصف الطريق، سألت العم منصور باستدراك مفاجئ: «لكن أين أبي؟».

كان منصور يعرف أن مثل هذا السؤال قادم لا محالة. إنه هذا النوع من الأسئلة المؤجّلة التي تظل تقلقنا كلما قمنا بترحيل مواجهتها إلى الأمام. فلا هي تريحنا إن بقيت سؤالاً، ولا الإجابة عليها تريحنا بأي حال. جلبة الأطفال في الشارع أعطته الثقة لأن يتظاهر بأنه لم يسمع. واصل سيره بعناد كأنه على عجلة من أمره أن يصل البيت. في قرارة نفسه تمنى لو أن المسافة تطول وتطول.

منصور تعلم أشياء كثيرة من النيف والأربعين عاماً التي عاشها. تعلم أن الحياة تبدأ من حيث تنتهي، وتنتهي حين تبدأ. بيته الجميل الذي ما أن انتهى من بنائه في يافا في حي «الجبلية»، بعد أن ورث عن أبيه قرابة ألف جنيه فلسطيني كانت في حسابه في البنك العربي. البيت الذي أمضى سنوات ثلاث في تجهيزه على قطعة الأرض التي ورثها من أمه، لم يمضِ فيه عاماً حين جاءت النكبة. الشبابيك الزرقاء المقوسة، القرميد الأحمر فوق الفرندا التي تمتد قبالة البحر، الكنب الإيطالي الذي اشتراه من محل في النزهة، السجادة الكبيرة في صدر البيت التي جلبها من رحلته اليتيمة إلى القاهرة عبر القطار عام 1946 . لم يمض على انتقاله للبيت عام واحد حين ركب السفينة واتجه جنوباً صوب غزة مع عائلته. تلك قصة مفجعة. البدلة التي قام بتفصيلها عند المعلم «نيقولا مصلح» في شارع «إسكندر عوض» مازالت شاهدة على الشباب الضائع هناك حين كانت يافا تتمزق وتبدو مشوشة من بين الدموع التي تملأ العين. الفرحة التي لم تكتمل. دائماً هناك فرحة لا تكتمل. عض منصور شفته السفلى، وهو لا يعرف كيف يجيب كريستينا وهي تسأل عن والدها وعائلتها. مرت ساعات منذ التقاها في محطة القطار، ولم يأتِ هو على سيرة عائلتها رغم أنها غاية وصولها إلى هنا. الإجابات المؤجلة إجابات مؤلمة بالضرورة.

إدراكان متناقضان. كريستينا كانت تعرف أنها ولدت في مكان آخر، ليس لندن. فهي تذكر المكان جيداً. بل إن في حقيبتها البنية التي حملتها معها من يافا مازالت تحتفظ بثلاث صور. واحدة لها في المدرسة بين زميلاتها فيما تقف المعلمة «روز» خلفهم. والثانية لها أمام البيت وخلفها ياسمينة تتشعبط عليّة الدار. وأخرى لها تقف

بين والدها ووالدتها ويجلس أخواها على كرسيين صغيرين أمامهم. كانت تلك الصورة قد التقطتها العائلة قبل أقل من أسبوع من سفرها المزمع للندن. تعرف أنها غادرت بغية العلاج، لكن الأحداث في فلسطين كان لها رأي آخر في مستقبلها، حيث لم يعد من الممكن أن تعود. تعرف أشياء كثيرة. لكن الوقت وبخبث يتلاعب بإدراكاتنا، ويُعمل بمهارة فلاتر النسيان، فيغطي الكثير من هذه الإدراكات بطبقات كلسية رقيقة لكنها تحجب عنا الكثير الكثير. فهي التي وصلت لندن في سن الحادي عشر سرعان ما وجدت نفسها في المدرسة بين قريناتها من الحي الذي باتت تعيش فيه في وسط لندن، وكوّنت صداقات كثيرة في المدرسة وفي الشارع حيث تلهو في المنتزه القريب. مع الوقت باتت طبقة من الكلس تغطي الماضي الجميل. لم يكن ممكناً أن تعود إلى يافا. بكت في بداية الأمر وصرخت ونامت أياماً طويلة حين أدركت أن الأوضاع تغيرت هناك في فلسطين. مقدرتها على المقاومة وعلى الجدل لم تكن تكفي حتى تصنع الموقف الذي ستسأل نفسها كثيراً لماذا لم تقم به.

أما الإدراك الثاني فسؤال سيكون عليها مواجهته كثيراً في المخيم بعد ذلك. إذا كانت فعلاً قد حزنت على أهلها، لماذا لم تغادر! لماذا لم تقرر من البداية أن تعيش المأساة معهم. لماذا لم تعد من البداية! لماذا لم تحمل أمتعتها وتغادر إلى يافا. لماذا جاءت إلى غزة مرغمة بعد وفاة المستر جورج! لماذا من الأساس غادرت فيما رياح الحرب والموت كانت تعصف بيافا! لماذا لم تواجه نفس المصير الذي واجهته العائلة والحارة والمدينة!

تمزج تلك الشكوك بين علامات التعجب، التي تحمل قدراً كبيراً من اللؤم والغمز الخفي، وبين علامات الاستفهام التي تحمل

في طياتها إجابات مبطنة الاتهام والمحاكمة المسبقة. بالطبع علامات الوجه وحركات الجسد أكثر إيلاماً ولؤماً خاصة حين تتم من وراء ظهر كريستينا بحضورها أو غيابها.

كانت تضحك مرات عديدة في وجه محدثيها، وتذّكرهم أنها كانت طفلة بالكاد أنهت عامها الحادي عشر، كيف لها أن تفكر في كل ذلك. لم تشتم رائحة الحرب. كانت تضحك ضحكة تدوي في كل البيت وهي تقول: «كان عندي زكام، ما شميت ريحة الحرب».

سيجد معاتبوها الكثير الذي يقولونه في ذلك، فرائحة الحرب كانت تملأ شوارع يافا منذ سنوات. كان واضحاً أن ثمة زلزالاً قادماً، لكن أحداً لم يعرف أنه سيكون بهذه القوة التدميرية الهائلة. في البداية كانوا يتصنعون ضحكات خفيفة لمشاركتها الضحك، ثم مع الوقت باتت عبارة «عندي زكام» واحدة من العبارات التي سيستخدمها سكان الحارة في مواقف متعددة مثل أن يتهرّبوا من موقف ما، أو يختلقوا عذراً ينجيهم من الملامة. وسيبدؤون مع الوقت الالتفات بجدية إلى ما تقوله كريستينا التي ستتحول مع الزمن إلى واحدة من أكثر سيدات المخيم شهرة واحتراماً.

هكذا حدثت العودة التي تمت قبل خمسة عقود، قبل نصف قرن، حين وطئت قدماها أرض غزة فيما القطار ينفض عادمه في الهواء. وقتها أحست أنها تقفز من نافذة بناية عالية، لم تعرف حتى الآن وبعد مرور واحد وخمسين عاماً كيف ظلت معلقة في الهواء ولم تصل إلى مستقر.

يمكن لنا إعادة ترتيب نفس الأحداث بطريقة مختلفة، لكننا في المحصلة لن نحصل إلا على نهاية واحدة- النهاية التي تمت.

اختفت الحاجة كريستينا بعد واحد وخمسين عاماً من وصولها محطة القطار عام 1958 في مدينة غزة للبحث عن أهلها. محطة القطار أيضاً اختفت بعد احتلال إسرائيل لغزة، ولم يعد منها إلا إشارة الناس للمكان بأنه «المحطة». الآن البيوت والمحال والبسطات تنتشر في المكان، غير مبقية أثر للمحطة التي لم يكن أحد ينتظر كريستينا فيها قبل واحد وخمسين عاماً حين دلفت من القطار تواجه مصيرها الجديد.

مثل المحطة، أيضاً، لم تعد كريستينا الآن في غزة.

اختفت، عادت، رجعت، تبخرت، تلاشت، ضاعت. أي عبارة يمكن لها أن تعطي نفس الإحساس بعدم وجودها في المخيم بعد اليوم.

الحياة في يافا

ولدت كريستينا عام 1936 خلال الإضراب الشهير في يافا. حين تزوج عوني السعيد الشاب من «حياة» ابنة الحاج نصّار شريك والده في التجارة، كانت أُمنية العريس أن يكون أول حظه في الحياة بنتاً. فالبنت رغم أنها تُعجل من هرم والديها وكبرهما المبكر حين تتزوج وتنجب مبكراً -كما تجري العادة -، إلا أنهما وحين يكبران تقوم عليهما وتساعدهما وتخفف عنهما أعباء الحياة. عوني يتخيل طفلته البكر وقد صارت شابة ناهدة وهي تمسد بيدها على شعره الأبيض،أو تمسح له نظارته السميكة قبل أن تناوله الجريدة ليقرأها.

البنت أحن من الولد.

أما «حياة» زوجته التي رزق الله والديها ستاً من البنات، فلم ترَ فائدةً في معارضة رغبته، رغم أنها عميقاً في قاع بئر الأمنيات تتمنى أن تُرزق بولد. تخاف أن تصاب أمها بجلطة إن وهب الله ابنتها البكر بنتاً بعد أن حرمها من الإخوة، لكنها سريعاً ما تتفاعل مع أحلام زوجها حول البنت التي ستمسد بيدها على شعره وتمسح له النظارة وتناوله الجريدة. لذا كانت تروق لها الفكرة وهي تشاهده سارحاً يشرب القهوة في البلكونة وينظر في الأفق. فقط أمام أمها لم يكن لها

أن تُصّرح بذلك، وترفع يدها مع أمها نحو السماء سائلة المولى أن يهبها طفلاً ذكراً. الطفل الذي سيكون أخاً لها في نفس الوقت.

في ذلك اليوم ركب عوني دراجته الهوائية صوب منزل الحاج نصّار؛ ليعطيه رسالة من والده. بعد أن عاد، أمضى نصف ساعة في الشارع ساهماً غير مصدق أن القدر يهبنا ما نشاء دون موعد. فتحت له الباب «حياة»، وكانت تلك حياةً جديدة. شعرها الأسود الغامق يتسلل بخفة من تحت الشالة الخمرية التي رمتها على رأسها حين ذهبت لتفتح الباب في صباح يوم الجمعة. لغة العيون فيها حبرٌ لا يُمحى. ارتبك الشاب الذي أنهى الثانوية العامة، وبات يساعد والده في تدقيق الحسابات في مقر شركة تصدير البرتقال في سوق اسكندر عوض. رجفة خجل سرت في جسده. كان يمكن له أن يسمع دبيب قلبه.

الطريق إلى بيتهم بدت أكثر سهولة ورحابة. الدراجة الهوائية هبطت الشارع الضيق الذي يفضي من بيت الحاج نصار إلى شارع النزهة. الشارع ينحدر بشكل كبير، الدراجة تهبط الشارع وحدها فيما يداه تصفقان في الهواء. وقبل أن تهوي الدراجة عاد وأحكم القبض على مقودها. انعطافة جديدة في الحياة. كان هذا مساء أحد أيام شهر آذار من العام 1935. كان الجو غائماً والأمطار الغزيرة التي هطلت في الصباح أخذت من السماء كل الماء المتكدس في الغيوم، لكنها لم تأخذ منها الريح. إنها الريح التي ستهب بين فينة وأخرى، وتكاد توقع بدراجة الشاب الفرح الذي سيقضي الليلة سارحاً يبحلق في سقف الغرفة حتى يرفع المؤذن النداء لصلاة الفجر.

بعد قرابة ستة أشهر من هذا اللقاء السريع، تخللها لقاءات غير معلنة تم ترتيبها حتى تبدو صدفة، تقدم عوني لخطبة «حياة»، وتم عقد القران وتزوجا. أحد هذه اللقاءات كان لحضور حفلة للسيدة أم كلثوم على مسرح أوبرا مغربي في شهر أيار من العام 1935. كان الزواج مناسباً للعائلتين اللتين بدأتا ترتبطان بمصالح اقتصادية متنوعة منذ تشارك أبو عوني والحاج نصار في شركة صغيرة لصناعة صناديق البرتقال ومستلزمات تغليفه وتصديره. الشركة ستنمو مع الوقت ليشتري الرجلان بيارتين واحدة في «بيت دجن» والأخرى في «القسطينة» مجموع مساحتيهما مائتان وتسعون دونماً. وحيث إن والد عوني سيموت فجأة جراء سكتة قلبية في العام 1944، فإن حصته في الشركة سيواصل عوني الإشراف عليها. كان الأمر أكثر من زواج، وصار أعمق من حب، وانتهى إلى أبعد من الاثنين.

كان عوني كثيراً ما يعاود ركوب دراجته الهوائية ذاتها في طريقه لرؤية عائلة زوجته، يستعيد تلك اللحظات الجميلة التي خفق فيها قلبه، وهو يرى «حياة» تطل من خلف الباب بالشالة الخمرية تتماوج فوق شعرها حالك السواد. اقترح على «حياة» مرة أن يُجلسها أمامه على الدراجة ويقودانها في نفس الطريق. ضحكت على جنونه الزائد. وفي طفولة مفرطة -كما يمكن القول- فإن عوني أصر أن تقف «حياة» على جانب الطريق حتى تراه ينزلق بدراجته في الشارع الذي كانت تسكن فيه، وتراه كيف رفع يديه عن المقود وأخذ يصفق بجنون. يومها أحس أن قلبه عصفور يرفرف فوق الدراجة. قال لها الحب لا يشيخ، الحب يظل طفلاً ولا يكبر، ويوم يكبر يموت، لا يكبر يوماً واحداً. الحب يظل مثلما خبرناه في اليوم الأول، يظل يلمع مثل ذلك البريق الذي أحسه في عينيه حين فتحت له الباب. يلمع

مثل الفضة. أعاد العبارة: «يلمع مثل الفضة». غطى بريق جذاب عينيه. صمت سارحاً ثم قال سنسمي طفلتنا البكر «فضة». ضحكت «حياة» وقالت: راح تكون اسمها فضة واسم أمها حياة.

تخيلي لمعان الفضة، لمعان الحب.

بس الذهب بلمع أكثر.

ضحك وهو يشعل سيجارته:

يا «حياة»، القصة ليست فيمن يلمع أكثر، فليس كل ما يلمع ذهباً، القصة أنه فعلاً أنا حاسس حبي لك مثل لمعان الفضة.

واستقر الرأي أن تأخذ البنت البكر قسطاً من قصة هذا الحب الذي على إثره ونتيجة له تم تكوين العائلة.

على كلٍ، لم يكن من المجدي توسل القدر حتى يحددا جنس المولود القادم. رغم ذلك، فإن آذاناً كانت صاغية لرجفة قلب عوني وهو يقول: «يا رب بنت»، حين كانت الداية تسحب المولود من رحم «حياة». وجاءت البنت فعلاً كأنها كانت تنتظر اللحظة التي يستجيب فيها القدر لدعاء وصرخة والدها. في ذلك النهار من عام 1936 جاء المخاض لـ«حياة». كل شيء في يافا مغلق. لم تتوقع أن يأتيها الطلق فجأة. كان عوني بالكاد قد وصل باب البيت خارجاً ليرى بعض أصدقائه حين هز صوت «حياة» البيت. لم يكن من المجدي التفكير في أخذ «حياة» إلى المستشفى إذ إن صراخها ينم عن أن الطلق سيأتي بالمولود قبل أن يصلا هناك. بالكاد استطاعت القابلة التي نجح عوني في جلبها بأقصى سرعة ممكنة، أن تنقذ حياة الطفلة التي التف الحبل السري حول عنقها. كاد أن يخنقها. كان

الأمر مجرد ثوانٍ، وكانت ستموت. كانت كثيرة الحركة خلال فترة الحمل. كثيراً ما اشتكت «حياة» أن الجنين يتحرك بشكل عنيف داخل رحمها. ضحكت وقالت لعوني: «شكله ولد»، فهو كثير الحركة والتنقل. وكان يضع أذنه على بطنها وينصت عميقاً، ثم يقول: «هيني سامع صوتها، بنت». قالت القابلة: «شوية وماتت».

من يومها -كما ستقول أمها بعد ذلك- الحياة بخيلة عليها. تقصد على ابنتها فضة. يوم اكتشفت الأم الورم في إصبع ابنتها، وفشلت محاولات أطباء يافا في حل لغز الإصبع المتورم بشكل مخيف، بكت وملأت البيت نحيباً. بيد أن «حياة» التي لن تُوهب الحظ الكافي لتعرف مصير طفلتها، كانت تشم رائحة الحياة وقسوتها واختلاف موجها علواً وهبوطاً بشراع ابنتها. لكن رغم كل شيء، فإن سحر الاسم الذي وهبته العائلة للطفلة البكر سيحمل معه هالة تحميها من عصف السنين. فلكل منا من اسمه نصيب. ففضة ستظل قادرة على درء أشعة الحياة القاتلة مثل قطعة المعدن تعكس أشعة الشمس فلا تحترق. كأن اسمها تعويذة أودعتها إياها العائلة، تحميها من الحياة بعد ذلك، الحياة التي سيكون عليها مواجهتها وحيدة دائماً. لا أحد يقرأ الغيب، ولو كان أحدنا يفعل ذلك لاستطاع الهيمنة على مسار حياته. لذا ليس من الحكمة القول إن العائلة كانت تعرف مستقبلها الذي لم تعشه والذي لن تعيشه، كما ستكشف الأحداث بعد ذلك.

لكل اسم حكايةٌ في الحياة. فليست الأسماء توهب اعتباطاً. فـ«حياة» والدة فضة أسماها والدها «حياة» تيمناً بالحياة التي كان يأمل أن يحياها مع زوجته التي جاء بها من المجدل جنوب يافا. حياة كان يعترف بلذتها وبنكهتها الخاصة. حياة كان ينتظرها بفارغ

الصبر. الشاب الذي جاء بامرأة غريبة من مدينة أخرى حتى يتزوجها، معانداً رغبة أمه في تزويجه واحدة من بنات إخوتها العشرة، قال إن ابنته «حياة» ستكون الختم الذي يدمغ سعادته ويثبتها للأبد. لذا حين فاتحه شريكه أبو عوني برغبته في خطبة ابنته البكر «حياة» لابنه الوحيد عوني، لم يتردد ثانية واحدة في قبول الخطوبة.

أما عوني فقد استند اسمه إلى رغبة أبيه أن يكون عوناً له في الحياة حيث نجح والده الذي جاء من أسرة معدمة في بناء تجارة بسيطة، انتقل فيها من عامل في أحد مصانع البرتقال إلى أحد مصدريه. قصة نجاح كتبها بالعرق والألم والتعب. لذا كان الرجل يرى في ابنه حلماً يتحقق مع الزمن. لذا أصر أن يتلقى ابنه أحسن تعليم متوفر في يافا في ذلك الوقت وأن يصبح «أفندي» يقف له الناس كلما مر في الشارع. أبو عوني قصة نجاح كبيرة قد ينظر لها البعض بعين الحسد، لكنها قصة رغم ذلك تثير الإعجاب. حتى ابنه الوحيد لم يخيّب آماله، إذ كان متفوقاً في الدراسة وبعد ذلك في العمل وسيصبح شخصية عامة مرموقة في يافا.

يمكن وبمتابعة بسيطة أن نكتشف أن وراء كل اسم نعرفه قصة خاصة. فلعبة الأسماء محيرة في مرات كثيرة خاصة حين نكتشف أن لا قصة عظيمة تقف وراء اسمنا. إن غياب هذه القصة هو قصة بحد ذاتها. فالعم منصور لا يعرف، لماذا أسماه أبوه «منصور»؟، رغم أنه لا يوجد في شجرة العائلة من كُني «منصور» قبل ذلك، ولم يعترف والده بوجود شيء في حياته له علاقة بذلك. فقط لم يجد اسماً يُسمي به طفله الخامس فأسماه بأول اسم بدر إلى ذهنه. فقد استنزف ذاكرته بما أطلق من الأسماء على ذكوره السابقين: اسم والده واسم جده واسم والد زوجته واسم عمه الأكبر. لم يبق في جعبته اسم

يطلقه على الطفل الجديد. سرح قليلاً ثم قال: «سموه منصور».
وكان منصور يضحك ويقول: «يا ريتني كُنتُ منصوراً فعلاً»، في إشارة إلى الهزائم الكثيرة التي تلقاها في حياته خاصة بعد النكبة وتهجيره من بيته الجميل على شاطئ البحر. طبعاً يمكن سحب لعبة الأسماء على كل من نعرف في حياتنا، لنكتشف أن ثمة حكاية موجودة أو غائبة وراء كل اسم. السؤال الأساس في ذلك هو: هل معرفتنا لهذه الحكاية يغير شيئا في مسار الحكاية نفسها؟

قد يكون من المبكر الحكم بذلك، لكن المؤكد أن هناك الكثير الذي ستكتشفه الطفلة «فضة» في الحياة، وستتعلمه كلما مر الوقت، وستعرف معه أن الأحداث ليست بظواهرها.

عموماً هذه قصص وحكايات ستعرفها «فضة» لاحقاً بعد عودتها من لندن باسمها الجديد «كريستينا». وهي لن تتقصد فعل ذلك، ولن تُعمل عقلها بحثاً وتنقيباً في محاولة لفهم الأمور، مثل مغامر يهوى التحقيق في الماضي. الماضي من الأشياء الغامضة في الحياة، فهو قد يكون مصدر سعادة أو يكون مصدر شقاء، وقد يكون الاثنين وفق مزاجنا، ووفق الضفة التي نقف عليها ونحن نتأمل نهر الحياة. إن نظرة واحدة حولها في المخيم في ذلك النهار من عام 1958 حين عادت من لندن إلى غزة، ستقترح عليها أن كتاب الحياة مليء بالحكايات التي توجع القلب. إنها الحكايات التي كان عليها مواجهتها وهي تخطو خلف العم منصور في شارع الحارة في المخيم. نظرت خلفها إلى الرجال أمام البقالة مازالوا يتجاذبون أطراف الحديث الماطر بالاستغراب والتهكم والدهشة، فيما الحقيبة البنية التي تحملها، نفس الحقيبة التي خرجت بها من يافا عام 1947، تتأرجح كأنها تئن من قسوة اللحظات القادمة.

ستلتقط كريستينا الكثير من هذه القصص في المخيم حين تعود، ومع الزمن ستكون الوريث الشرعي لها كلها، وكلما مر الزمن أكثر تصبح هي مَصدر ومُصّدر هذه القصص الوحيد أيضاً. ومع مروره أكثر ستكتسب هالة خاصة وهي تروي هذا التاريخ مثل حكواتي الحارة في يافا الذي شغفت وهي طفلة بقصصه وهو يقف في القهوة، خاصة في رمضان حين يحكي القصص الغريبة عن رحلاته المزعومة وتيهه في الصحاري، ومصارعته للموت ونجاته بالطبع. ومع الوقت سيكون عصياً على مستمعيها أن يميزوا بين القصص التي عاشتها كريستينا وكانت جزءاً منها، وبين تلك التي ترويها نقلاً عن آخرين، حتى تصبح هي فعلاً معين القصص كلها ومصدر مصداقيتها. في الحقيقة مع الوقت سيكون عصياً عليها هي أن تميز بين القصص التي عاشتها، وتلك التي عاشت جزءاً منها وتلك التي عاشتها من فم الآخرين. ليس مهماً، ففي المحصلة ظلت هي الفم الأكثر تعبيراً عن ذلك الزمن.

ولما كان الأمر كذلك، فإن تلك القصص ستصبح مع الزمن ملكاً للجميع، جزءاً من التاريخ العام للحارة، وميراثاً لكل فرد فيها، ليس لأنها جمرات يستدفئون بقربها وهم يجلسون أمام عتبات البيوت، أو حول كوانين النار، أو أمام بقالة حمدي في الحارة، ولكن لأنها في لحظة معينة تمس التاريخ الشخصي لكل فرد في الحارة التي تشكلت من السكان الذين هاجروا من الحارة ذاتها في يافا وسكنوا حول بعضهم البعض في المخيم. إنها الطريقة التي قام باتباعها جميع سكان القرى والبلدات الأخرى، حيث سكن اللاجئون من كل قرية متجاورين ناقلين معهم الشيء الوحيد المتبقي من قراهم وبلداتهم- الحنين والذكريات. لكن ليست كل الحكايات لها نهاية

ما. هناك حكايات تظل بنهايات متعددة محتملة، وحكايات بنهايات ملتبسة غير متفق عليها، وثالثة بنهايات مبتورة لا يمكن تصديقها، وثمة حكايات لا تحتاج إلى نهايات.

إنها اللحظات المؤلمة التي يسترجعونها بالدموع والتنهدات، لحظات خروجهم من يافا ومن البلدات والقرى الأخرى صوب المنافي. العم منصور يقول إن طعم ماء البحر مازال عالقاً في جوفه، يُشعره بملوحة لا تنتهي. يومها ركبوا «الأفلوكة» لا يعرفون أين ترمي بهم الأقدار. لم يقصدوا أن يأتوا لغزة. كان يمكن للأفلوكة أن تتجه شمالاً، ويصبحوا لاجئين في لبنان كما هو حال الكثيرين من أهل يافا. لصدفة لا يعرفها أحد توجهت الأفلوكة جنوباً صوب غزة. كانت الأفلوكة التي تستخدم للصيد وليس لنقل الركاب، تئن وتتأوه تحت وطأة الراكبين. اضطروا أمام إصرار قبطانها، وهو صياد يلتقط رزقه من البحر، أن يرموا في البحر أي شيء يستغنون عنه. رموا ببعض الأغطية التي حملها بعضهم ليحتمي بها من البرد، رموا ببعض الآنية التي جلبها معه البعض الآخر. أحدهم رمى بمعطفه الثقيل. تمدد المعطف الأسود الجوخ فوق سطح البحر مثل جسد يتأسف لأنه فارق الحياة مبكراً. العم منصور ولشدة العطش، مثل بقية ركاب الأفلوكة، اغترف من البحر ليروي ظمأه. لكنه لم يرو ظمأه، حيث ظل طعم الملح عالقاً في جوفه يشعره بمرارة اللحظة وقسوة الرحلة حتى مات.

قسوة لا يمكن أن يعرفها على حقيقتها إلا من عرف كيف يمكن له أن ينتقل من بيت جميل في مدينة يجلس البحر تحت أقدامها، يداعب أخمصيها برقة وتهمس ريحه لخصاص نوافذها، إلى خيمة ستتحول مع الوقت إلى بيت متهتك.

وكريستينا التي لم تعش هذه اللحظات، ولم تكن جزءاً منها، ستواجه هذا المصير المؤلم كل مرة سمعتها فيها، خاصة حين تكتشف أن الإجابة على السؤال الذي رمت به العم منصور بعفوية في طريقهما إلى البيت تكمن في تفاصيل تلك الرحلة. ضمن أشياء كثيرة، فإن البحث عن الماضي هو عملية استكمال للحياة. فهي لم تسأل كثيراً، إذ إن الإجابات جاءت وحدها، فالناس ماهرون في الحديث عن حياتهم، خاصة حين يقارنون واقعهم الأليم بماضيهم الجميل.

الحكايات التي حين يسمعونها كل مرة يشعرون أنهم يسمعونها للمرة الأولى من شدة وقعها على جرحهم الدامي. كأنهم يستعيدون تلك اللحظات للمرة الأولى في حياتهم. كأنهم لا يريدون أن ينسوا، أو كأن النسيان نقمة لا يرغبونها.

ليس في استعادة الألم أي متعة. الألم هو الشيء الوحيد الذي لا تنفع معه الخبرة والتجربة السابقة. فكونك تألمت في السابق لا يعني أنك أصبحت محصناً ضد الألم. خاصة أن هناك أنواعاً من الألم لا يمكن لكل أدوية الأرض أن تخفف منها.

وأياً يكون الحال فإن خزَّان الحكايات سينفتح دون جهد أو عناء، ولن تكون كريستينا بحاجة للكثير من الأسئلة حتى تعرف الإجابات التي تنتظرها فور وصولها إلى بيت العم منصور. ثم سرعان ما ستعيد هي سرد هذه القصص على مجالسيها بعد ذلك، مُكسبةً إياها البعد الشخصي والألم الذاتي بوصفها تخصها بشكل كبير.

وستعود الذكريات حتى إلى تلك اللحظات قبل أن تولد كريستينا حين كان اسمها «فضة»، وقبل ذلك حيث يتم استعادة تاريخ العائلة والعائلات الأخرى بكثير من التفاصيل وبمرارة أكثر.

عمل عوني في البداية في إذاعة الشرق الأدنى في قسم الأُسطوانات الموسيقية. في البداية وبعد أن تخرج من الثانوية ساعد والده في تدقيق حسابات الشركة. ولم يمض عامان حتى نجحت علاقات والده المتزايدة في أوساط نخبة يافا في تأمين عمل له في الإذاعة التي كانت تبث من يافا. كان حلم الشاب أن يصبح مذيعاً. الحلم الذي لن يتحقق طوال فترة عمله في الإذاعة. يتخيل نفسه يجلس ليقرأ نشرة الأخبار خلف المايكرفون. صديقه، الذي أنعم عليه مدير البرامج بأن جعله مقدماً للأخبار، قال له إن المايكرفون شخص حساس مثلنا، يتفاعل مع صوتنا وليس مجرد أداة جامدة. ظل كثيراً يتخيل نفسه يقف خلف المايكرفون، يتفاعل معه، يحس به، يحدثه. لكن هذا لم يحدث مطلقاً إلا في خيالاته. مدير البرامج قال له ذات مرة إن صوته ليس إذاعياً، لا يصلح للإذاعة، ونصحه أن يلتفت للتحرير وكتابة النشرات الإخبارية وإعداد البرامج. «فكّر أين يمكن لك أن تبدع، وليس فيما تحب». وأمام طموح الشاب وافق على نقله من قسم الأسطوانات الموسيقية إلى قسم البرامج يساعد في إعداد البرامج وكتابتها. «أريد أن أرى إبداعك».

لن يرى إبداعه بالتأكيد حيث إنه سيغادر الإذاعة بعد وقت قصير. في ندوة شعرية حضرها في فندق «الكونتيننتال» تعرف على «حافظ» الذي يعمل في صحيفة «الدفاع». «حافظ» الذي لا يُفوت ندوة في يافا إلا ويحضرها، ولا مسرحية إلا ويكون في الصف الأول في المسرح، ولا مظاهرة سياسية إلا يكون خطيباً فيها، بات من أشد أصدقاء عوني المقربين. لم يمض شهر بعد ذلك حتى قدم استقالته من الإذاعة ليجد حلمه الحقيقي في الصحيفة التي بات أحد مراسليها الميدانين في يافا حيث تصدر. في الصحيفة الأشهر في يافا

سيجد عوني نفسه، وسيكتشف الكثير من الطاقات المدفونة في داخله. ساعده في ذلك شغفه باللغة العربية وقراءاته المعمقة للتاريخ والأدب العربي القديم، وصداقاته التي باتت تتوسع مع الزمن مع مثقفي يافا وشعرائها وصحفييها. ومع الوقت تدرج من مراسل إلى محرر أخبار مركزي في الصحيفة. بعد فترة سُجن «حافظ» بسبب نشاطاته السياسية وتهجمه على المندوب السامي في خطبة له في النادي الأرثودوكسي بيافا. سيكون من الصعب على أحد القول أين آلت الدنيا بـ«حافظ».

خلال عمله في الصحيفة، تعرف عوني على صحفي بريطاني جاء لزيارة حافظ ولم يجده. رد عوني بالإنجليزية على الصحفي البريطاني قائلاً: «قامت حكومتك بسجنه». بدأ الأمر بصدفة تحولت مع الوقت إلى صداقة كبيرة. بات جورج دائم التردد على مبنى الجريدة لزيارة عوني وشرب القهوة معه. واقترح على عوني ذات مرة أن يعمل مراسلاً لإحدى الصحف البريطانية، مراسلاً بالشراكة، بمعنى أن يقوم بمساعدته في كتابة التقارير. اعتذر وقال إن عمله هنا يكفي. اختفى «حافظ». هكذا يمكن القول، إذ إن كل طلبات محاميه قوبلت بالرفض، حيث لم يُعثر عليه في أي سجن، رغم أن بعض من أطلق سراحهم قالوا إنهم قابلوه خلال التعذيب في دائرة التحقيقات الجنائية المعروفة بـ«ال. سي. آي. دي» في شارع يافا تل أبيب، المتخصصة بتعذيب المناضلين الفلسطينيين.رغم ذلك فإن مكتب المندوب السامي رد بأن لا علم له باعتقاله من الأساس، وأن الأمر مجرد إشاعة وعرض إعلامي.

جورج الذي يعيش في لندن يمضي معظم وقته في يافا. بل إنه يعيش هنا. تخرّج من جامعة أكسفورد متخصصاً في الدراسات

الشرقية، ثم قرر أن يعيش في مكان ما في المنطقة العربية. ولسبب يتعلق بتاريخ العائلة قرر أن يعيش في يافا. تبدو عبارة «تاريخ العائلة» مغريةً ونافذةً تقترح استطراداً في اتجاه آخر، يتعلق بماضٍ آخر لم يكن جورج جزءاً منه. في الحقيقة فإن الأمر كذلك، فتاريخ العائلة الطويل يمكن له أن يكشف عن هذا الشغف الذي وجده جورج مغروزاً في داخله تجاه المكان الذي انتقل للعيش فيه. فجد جورج قام في سبعينات القرن التاسع عشر بالقدوم لفلسطين ضمن حملة تبشيرية، حيث أمضى هناك ستة أشهر متنقلاً بين القدس ويافا والناصرة. الجد ترك خلفه عشرات الأوراق التي تسجل تفاصيل رحلته وبعض الصور التي التقطها مصور الفريق التبشيري. بل إن في العائلة هناك همساً عن قصة حب وقعت بين الجد وفتاة عربية مسيحية من الناصرة، لم يكتب لها النجاح. وحدها الجدة تنفي القصة، وتقول إنها كانت واثقة من إخلاص زوجها لها، رغم أن الحديث يدور عن تلك الأيام الخوالي التي سبقت زواجهما، حين كان شاباً طليقاً لم يتقيد بعقد الزواج. على الأقل لم يبدر منه ما يوحي بذلك. كان هذا يكفي بالنسبة لها.

كانت فكرة المعشوقة العربية للجد تثير جورج الذي كثيراً ما يظن أنه يجب أن يقع في حب فتاة عربية، وربما يتزوجها مكملاً بذلك قصة حب جده. رغم أن أوراق الجد لا تشير بأي كلمة إلى قصة الحب تلك، إلا أن الحديث عنها بات من تقاليد العائلة والقصص المسلم بها في هذه التقاليد. هل جاء جورج ليبحث عن قصة الحب تلك؟ كلنا نأتي لأماكن محددة نبحث فيها عن قصص محددة، حتى ينتهي بنا المطاف نصوغ قصتنا الخاصة.

لكن هذا ليس كل ما في الأمر، فالأخ الأكبر لجورج قد دُفن في مقبرة الجيش الإنجليزي في غزة. لا أحد متأكد تماماً من الأمر، حيث إن جثة النقيب إدموند من الكتيبة «162» مشاة قد اختفت خلال معركة غزة الثانية التي تمت في شهر نيسان من العام 1917. الجيش الإنجليزي فشل في الهجوم الأول الذي بدأته القوات الإنجليزية المتمركزة في مصر في مارس من العام 1917، حيث سرعان ما استعادت القوات التركية الأجزاء التي سيطرت عليها القوات البريطانية خاصة تل المنطار، ولم ينجح الحصار الذي فرضه البريطانيون في إخضاع الدفاعات المحلية. حيث سيحسم الأمر خلال ما يعرف بمعركة غزة الثالثة التي بدأت بهجوم عنيف سيدمر أجزاءً كبيرة من المدينة ويرّحل أهلها هرباً من القصف المدفعي البريطاني. كان الفشل في السيطرة على غزة السبب في استجلاب الجنرال «ألنبي» لقيادة القوات البريطانية في معركتها لاحتلال فلسطين ليحل مكان الجنرال «أرشبولد موري»، ويُعهد إليه السيطرة على القدس قبل أعياد الميلاد. كانت العقبة الوحيدة أمام ذلك بالنسبة للجيش البريطاني هي غزة، فكل المحاولات السابقة لاحتلالها باءت بالفشل؛ فقد نجح الأتراك في بناء خط تعزيزات متين بين غزة وبئر السبع كان يشرف عليه الجنرال الألماني «كريس فون كريسنيشتاين» والقائد العثماني «طلال بيك». في هجوم مباغت بدأ بمعركة خاضتها وحدة الفرسان الأسترالية في بئر السبع، نجحت قوات «ألبني» بتدمير خط التعزيزات التركية وفي دخول المدينة، مهيأة بذلك الطريق نحو دخول القدس قبل أعياد الميلاد بأسبوعين.

وللمفارقة فإن معارك غزة الثلاثة كانت حاسمة في بسط سيطرة بريطانيا على فلسطين والمنطقة بشكل عام بعد فشل هجوم

الحلفاء في كسر الأتراك في الدردنيل، وفشل معركة «جاليبوني» في حسم الأمر من بداية الحرب عام 1915، مما جعل المنطقة مغلقة أمامهم. مع سقوط غزة بات الأمر سهلاً لاحتلال فلسطين، الذي سيقود وفق متتاليات قدرية مرعبة إلى ترحيل أهل يافا ومئات القرى والمدن عن وطنهم ليصبحوا لاجئين. قصة لم يكن عوني ولا أي من الأصدقاء ليصدقها لو قالتها لهم عرافة، ولم تخطر ببالهم حين كان يروي لهم جورج قصة جثة أخيه المفقودة، التي اختفت على تخوم غزة في واحدة من أشرس معارك بريطانيا في المنطقة، معركة ستقرر مصيرهم الذي لا يعرفونه.

خلال المعركة الثانية قُتل أدموند. اندفع مع كتيبته المكونة من 800 جندي نحو المدينة ليواجه أغلبهم الموت المحقق، حيث لم يعد منهم إلا أقل من تسعين جندياً. وفيما تم العثور على الكثير من جثث الجنود انقطعت عنه كل السبل. لكن كل محاولات العائلة في العثور على جثته باءت بالفشل. فمن ضراوة المعركة لم تتمكن وحدات الإسعاف من العثور على كل الجنود القتلى والجرحى. أغلب الظن أن جسده تمزق في لغم على تخوم المدينة الشرقية. رفاقه في الوحدة قالوا إن مجموعة كاملة من الجنود اختفت. عثروا على بعض أجزاء من أجسادهم. لكن كان متعذراً العثور على الجسد كاملاً. وباستثناء قلادة جلدية كان يضعها حول عنقه لم تترك له فلسطين أثراً. القلادة نجت بصدفة بحتة، إذ إنه نسيها على سريره في معسكر الجيش قبل انطلاق القوات للتحرك نحو غزة.

في قطاع غزة ثمة مقبرتان للجنود البريطانيين ولبعض جنود حلفائهم من دول الكومونوليث الذين شاركوا في معارك غزة. واحدة صغيرة قرب دير البلح تضم جثامين 734 جندياً، وأخرى

كبيرة شرق مدينة غزة. من بين جثث الثلاثة آلاف جندي المدفونة من الحرب العالمية الأولى في المقبرة شرق مدينة غزة هناك أكثر من سبعمائة وثمانين جثة غير معروفة الهوية، مكتوب على قبورهم «يعرفهم الله». يعتقد جورج أن جثة إدموند من بينهم. لابد أن الله يعرف ذلك!

حين وصل جورج ليافا عبر الميناء كان قد مضى على قصة اختفاء أخيه الأكبر خمسة وعشرون سنة. مكتب النائب السامي قال له إن المعلومات المتوفرة للجيش تم تسليمها للعائلة في وقتها. ذهب لغزة حيث المقبرة قريبة من الطريق العام الواصل بين يافا وغزة على مدخل المدينة الشمالي. لم يعثر على ضالته.

بعد ذلك ستكون زيارات جورج للمقبرة للوقوف والصلاة قرب شاهد قام هو بوضعه بعد أن كتب عليه اسم أخيه إدموند وتاريخ ميلاده وتاريخ وفاته الافتراضي. وكل مرة كان يجد حارس المقبرة يستقبله بالابتسامة ذاتها التي تقول إن ضالته ليست هنا. في الحقيقة كان حارس المقبرة سرعان ما يزيل الشاهد فور خروج جورج من المقبرة محتفظاً به في غرفته الصغيرة قرب البوابة. ولما كانت زيارات جورج للمقبرة موسمية في الأعياد مثل الفصح والميلاد فإن الحارس وقبل الأعياد كان يزيل الغبار المتراكم على الشاهد، ويعيد نصبه فوق القبر المتخيل الذي حسم جورج أمره أن يكون قبر أخيه. لكن حتى مكان القبر كان يتغير كل مرة. الشيء الوحيد الذي لا يتغير هو الشاهد. ربما أدرك جورج أن حارس المقبرة يجاريه على هواه كما قال لعوني ذات مرة. لديه شعور أن الحارس كل مرة يقوم بتغير مكان القبر. كان جورج الزائر الأكثر تردداً على المقبرة من بين عوائل القتلى الذين لم يفد أغلبهم لرؤية أضرحة أبنائهم.

ربما باستثناء قصة اختفاء إدموند وجثته الضائعة في غزة، فإن كريستينا أو «فضة» لا تعرف الكثير من التفاصيل حول هذا التاريخ العائلي. هي مَدينة للعم منصور، أحد أعز أصدقاء والدها، في معرفة الكثير من التفاصيل. تذكر الكثير من الأشياء المتعلقة بطفولتها. شكل البيت. شجرة التمرحنة على باب البيت. زهورها البيضاء تلتف حول الأغصان بشكل عنقودي، وأوراقها الجلدية الخضراء المائلة للحمرة، والرائحة تملأ البيت والشارع. وشجرة الرمان بأوراقها رمحية الشكل ناعمة الملمس وأعناقها المائلة للحمرة أيضاً. تذكر أنها كانت تظن ثمار الرمان أفواهاً جائعة بأسنان بارزة. وكانت تقطع أوراق الشجرة الهرمة وتفرك البراعم الصغيرة المولودة في آباط الأوراق بيديها. والتوتة الضخمة على طرف الطريق المفضي للبيت والياسمينة تتشعلق علية البيت. يبدو البيت في ذاكرة كريستينا مثل مجسم مصغر لبيت أطفال موضوع في حضن غابة. تبدو الغابة مثل حلم جميل قد تطير إليه كريستينا في نومها.

في يافا تبدو الحياة أحلى وألذ مما يمكن وصفه. ورغم تلك التفاصيل القليلة التي علقت في ذاكرتها إلا أن «فضة» تذكر أنها كانت جميلة. كل شيء يبدو جميلاً. ورغم أنه يبدو مختفياً عميقاً في الوعي، إلا أنه ينتشر حول الوجه، فور تذكره، مثل رذاذ الماء في يوم قائظ. حين تكون طفل والديك البكر فأنت تمتص مشاعر الأبوة والأمومة عند كليهما في أبهى صورها وأكثرها طزاجة. هكذا عاشت الطفلة «فضة» سنواتها الإحدى عشرة. وباستثناء جدتها لأمها التي كانت تتمنى أن يكون بكر ابنتها المولودة في عائلة فيها ست بنات ذكراً، فإن «فضة» كانت حقاً معدن العائلة الثمين. ورغم أن العائلة رزقت بثلاثة أطفال آخرين قبل النكبة، كانوا كلهم ذكوراً، إلا أن

«فضة» ظلت الطفل الأكثر حظوة بحب العائلة والأكثر دلالاً. فلسبب ما فإن عوني قرر أن يتريث في إنجاب المزيد من الأطفال حتى يستطيع توفير سبل الحياة الكريمة لهم. وهكذا خرجت «فضة» من يافا عام 1947 وهي لديها ثلاثة إخوة. بيد أن العائلة وحين تفتقد طفلتهم الوحيدة بعد سفرها، ستقرر أن تجرب حظها لعلها تُرزق بطفلة أنثى تكون أختاً لفضة. كان رقم خمسة يغري عوني. قال لزوجته وهو يداعب فكرة إنجاب طفل جديد معها: «طفلتان وثلاثة أطفال، خلفة معقولة». لكنه سيرزق بطفل ذكر أيضاً حيث لن تتحقق الصيغة الجميلة التي تخيلها لعائلة هانئة، لأن هذه السعادة لن تستمر طويلاً، إذ بعد ميلاد الطفل الذكر الرابع في مايو من العام 1948، سيكون القدر قد أكمل إحكام قبضته على مصائرهم.

التحقت «فضة» بمدرسة «تراسنتا» للبنات في البلدة القديمة. هناك ستقابل صديقات طفولتها، اللاتي ستظل كلمة طفولة ويافا تعنيان لها تلك الأيام الجميلة التي أمضتها معهم. كن ثلاث صديقات هي رابعتهم. فريال الشقية كما تذكر «فضة»، ذات الشعر المتموج والفراشة التي تضعها دائماً على شكل دبوس على شعرها. لم تكن تحب المدرسة لكنها تحب اللعب في المدرسة. والثانية مريم هادئة وصامتة معظم الوقت، حين تضحك تضع يدها على فمها حتى لا يسمع صوت ضحكتها. لكنها تحب المدرسة وتحصل على علامات جيدة، رغم صمتها الدائم في الفصل وعدم تفاعلها مع المعلمات والمعلمين. والثالثة سلطانة، متدينة قلقة تتحدث أكثر مما تسمع. عيناها العسليتان تثيران الانتباه للبريق الغريب الذي يصدر منهما.

تذكر «فضة» تلك الحفلة الجميلة التي دعتها لها سلطانة في بيتهم بمناسبة عيد الميلاد، حيث اجتمعوا في البداية أمام كنيسة

القديس «بطرس» قرب البحر ثم توجهوا إلى بيت العائلة في البلدة القديمة. بعد ذلك وحين نظّمت المدرسة رحلة إلى القدس وبيت لحم، حدّثت سلطانة «فضة» عن الأم ماري ألفونسين غطاس التي حملت اسم «سلطانة» قبل الرهبنة، لكنها اتخذت من ماري الفونسين غطاس اسماً بعد الرهبنة. أسمتها أمها سلطانة تيمناً باسمها، حيث كانت تحتفظ بصورة للراهبة المقدسية في صدر البيت. بدهشة الأطفال حدّثت سلطانة «فضة» كيف أخرجت سَمِيتُها بمسبحتها البنت من البئر بعد أن ظن الجميع أنها غرقت، وكيف اندلق الزيت في قارورة فارغة بسبب بركتها، فأشعلت المصباح وشفت المرضى بما طفح منه. حلم سلطانة أن تصبح راهبة تخدم في رهبانية الأم ألفونسين. وتضحك «راح أكون راهبة قد حالي». في بيت لحم ولما كان والد سلطانة هو مسؤول الرحلة، حيث يعمل مُدّرساً في المدرسة، فقد أخذ الباص إلى الدير الذي خدمت فيه ألفونسين. هناك سكنت سلطانة الطفلة شدة الإيمان، وهي تقف تحت صورة الراهبة ترتجف والدمع يسح على خديها، والابتهالات تشق طريقها من شفتيها المرتجفتين إلى عيني الراهبة المليئة حباً وتقوى. يومها قالت لأمها إن الراهبة نزلت من الصورة ووقفت بجوارها. وفي الليل رأت «العذرا» والراهبة تسيران نحوها وهما تبتسمان.

أعجبت «فضة» فكرة الزيت الذي يملأ القارورة ويفيض ويشفي الناس. وكانت تتخيل الزيت المسكوب الذي يصبح دواءً للناس. في البيت قالت أمها إن هذه معجزات، وهي لا تحدث إلا مع الصالحين والقديسين. سألت: « لكنهم بشر مثلنا؟!». لم تعرف الأم كيف تجيب. في المساء قال عوني لفضة: «هم بشر ولكن السماء ترضى عنهم». عوني لم يكن يؤمن كثيراً بفكرة الأولياء والقديسين،

ولكن أراد أن يوضّح لطفلته الفكرة التي استعصت عليها. فسألت: «يعني حين ترضي عني السماء راح أصير قديسة؟!». حملها عوني بين يديه وأخذ يدغدغ جسدها الصغير وهو يقول: «أنت قديسة لست بحاجة لرضا السماء».

ستكبر الفكرة مع «فضة» حتى حين ترتحل إلى لندن ومن ثم ترميها الأقدار في المخيم في غزة، وتظل تحلم بالمعجزات التي تريد تحقيقها. وظل رضا السماء، كما قال أبوها، سراً أبدياً قد يتحقق وقد لا يتحقق. لكن المؤكد أن «فضة» شعرت أنها تعرف الطريق. إنه الطريق الذي نشعر ونحن نسير فيه أننا تائهون لم نعد نتلمس الاتجاه الصحيح. ورغم الإشارات الكثيرة التي قد تلمع في وجوهنا أو تتسلل تحت أقدامنا إلا أننا نعيش تحت السقف المنخفض للأمل. السقف الذي يكفي حتى تمر أرواحنا التائهة

كانت أجواء المدرسة جميلة خاصة أوقات الفراغ بين الحصص حيث تلهو الفتيات بالكرة. مريم لم تعد تأتي إلى المدرسة حيث عرفت «فضة» أن والدها توفي فجأة بسبب مرض ألم به. واضطرت الأم لحمل أطفالها والعودة إلى عكا للعيش في بيت عائلتها هناك. لم تر «فضة» مريم بعد ذلك. أخذتها الدنيا. في اللقاء الوحيد الذي جمعها معها حين ذهبت بنات الفصل مع المربية روز لمواساة مريم بوالدها بكين كلهن وهن يرين الدمع يكوي خدود زميلتهن. لم تقل مريم شيئاً عن الرحيل إلى عكا، ولم تذكر قصة العائلة التي عليها أن تعود إلى بيت الجد الكبير. اختفى بيت مريم في غبش الدموع المتساقطة من العين حين خرجت الفتيات من البيت. ظلت يد مريم ملوحة لهن وهي تقف على الباب عالقة في الهواء مثل خيال الحقل.

أما فريال فكانت تحلم بالسفر، بركوب الباخرة والذهاب بعيداً، والتحليق بالطائرة وزيارة أماكن كثيرة. كانت المدرسة بالنسبة لها مرتعاً تهرب فيه من قسوة والدتها عليها، فهي تريدها أن تكبر قبل أوانها وتصير ست بيت. وكن الفتيات يضحكن وهن يسمعن قصة «ست البيت». لكن فريال التي كانت مغرمة بقصة «أليس في بلاد العجائب»، كانت أبرع من كاتب القصة في سرد مغامرات خاصة بها في دول متخيلة. لكن قائمة فريال لم تكن بلا قيود. فهي لا تريد أن تزور بريطانيا بسبب موقفها من فلسطين ولا تريد أن تزور روسيا لأنهم شيوعيون لا يؤمنون بالله كما قالت لها أمها. وإذا استغرقت فريال كثيراً في التأمل قد تجد أنها لن تزور بلداً في العالم لأنها ستكتشف أن كل البلاد لها عيوب وأن عندها -أي فريال- صورة نمطية عن كل بلد قد تمنعها من زيارته. ثم تصمت وتقول بطفولة وبراءة «بس فلسطين أحلى بلد». وتغمض عينيها وتقول: «بدي أسافر في كل فلسطين». بالطبع هي لا تقرأ الغيب ولا تفتح بالمندل، لكن الغيب وحده يأتي بين أيدينا في الوقت الخطأ.

كانت هذه شلة «فضة» الصغيرة. عالمها الذي كونّته في يافا. عالم صغير ومتنوع، لكنه يكفي كي يجعل المدرسة مكاناً جميلاً. والمدرسة كانت مكاناً جميلاً حقاً خاصة مع وجود المربية روز التي كانت تُشعر الفتيات أنها أمهن وتعاملهن بحنان ومحبة. لكنهن كثيراً ما يضحكن على اللثغة التي تميز حديثها. لكن الغريب في الأمر أنها لم تُستفز يوماً. وكانت تقول فيما الفتيات يضحكن وهي تدير ظهرها وتكتب على السبورة: «عارفة انكن بتضحكن، بكرا بيجي اللي بضحك عليكن». ثم تستدير فجأة وتشير إلى «فضة» أو إلى إحدى البنات وتطلب منها نسخ الدرس على السبورة.

لحظات جميلة وعالم جميل، برغم الكثير من اللحظات الصعبة التي كانت تواجه العائلة خاصة خلال الاضطرابات التي كانت تعم مدينة يافا. فحين ولدت «فضة» كان الإضراب الكبير يعم المدينة. وكبرت مع السنين والمدينة تشهد موجات من التوتر لم ينته حتى بعد أن غادرت «فضة» مع جورج بحثاً عن الشفاء في لندن ذلك الصباح من شهر أغسطس المشمس.

كل هذا يقترح ضرورة الحديث عن ترك «فضة» ليافا وسفرها إلى لندن الذي تكرر مرراً في متن الحكايات السابقة بوصفه الحد الفاصل بين زمنين. في الحقيقة فإن سفر «فضة» إلى لندن الذي كان صدفة، سيكون أهم حدث في حياتها. ليس لأنه عنى انتقالها من مكان لآخر، ولكن لأنه الحدث الذي سيحدد مصير علاقاتها ومستقبلها وطبيعة تفاعلها مع جيرانها بعد ذلك. عادة الأشياء، حين يتعلق الأمر بمصيرنا، أن نشعر بالتحولات التي تجري ونحن نسير على الطريق. مع «فضة» اختلف الأمر، فكل شيء بدا وكأنه يسير في طريقٍ آخر. حتى في تلك اللحظات القليلة التي شعرت فيها بأنها تعرف الطريق الذي تسلكه، كأن هذا الوهم كان من تدبير القدر أيضاً. ويحدث أيضاً أن نُعّلق آمالاً كثيرة على فرص قادمة، ليبين لنا بأننا نلعق الهواء أو نمارس تمريناً ذهنياً في التمني والرجاء. وقد يحدث العكس، مثل أن تفاجئنا الحياة بالكثير من الضحكات فيما نحن نغرق في الكآبة ولوي البوز والحنين للشيء الذي لم يحدث. الحياة قد تبدو لغزاً، لكنها دائماً كذلك حتى حين نعتقد أننا نفهمها. من هنا جاء بحث البشر عن الخلود لأنهم أرادوا أن يوقفوا الحياة، أن يتخلصوا من فكرة الفناء لأنها الدليل الدامغ على الحياة. ولذلك

فإن البعض قد يلجأ للانتحار ليس للتخلص من الحياة، ولكن لأن نهاية الحياة هو تأكيد أنها كانت.

لم تكن بالطبع «فضة»، حين كانت تدخل عامها الحادي عشر، وبعد أن أنهت العام الدراسي وبدأت الإجازة الصيفية، لتفكر في كل هذا. انتهت العائلة من احتفالها بعيد ميلاد فتاتها البكر. عيد ميلاد بهيج رغم أن السنة كلها حملت الكثير من الأحداث المربكة. فعوني بات مثلاً أكثر قلقاً على المستقبل. كثُرت اجتماعاته ولقاءاته السياسية. وكانت «فضة» كثيراً ما تسمع صوته وصوت رفاقه خلال اجتماعاتهم في صالون البيت. لم تكن تفهم الكثير مما يقال، لكنها كانت تشم رائحة الغضب. من الأشياء التي فهمتها نقمة والدها على الساسة والأحزاب التي تتشكل ليس للدفاع عن فلسطين، بل للدفاع عن زعامات تقليدية. لم تفهم لكنها أحست الخوف من المستقبل الذي يتصاعد مثل البخار من حديث والدها.

المهم أن ليلة حفلة عيد الميلاد التي حضرتها العائلة والصديقات في المدرسة والجيران، لم تنم «فضة». عانت من حرارة عالية. قالت أمها إن البنت أصيبت بعين، «محسودة». سهرت الليلة وهي تضع لها الكمادات على رأسها، دون أن تنجح في تخفيف درجة الحرارة. عوني أحضر حماته لتستعين بها العائلة في تخفيف الحرارة. الجدة لم تنجح، واقترحت أن الحل الأمثل أن تسرع «حياة» في أخذ البنت إلى المستشفى.

تسللت أشعة الشمس من خصاص النافذة حين بدأت «حياة» الاستعداد لأخذ البنت إلى المستشفى. كانت شفتاها تلهجان بدعاء لا ينقطع إلى الله أن يُسّلم طفلتها. في المستشفى الحكومي قال الطبيب إن الأمر مجرد حرارة مرتفعة ويمكن أن تنزل مع الوقت.

السؤال: «كم من الوقت نحتاج؟». كان ذلك عوني الذي لم يتلق إجابة من الطبيب، الذي قال في نهاية الأمر الشفاء بيد الله. سألت حياة: «وإيدك شو بتسوي؟». لم يجب. عادت العائلة ببعض الأدوية ونصائح مرافقة مثل مواصلة عمل الكمادات. نزلت الحرارة قليلاً، لكن ظهرت مشكلة أخرى كانت هي ما سيقلق العائلة بشكل حقيقي. إذ بدأ أصبع «فضة» (الإبهام) يتورم بشكل كبير ويتحول لونه للأحمر. الطبيب قال: الأمر نتيجة طبيعية لارتفاع الحرارة وسيعاود الإبهام البرود والضمور مع الوقت.

ومع الوقت لم يضمر الإبهام، بل باتت تظهر فيه نتوءات وتقيحات، وباتت «فضة» -في الليل خاصة- لا تستطيع تحمل الألم الذي كان يأكل عظامها بقسوة شديدة. حملها عوني من طبيب لآخر، وكانت كل زيارة تزيد شكوكه بأنه سيفقد ابنته إذا استمر الإبهام على هذه الحالة. أما «حياة» وأمها فقد حملن البنت إلى أكثر من امرأة عجوز عارفات وشيوخ يعرفون بالطب الشعبي. وخلال كل زيارة كن يعدن إلى البيت بالمزيد من الوصفات والخلطات من الأعشاب والسوائل والمساحيق. وفي الليل يختلط الألم مع اليأس مع حفنة الأمل القليلة التي مازالت تقبض عليها العائلة. أما «فضة» فقد بدأت تشعر بأن الأرض تميد تحت قدميها وأنها سيغمى عليها، أو ربما تموت في أي لحظة. وكان أكثر ما يقهر العائلة هي دمعاتها الصامتة وهي تراقب عمرها يذوي. لم يقدم أي طبيب أو شيخ أو ولي من أولياء الله حلاً للأصبع الذي يتقيح ويكاد ينفجر من الورم. كل الحلول المقترحة مؤقتة وتساعد في أحسن الأحوال في التخفيف من الألم، لكنها لم تكن تتخلص منه. اليأس تدريجياً ينهش العائلة ويقضي على حفنة الأمل القليلة التي ظلت متمسكة بها.

كأن السماء كانت مغلقة الأبواب، فلم تنفع كل الصلوات ولا كل الأدعية والنذور من التخلص من الورم الخبيث. الجدة، التي لم تحب أن يبدأ إنجاب ابنتها بطفلة، وجدت نفسها تذرف الدموع، وتركب القطار إلى القدس للصلاة في المسجد الأقصى من أجل أن تدعو الله عن قرب لعله يستجيب لها ويشفي حفيدتها، ويهدأ بال أهلها عليها.

رغم أن عوني عارض الاقتراح أكثر من مرة، وجد نفسه يناقشه في ليلة استبد اليأس بهم وأجهز عليهم. الاقتراح الذي عرضه جورج قبل أسبوعين تقريباً، وأعاده على مسامع عوني ثلاث مرات بعد ذلك. اقترح أن يأخذ «فضة» معه إلى لندن حيث سيغادر لرؤية والدته في شهر أغسطس وسيعود بعد شهرين، وهناك سيعرضها على الأطباء. فرك عوني أعقاب سيجارته في المنفضة ورفض الفكرة، لكن أذنيه ظلتا تنتظران المزيد من تعليقات جورج. من يضمن أن الورم لن يمتد إلى بقية الجسد. قد يكون الحل التخلص من الإصبع أو ربما معالجته بطريقة جذرية. لكن المؤكد ووفق الطبيعة فإن الورم سينتقل من الإبهام إلى بقية اليد فالجسد، مثل برتقالة متعفنة في الصندوق. لا يوجد حل ثالث. قام عوني هذه المرة غير مستسيغ الفكرة، كيف سيترك ابنته تسافر إلى لندن؟ في المرات التالية قال جورج إن على عوني أن يقرر، لأنه في طور الإعداد للسفر. وذكّره أن الأمر يستحق التجربة. رد عوني: هذه مغامرة.

الحكمة ليست بماذا نسميها، بل ماذا نجني منها؟

لكن أنت لست متأكداً أن ثمة علاجاً لها هناك!

وهل لها علاج هنا؟! على الأقل هناك نحاول، ولن نجد من يقول لنجرب.

ولكنها ابنتي.

جورج قال إنه يعتبر «فضة» ابنته. يذكر تلك الأمسيات الطويلة التي كانت تداعبه فيها بالمفردات القليلة التي تعلمتها من اللغة الإنجليزية. كل مرة كان قاموسها يزداد ويزيد عدد تلك المفردات. ويذكر أسئلتها الشغوفة عن السفر لأن صديقتها تحب السفر وزيارة العالم. لكن «فضة» لا تعرف شكل العالم خارج يافا. سألها جورج: وهل تعرف صديقتك شكل العالم خارج يافا؟ مطت شفتيها وقالت إنها تحبه. لكن كل هذا ليس مهماً. المهم أن هناك مرضاً يهدد حياتها يجب معالجته. فقط أراد أن يدلل على حرصه على البنت، حرص نابع من شعور أبوي. عوني لم يكن يستطيع أن يتخيل أن «فضة» يمكن لها أن تعيش بعيداً عن العائلة. ما أربكه حقاً هو أن قصة الإصبع المتورم يمكن لها أن تفرط سبحة العائلة وتشتتها، وأن هذا الشتات يبدأ من طفلته البكر. قسوة مُغّلفة بالقليل من الأحداث، لكنها فجة وصادمة.

لم يناقش عوني الأمر في العائلة. دائماً يعزي نفسه أن معجزة ما ستحدث، وأن القدر سيبتسم أخيراً، وسيصحو من النوم، ويجد ابنته شفيت بشكل كامل. كانت تلك الأمنيات تسبح في خياله كسيحة، ضعيفة الحركة، خاصة حين يعاوده اليأس، وهو ينظر في البحر يتابع تدافع الموج اللامتناهي. وكل مرة يفاتحه جورج في الموضوع يقترح التريث قليلاً فقد يحدث تحسن في صحة «فضة». إنها الأمنية التي ينتظر والمعجزة التي يريد أن يصدق. في آخر زيارة لطبيب، وصفوه له بأنه أفضل من يستطيع أن يُشّخص حالة ابنته، فقد تَخّرج حديثاً ومواكب لكل جديد في الطب، ناهيك على أنه متخصص في العظام، أجهز عليه اليأس.

كان شارع «بسترس» في يافا يعج بالحركة، خاصة الباعة والمشترين فالصيف في ذروته، والمصطافون يفدون من كل مكان. كانت يافا أم الغريب، فلكل غريب مكان في يافا يسكن، يتزوج، يعمل، يبني بيتاً، أو يقضي حاجته ويمضي. ساهماً يمسك بيد ابنته ويشق طريقه في الشارع. صياد يضع شبكته على عربة يجرها حصان. أسماكه تتلألأ في سلة كبيرة من القش كأنها تريد أن تفر من السلة. رائحة البحر تفوح في النواحي. «فضة» تنظر في كل اتجاه، كأنها تبحث عن شيء ما، ثم سألت والدها لماذا لا يشتري لهم السمكات الطازجة من الصياد؟ ابتسمت عيناه الشاردة وقال: حين ننتهي من الطبيب.

الطبيب قال ببساطة إن الأمر محير. قد يستطيع المجازفة بمسار علاج جديد يمتد لستة أشهر. لكنه لا يضمن النتائج. كما أن الوقت ليس في صالح الفتاة، فالورم مقلق ومن شأنه أن يتمدد إلى بقية الأصابع وكف اليد والذراع. هذه حالة نادرة، لكنها ممكنة. صمت قليلاً وقال لعوني إن الحلول محدودة ولكنه يقترح إذا كان من الممكن أن يأخذ ابنته لعرضها على أطباء في الخارج من أجل الاستنارة أكثر. وفيما عوني يغادر العيادة قال الطبيب بالإنجليزية، حتى لا تفهم الفتاة كما يفعل الأطباء عادة حتى لا يفهم مرضاهم شيئاً مقلقاً سيقولونه: قد يحتاج الأمر إلى بتر. حتى هذا لا يمكن فعله هنا في ظل حالة الورم الشديد.

شيئان كان يفكر فيهما عوني وهو يخطو خارج البناية التي تعود للقرن الثامن عشر التي تقع فيها عيادة الطبيب. كيف يمكن له أن يأخذ ابنته لعرضها على أطباء في الخارج. أين سيذهب بها؟ أفضل الأطباء في يافا. لا فائدة تُرجى من عرضها على طبيب آخر في القدس مثلاً. الأطباء يأتون ليافا للعمل فيها. والأمر الآخر هو

اقتراح صديقه جورج بأخذ «فضة» معه للندن ومعالجتها هناك. الفكرة بدت معقولة الآن، وربما ضرورة كما قال لنفسه. «فضة» كانت تفكر في أمر ثالث: في السمك. قالت تريد أن تأكل سمكاً. كأن النقاش استقر في عقل عوني الآن، وهدأ موج أفكاره إذ صار الأمر محصوراً في خيارين. ابتسم ابتسامة عريضة وهو يخرج سيجارة ثم يشعلها وقال: سنذهب للميناء لشراء بعض السمك. أشارت «فضة» جهة السوق حيث كان يسير الصياد يجر عربة حصانه.

«لقد ذهب.»

«بندور عليه.»

وعادا باتجاه السوق يبحثان عن الصياد الذي لم يجداه.

باع سمكه. خلينا نروح على المينا.

ضربت رجلها في الأرض وقالت: خلينا ندور كويس.

أمضيا نصف ساعة يفتشان كل زاوية في السوق دون أن يتمكنا من إيجاده. وحين كانا يخرجان من السوق لاحت عربته تخرج من شارع فرعي. كان الصياد قد ذهب لشرب القهوة في مقهى داخل السوق في زاوية قصية. انفرجت أسارير «فضة» وهي تشير إليه. ذهبا وتمكن عوني من إقناع الصياد بأن يقتسم معه نصف ما في السلة من سمك البوري واللوقس حيث كان الصياد قد أراد أن يحتفظ بها لعائلته. الرجاءات التي تمتلئ بها نظرات عيني «فضة» كانت سلاح الضغط الأقوى في الموضوع.

في الطريق أحس عوني في البحث عن الصياد واليأس من العثور عليه ومن ثم ظهوره فجأة، إشارة من السماء. الإشارات تأتي

في الأوقات التي نحتاجها فيها. سرى ارتياح كبير في نفسه، شعر به يغمر جسده. هذه المرة كانت خطواته نحو البيت جذلة، وهو يحدث «فضة» عن الوليمة التي سيقوم بإعدادها بنفسه.

في البيت كان عوني منهمكاً بتنظيف السمك وتتبيله من أجل أن يقوم بشوائه على الفحم الذي أوقده في منقل حديدي وضعه خلف البيت حيث حديقة بمساحة أمتار قليلة تزرعها «حياة» بالريحان والنعناع والروزماري وورود الجوري وشجرة لوز كبيرة تتوسطها. كانت «حياة» تعد الرز المطبوخ على ماء السمك المسلوق. لم تعرف سبب سعادة زوجها، والنشاط الذي دب فجأة فيه ونقله بقوة إلى كل من في البيت. حتى جدران البيت تأثرت بهذه الطاقة الإيجابية وباتت سعيدة أيضاً. سألت «حياة» ابنتها بسعادة من يريد أن يكتشف الذهب بعد لحظات: «شو قال الحكيم لأبوكي». لم تقنع إجابة «فضة» أمها، فقد قالت إنه تحدث معه باللغة الإنجليزية. «وما فهمتي شو قال؟!». هزت «فضة» رأسها نفياً. «وإلا زي الببغاء مع جورج صاحب أبوكي بتكوني بالإنجليزي، ولما بدنا إياكي تفهمي ما فهمتي». تناولت فضة فصوص الثوم المهروسة من المطبخ وهي تقول لأمها: «إسألي بابا هو بقولك».

لم تجد «حياة» إجابة شافية عند عوني الذي ظل منهمكاً في شوي الأسماك وتقليبها على الجمر المتوهج. «يعني ما قال شيء محدد». قال وهو يخرج سيجارة ويشعلها وينظر إلى سمكاته والزيت ينز منها ليزيد الجمر اشتعالاً:

قال أشياء كثيرة.

قال إنها راح تطيب؟

مش هيك.

سألت بيأس يستجدي الأمل: قال فيه أمل؟

سحب نفساً عميقاً من سيجارته، ظنت «حياة» أنه لن ينتهي منه إلا حين تنتهي السيجارة وقال:

الأمل دائماً موجود.

لم تفهم «حياة» شيئاً من كل ذلك. قال أشياء كثيرة لكنه لم يقل إنها ستشفى. رغم ذلك قال هناك أمل. هكذا أجملت «حياة» الحوار القصير المقتضب الذي دار بينها وبين زوجها. بدا الأمر مثل لغز عليها حله. صارت تمشي في البيت وهي تعيد تكرار ما بدا أحجية بالنسبة لها، تريد أن تفك طلاسمها. «فضة» مثل من يريد أن يساعد غريقاً قالت فجأة:

سمعته يقول الورم.

رمقتها «حياة» بنظرة خاطفة، قبل أن تلتفت، لتواصل سكب ماء السمك المسلوق فوق الأرز، وقالت: «جبتي الذيب من ذيله».

والذئب لم يأت به أحد من ذيله كما ستعرف «حياة» لاحقاً، لكن هناك تطوراً لابد أن تناقشه العائلة. ما إن انتهت العائلة من تناول الطعام. وقبل أن تنتهي «حياة» وعوني من رفع الصحون وتنظيف الطاولة، دون أن تلتفت نحوه قالت: «عوني، فيه في راسك موال».

ضحك عوني وهو يقول: «موال صغير».

بدأت أسارير «حياة» تنفرج حيث أحست بأن عوني سيتحدث عن الأمر. سألت بقلق:

البنت راح تطيب؟!

قال بكل ثقة: طبعاً طبعاً.

لم تمهله كثيراً قبل أن تقول: كيف؟ طمني؟

وبدأت الأسئلة تندفع من فمها مثل سهام من رمح مشدود إلى آخر منزعه. تريد أن تعرف كل شيء حيث بدت هذه الأسئلة التفصيلية جرعات طمأنينة إضافية بعد أن جاءتها الإجابة التي كانت تنتظرها بأن ابنتها ستشفى. ولن تكون كل الإجابات الأخرى بعد ذلك إلا تنويعات وتفاصيل تعزز راحة بالها التي افتقدتها منذ تلك الليلة التي احتفلت فيها العائلة بعيد ميلاد ابنتها البكر الحادي عشر. اقترح عوني أن يجلسا ويتحدثا وهما يرتشفان فنجان قهوة. لم تكن «حياة» لتصبر بعد الآن حتى تغلي الماء وتضع القهوة وتفور هي الأخرى وتسكبها في الفنجان. بدت تلك عملية طويلة سيكون صبرها قد احتراق قبلها. واست نفسها بأنه قال إن البنت ستشفى. لا بأس. لم تمهل القهوة حتى تفور بشكل كامل، سكبتها في الفنجان. وضعته أمامه وقالت: «هات لأشوف».

لم تعجب الفكرة «حياة». لم تصدق أن ابنتها يمكن لها أن تسافر «لبلاد برا» وحيدة، ويمكن لها أن تتلقى العلاج وقد تخضع لعملية جراحية دون أن تكون بجوارها. لم تصدق أن هذا قد يحدث. القصة بالنسبة لها ضرب من الخيال. لم تفكر في الأمر، كما أنه بالنسبة لها شيء مستحيل. عوني، بالكثير من الهدوء، حاول أن يشرح وجهة نظره. هدوء مشوب بالقلق رغم ذلك، إذ إنه تلعثم في الكثير من العبارات، وعجز في مواضع معينة عن إيجاد الكلمة المناسبة، وفي مرات أخرى حاول أن يقول إن هذا ليس رأيه

بالتحديد، ولكنه خيار لابد منه. كل هذا لم ينفع في إقناع «حياة». قالت: «بتمزح!!». ثم هزت رأسها مرة أخرى: «أكيد بتمزح!». كانت تريد منه أن يقول لها: «نعم بمزح»، وأن الأمر مجرد دعابة بعد وجبة طعام لذيذة. من المؤكد بأن الأمر ليس إلا نقاشاً عابراً في جلسة عائلية. لابد أن يكون كذلك. لكن هذا لا ينفي كما قالت لنفسها إنّ البنت مريضة وإنّ العائلة لابد أن تجد العلاج المناسب. أعادت السؤال: «لكن الحكيم شو قال؟!» كأنها تريده أن يكتشف في حديث الطبيب أشياء لم يكتشفها وقتها. «شو قال؟!». صمت بعمق. أطبق شفتيه كأنها يعصرهما لعل كلاماً آخر يخرج منهما. كلام جديد لم يسمعه هو أصلاً. ثم قال بيأس واضح: «ما قال شيء تاني غير اللي قولتلك إياه».

تخيلت «حياة» البنت تسافر وحيدة مع رجل غريب. رجل أجنبي. ماذا سيقول الناس؟ حتى القصة ليست قصة الناس، ماذا ستقول لنفسها لو حدث مكروه للبنت؟ هل ستقول إنها قبلت أن تترك ابنتها لمصيرها؟ قبلت أن تدعها تسافر دون أن تكون معها. من يترك فتاة عمرها إحدى عشرة سنة تسافر وحيدة. لم تسمع أن أحداً فعل ذلك. تخيلت ابنتها في المستشفى وحيدة لا أهل حولها يخففون عنها آلام المرض. تخيلتها تطلب رشفة ماء دون أن تجد من يسهر على راحتها ويناولها إياها. نفضت الفكرة عن رأسها، فالقصة ليست قصة كأس ماء أو كيف تذهب للحمام وحدها وهي خارجة من العملية. لابد أن هناك ما يخفيه عوني. سألت برجاء مرة أخرى: «أكيد بتمزح».

لا إجابة يمكن لها أن تحسم النقاش، كما أن عوني استنفد كل مخزونه من الشروحات والتفسيرات والأعذار. بدا السؤال خانقاً بالنسبة له، فهو لا يمزح، والأمر لا يحتمل المزح وتضييع الوقت.

تماسك نفسه، وقال: «يا ستي بمزح، آه بمزح». زادت الإجابة من قلق «حياة». فهي لم ترد له في الحقيقة أن يقول إنه يمزح، لأن صوته لم يكن يقول إنه يمزح. بدا الأمر أكثر جدية من أي وقت مضى. «قصدك ما بتمزح .. رسيني على بر». لو كان يعرف كيف يرسو بقلقه على بر الهدوء لكان فعل منذ زمن.

سار بضع خطوات في الصالون، ثم تناول أسطوانة كان قد اشتراها حديثاً، وضعها في «الجرامافون»، وقام بلف الأسطوانة بعد أن أطبق عليها إبرة الجهاز. كانت تلك معزوفة تشايشوفسكي «الجمال النائم». لم تفلح ضربات وإيقاع تشايشوفسكي في تخفيف توتر «حياة»، بل زادت من قلقها. قالت فجأة: «بدك كمان قهوة». أرادت أن تعيد ترتب النقاش. هذه المرة كان يجب البحث عن مخرج حقيقي. المخرج الوحيد المتبقي أمامهما هو أن تسافر «فضة» مع جورج إلى لندن وتتلقى العلاج هناك. والوقت صيف ولا توجد مدرسة. حتى لو تأخرت البنت قليلاً هناك وعادت في آخر أكتوبر فسيتحدث عوني مع صديق له يعمل مُدّرساً في المدرسة. أراد أن يشرح لـ«حياة» أن كل العقبات يمكن تذليلها. ثم أنه لن يدع جورج يصرف على علاج ابنته. سيعطيه الألف جنيه إسترليني التي نجح في ادخارها بعد أن قام بتوسيع مصنع تغليف البرتقال. بكلمة بسيطة يمكن تدّبر الأمر. ارتشف آخر ما تبقى في فنجان القهوة وقال: «الناس ما بنفعونا لو ماتت البنت لا سمح الله»، كأنه يقرأ آخر بواطن القلق في عقل زوجته. «المهم تطيب البنت يا حياة». ثم وقف وهو يقول: «جورج رجل طيب، صارلي بعرفه خمس سنين ما شفت منه إلا كل خير. كمان هو معارض لسياسة حكومته هون». آخر همها كان موقف جورج السياسي. كان يهمها أن يأخذ باله من

ابنتها. لم تكن الأسطوانة قد انتهت حين انفض اللقاء، واستقر الرأي، وظل عليهما أن يتحدثا إلى «فضة».

«فضة» لم تفهم شيئاً. أعجبتها فكرة أن تركب الباخرة وتسافر إلى لندن. تسللت ابتسامة خفيفة إلى شفتيها وهي تتخيل الحسرة على وجه فريال حين تعرف أن «فضة» هي التي ستسافر وترى العالم وليست هي. اكتشفت الحل السحري لذلك. سألت بطفولة: «بنفع نوخذ فريال معنا؟». هز عوني رأسه نافياً. قطبت «فضة» وجهها وهي تفكر في صديقتها التي ستحزن أن أحلامها لا تتحقق، وأنها لن تسافر. داعب عوني شعر ابنته وهو يقول لـ«حياة» إنه ذاهب لرؤية جورج من أجل أن ينهي الأمر معه.

في مقهى «البوسطة»، سأل عوني جورج عن موعد سفره. بدا أن الأخير فهم المغزى وراء السؤال. فقال «هل غيرت رأيك؟». التفاصيل جاهزة في ذهن جورج وخطة السفر من يافا واضحة بالنسبة له، فقط عليه أن يقوم ببعض الإجراءات من أجل ضمان خروج «فضة» معه. لم يبق أمامه إلا ثلاثة أسابيع، وهي مدة كافية لإنجاز كل شيء. وبين فينة وأخرى يطمئن عوني على أن كل شيء سيكون على ما يرام، وأنه سيعود بعد شهرين من سفره، وستعود «فضة» معه وقد شفيت. وأنه سيهاتفه من لندن من أجل أن يشرح له وضع ابنته الطبي ويترك له القرار في الخيارات المتاحة التي يقترحها الأطباء. ثم علق مازحاً: «فرصة ترتاح فضة من المشاكل والاضطرابات في يافا». فرد عوني سارحاً: «بصراحة كل العائلة بحاجة لإجازة». ابتسم جورج وقال :تعالوا كلكم. لم يكن الأمر ممكناً وهو بحاجة لترتيبات ضخمة ومصاريف أضخم، ثم إن العمل اشتد على عوني حيث إن أعمال المصنع بدأت تتوسع وتكبر.

في الطريق إلى البيت كان عوني يعد خطواته على الطريق. يستمع إلى وقع حذائه على الرصيف. بدت الطريق طويلة كأنها لن تنتهي. السماء صافية وأشجار النخيل في منتصف الشارع تتمايل مع رياح أول الليل. صِبية يلهون بالكرة في شارع جانبي، وعينا عوني تغرورقان بالدموع.

لندن : 1947

ما أصعب أن تشعر أنك لا تفهم ما يجري حولك. تحس أنك ضائع رغم أن كل شيء يبدو هادئاً ثابتاً، يسير في إيقاع محكم. وحدك الذي تشعر بأن ثمة خطأ ما، ثمة رائحة نتنة تنتشر، ثمة زلزالاً يهز الأرض ببطء، وثمة نهاراً لا تبصر فيه رغم سطوع الشمس. ما أصعب أن تكون وحدك! أن تكون من يشعر بكل ذلك بينما من حولك يرون العكس. لن تنفع كل تفسيراتك وشروحاتك، كما لن تعدو كل إشاراتك إلا ترفاً نابعاً من عدم الإحساس بجمال الكون حولك، وبمتعة اللحظة التي تعيشها. عندها لا تمتلك إلا أن تغلق فمك وترّوض نفسك على تقّبل ما يجري وربما امتداحه.

هذا ما حدث مع «فضة» حين وصلت لندن. لم تفهم. وجدت نفسها في مدينة غريبة عنها. الشوارع، البيوت، الحافلات، اللغة، الناس، الأشجار. كل شيء مختلف هنا، فهي لا تعرف شيئاً. باستثناء العم جورج كما باتت تناديه فهي لا تعرف أحداً. بدت عاصمة إنجلترا في العام 1947 تنفض عنها آثار الحرب العالمية الثانية التي أتت على الكثير من حيوات الناس ومقّدراتهم. المدينة عاصمة الإمبراطورية التي تحكّمت بمصير العالم وصنعت دولاً

ورسمت خرائط، أكلت الحرب الكثير من استقرارها. فرضت الحرب والقصف الذي تعرضت له لندن تقشفاً واضحاً على الحياة وعلى تنظيم شؤون الناس سيظل يلازم المدينة سنوات بعد ذلك. لكنها في اللحظة التي تتمكن فيه من النهوض من آلام الحرب ستجد نفسها خارج دائرة مركز الفعل الكوني كما كانت، إذ لم تعد لندن هي التي تقرر مصير شؤون الكوكب.

لم تكن «فضة» تعرف كل هذه التفاصيل. كانت فكرة أن تكون في لندن بحد ذاتها تبهرها. فلندن هي عاصمة إنجلترا التي تحكم فلسطين. ولندن هي المدينة الساحرة التي يتحدث عنها العم جورج طوال جلساته مع أبيها. مشاعر متناقضة. تذكر غضب مربية الفصل روز على بريطانيا العظمى، وعلى سياساتها التي تعطي فلسطين لليهود، وتشجع على الهجرة، وتبني لهم مستوطنات ومدناً على حساب الفلسطينيين. تذكر كيف كانت المربية روز -التي ستغيب لستة أشهر بسبب اعتقالها من قبل القوات البريطانية- تقول إن مجد هذه الإمبراطورية بُني على جماجم شعبنا والشعوب الأخرى. كانت تلك عبارات كبيرة لكنها كانت تُشعر «فضة» بالغضب. ولاحقاً، حين تسمع جمال أو منار يتحدثان عن «خيانة» بريطانيا لشعب فلسطين، تود للحظات لو أن حياتها اللندنية تختفي بالكامل من ذاكرتها. فريال التي تحلم بالسفر تعرف معلومات كثيرة عن لندن قالت إن عمتها التي عاشت في لندن سنة مع زوجها خلال دراسته هناك تحدثهم عنها دائماً. فريال تكاد تعرف الشوارع ومحطات القطار وأسماء المتنزهات. تتحدث عن لندن كأنها كانت هناك وعادت لتوها، لكنها رغم ذلك لا ترغب في الذهاب إلى هناك.

«حياة»، الأم، كانت تشفق على ابنتها من آلام الغربة. تبكي وتسقط دموعها كل ليلة وهي تنام على سرير ابنتها منذ قررت العائلة أن تسافر «فضة». تتساقط دموعها على شعر الفتاة وهي تلهج بالدعاء إلى الله، وبقراءة آيات من القرآن والأحاديث المأثورة. تنظر إلى سقف الغرفة، تجول ببصرها في زواياها: الخزانة، قوائم السرير، العلّاقة بجوار الباب حيث يتشعبط مريول المدرسة والشبرة البيضاء. تفاصيل تلتفت لها «حياة» لأول مرة بهذه الدقة ربما. تتأكد بأن هناك ما سيبقى من ابنتها خلال رحلتها التي ستبدو بالنسبة لها دهراً من الزمن.

والدها قال إن الأمر متعلق بالعلاج. ستتعالج ثم تعود فوراً، لذا يجب أن تلتفت إلى الكثير من الأشياء، ولا يهمها الكثير من النقاش. فرك أصابع يديها بباطن يده وهو يقول إنها ستكون فرصة حتى تحسن لغتها الإنجليزية. عبارات كثيرة قصد من ورائها طمأنة ابنته أن كل شيء سيكون على ما يرام، وأن جورج رجل طيب وسيعتني بها. كما أنه لن يُشعرها بالغربة والوحدة، فخلال الشهرين اللذين ستمضيهما هناك ستتلهى بالعلاج وزيارة الأطباء. كما أن جورج سيأخذها في رحلات على الريف وفي الجبال. ما رمى إليه عوني أن الحياة ستكون محتملة، وأن «فضة» لن تمل. الكثير من الأشياء ومن الكلمات كانت أكبر من قدرتها على الفهم، لكنها كانت تعرف أن كل ما يقال يسعى إلى طمأنتها. وكانت تبتسم بشرود يقترح أنها تسعى إلى تقبّل الأمر.

صوت فريال عن المدينة الجميلة، وصوت معلمتها في المدرسة روز وغضبها على لندن، وتوصيات والدها بأن الأمر مؤقت، ودموع أمها ودعاؤها بأن يقوي الله ابنتها على تحمل الغربة، تتزاحم في رأسها، تتنافر. تشعر بالدوار. لا تكاد تحتمل كل هذا.

تغمض عينيها. تريد أن تنام. لكن حتى النوم حين نحتاجه لا نجده. يهرب، يسكن بعيداً في كل شيء إلا في جفوننا. تتقافز الصور أمامها، وتتماوج الوجوه، وترى أهلها أمامها مازالوا يلوحون لها وهي تخطو خطواتها الأخير نحو الباخرة. أيديهم تلوح في الهواء، تريد أن تتجمد من لهفة الوداع. نحيب أمها طوال الليل وتنهداتها. دعاؤها غير المنقطع وحده كفيل بأن يُشعر «فضة» بأنها مُقدِمة على تجربة قاسية، تحس معه بالراحة لكنها الراحة التي تخفي تحتها أنفاقاً ومتاهات من القلق والخوف والرعب.

مع الوقت ستصير هذه الأصوات وهذا الصراخ في الروح ركضاً في متاهات لن تقوى على الإفلات منها. حتى حين تبدأ تفّهم الحياة هنا في لندن وتتأقلم معها، فإنها ستظل تزورها بين فينة وأخرى في المنام. لا تعرف ما الذي تراه تحديداً، لكنها تحس بالوجوه، تشمها، تراها، تسمعها. تصحو من النوم. تهز رأسها لنفض بقايا الكابوس المؤرق الذي غزا منامها. السنون وحدها لا تطيح بكل الألم، والزمن لا يقدر وحده على التخلص من الماضي. والمتع لا تنسينا العذاب، كما النسيان لا يمحو الذاكرة وإن كان نقيضها، فقط يُخدّرها، يغطيها بطبقة من التساهل مع التحولات التي طرأت في حياتنا، سواء كانت فقدان حبيب، أو خسارة عقار، أو إهانة تسبب لنا بها شخص ما، أو أي شيء من هذا القبيل. النسيان يلف كل شيء بورق سلفان، سيتمزق ذات يوم. لكننا لا نعرف اليوم تحديداً، لذا نظل ننظر إلى طبقة السلفان بفتنة وامتنان.

هكذا عاشت «فضة» حياتها الجديدة. بل لم يعد هناك شيء اسمه حياة جديدة وحياة قديمة. صارت كلها حياتها. مع الوقت لم تعد تحس بتلك الكوابيس التي تزورها في الليل، ولم تعد ترى صور

أمها تبكي، ويدُ والدها تلوح في الهواء بلا توقف، وصوت فريال الحالم بالسفر، ولا ابتهالات سلطانة في الكنيسة لـ«ستنا مريم» الممتلئة بالنعم، ولا ابتسامات إخوتها وهم يساعدونها في حمل الحقيبة. لم تعد ترى هذا. عتق الماضي وعتقت الكوابيس. لكن عميقاً ظل إحساس غريب بالحنين لا تعرف كيف تفسره. فقط حين تسأل العم جورج فجأة: متى سأرى أبي وأمي؟، ينهار كل شيء. جورج لا يعرف كيف يجيب. فهو منذ خروج القوات البريطانية من فلسطين وتهجير أهالي مدينة يافا في مايو من العام 1948، لم يعرف أي شيء عن عوني وعائلته. لم يمض عام على خروج «فضة» من يافا حتى هُجّر مُعظم سكان يافا منها.

ارتبك جورج وهو يتابع الأخبار. في بداية الأمر فكر في أن يأخذ «فضة» ويعود بها إلى أهلها. لكن الأمور تدهورت بشكل لم يكن من الممكن توقعه. انتهى علاج «فضة» بضرورة قطع إبهامها حتى لا يتمدد الورم إلى باقي جسدها. الأمر كان واضحاً من أول زيارة للطبيب في مستشفى «سينت ثوماس» وسط لندن. جورج هاتف عوني وأبلغه بقرار الطبيب الحازم. قال إن الطبيب لم يتردد في الأمر، وقال إن هذا هو الحل الوحيد. عوني صمت قليلاً ثم قال: إذا كان هذا رأي الطبيب لا بأس. لم يكن ثمة خيار آخر. سأل عن «فضة» وكيف تتدبر حياتها في لندن. جورج طمأنه أنها تشتاق إليهم كثيراً لكنها أيضاً بدأت تلتفت إلى الحياة حولها، وتحاول أن تستمتع بها. ضحك وأخبره أنه بات لديها صديقة تعرفت عليها في المتنزه بجوار البيت.

لم يكن الأمر مُتعباً، ولم تكن تلك عملية جراحية خطيرة. نتيجتها الحتمية أن «فضة» باتت بتسعة أصابع وليست بعشرة. أقلقها الأمر وكان مربكاً لها في السنوات الأولى. عيناها وهي تتحدث إلى

شخص ما تنتظر اللحظة التي سيكتشف أو تكتشف فيها إصبعها المفقود. لم تكن تنتظر، إذ في مرات كثيرة كانت هي من يبحلق في إبهامها المبتور لأن الشخص الواقف قبالتها لم يلتفت إليه، لعله يكون قد عاد. بل كانت حين تخلو لنفسها تشيح نظرها عن يدها، لا تريد أن ترى الفراغ الذي تركه إصبعها. ثم تخبئ يدها خلف ظهرها.

بعد زمن تعودت على الأمر، رغم أن إصبعها الذي تركها وذهب بعيداً ظل دائم الحضور في وعيها. ولمفارقة أخرى في حياة مليئة بالمفارقات، فإن الإصبع المفقود سيصبح مع الوقت أكثر أهمية في حياة «فضة» من الأصابع التسعة الأخرى. يصعب أن نقول إن الأمر مجرد مفارقة، إذ إن الحياة علمت «فضة» كيف تعيد صياغة كل شيء من أجل أن يصبح لصالحها. أو ربما أن القسوة والمرارة التي عاشتهما مبكراً، رغم أن سكان الحارة سيعارضون هذا القول حيث سيقولون إنها طوال حياتها كانت مُرفّهة، علّماها كيف يمكن أن تكتشف النصف المليء من الكأس حتى لو لم يكن هناك قطرة ماء واحد فيه. عموماً فإن الإصبع المبتور صار جزءاً من حكاية «فضة». جزء لا يمكن القفز عنه لاحقاً.

هذا موضوع آخر. ما يهم هنا أنه بمجرد أن انتهت معالجة «فضة»، وانتهت من أخذ كل جرعات العلاج اللازمة بعد ذلك، حتى بدأ جورج في التفكير في السفر لإعادتها ليافا، فوالدها دائم الإلحاح والسؤال. كان شهر أكتوبر في آخره حين اعتقد جورج أن الأمر انتهى وأن عليه أن يجّهز نفسه و«فضة» من أجل العودة إلى يافا. لكن في الحياة يحدث أن يأتي ما لا نعرف ولا نتوقع. بل هذا ما يحدث في الحياة دائماً. في يافا بدأت العائلة الاستعدادات من أجل

استقبال طفلتهم المدللة بعد غياب شهرين. «حياة» لا تنام وهي تفكر في ابنتها العائدة، وفي استجابة الله لابتهالاتها وسماعه لدعائها.

لكن الله لم يستجب، حيث إن «فضة» لن تعود في التاريخ المتوقع. بل إنها لن تعود أبداً إلى يافا. لو قال أحدهم هذا الحديث لـ«حياة» قبل شهرين ربما لم تقبل أن تغادرها ابنتها إلى لندن. ولفضّلت أسوأ ما قد يحمله الغيب، على أن تترك الغيب يفاجئها هكذا. كانت ستقبل أي سيناريو تعرفه على سوئه على أن تسلم بأنها قد تكون عرضة لتقلبات الأحداث ومزاجية الأيام القادمة. في اللحظة التي أيقنت أن ابنتها ستعود بعد أسبوع، كان الطبيب في مستشفى «سينت ثوماس» يقول لجورج عند زيارته للمراجعة إنه يُفضل لو ظلت فضة هنا شهراً آخر حتى يتأكد من أن عملية الاستئصال قد تمت بشكل كامل، وأن الورم لم يكن خلف حدود المنطقة المبتورة. حرّك جورج طاقيته فوق رأسه كأنه يقول إنه لم يفهم. قال الطبيب إن الأمر يحتاج متابعة أكثر من مجرد شهر ونصف أو اثنين، على الأقل هو بحاجة لشهر آخر حتى يستطيع أن يحكم بنجاح العملية. لن يتفهم الطبيب كثيراً واقع وحياة «فضة»، وأنها جاءت من يافا وأن أهلها يُلحون في عودتها، وأن عليها أن تلتحق بالمدرسة. الطبيب يفهم ما يتعلق بعمله. هز جورج رأسه حيث بدأ يفكر في كيفية تمرير الأمر لعوني. في المرة الأولى لم يجده حين هاتفه. في المرة الثانية كان صوت عوني مليئاً بالأسئلة: متى ستصلان؟ متى ستتحرك الباخرة؟

في النهاية كان على الجميع تقبل الواقع الجديد: على «فضة» أن تنتظر شهراً آخر. إنه الشهر الذي يعني العمر كله في نهاية المطاف. لكن أحداً لم يكن يعرف. لو عرف عوني لربما قال إنه

سيتابع بقية العلاج مع طبيب في يافا. ولو عرفت «حياة» لقالت إن قلبها يقول لها إن ابنتها شفيت ولا حاجة للانتظار. لكن أحداً لم يعرف. لقد مضى شهران ولا بأس من شهر آخر إذا كان في ذلك وضع نقطة في آخر سطر حكاية الورم اللعين هذا.

نعم سيتم وضع نقطة في آخر السطر. لكنه سطر في حكاية أخرى.

خلال الشهر كانت «فضة» تواصل حياتها الجديدة في لندن. تكتشف المدينة، تتجول في أماكنها المشهورة كما قد يفعل أي سائح يفد إلى مدينة غريبة. حرص جورج على أن ترى أكبر قدر من لندن. تقوم بتخزين كل شيء في ذاكرتها. تحاول أن تلتقط أكبر قدر ممكن من المعلومات حول الأماكن والتاريخ المرتبط بها. كانت دائماً تفكر في تلك الجلسات التي ستسهر فيها مع أمها وأبيها وإخوتها وتروي لهم كل ما رأته. لكن أكثر شيء كانت تتخيله هو تلك اللقاءات التي ستروي خلالها لفريال، صديقتها محبة السفر، تفاصيل رحلتها المثيرة. ليست شماتة، ولكن تسري في جسدها سعادة عارمة وهي تتخيل تلك اللحظات، وتتخيل فم فريال يفتح على مصراعيه وهي تستمع إلى روايات صديقتها غير مصدقة. وكانت تبتسم وهي تتخيلها -لأنها تعرف فريال جيداً- تقوم بالمشاركة في وصف الأماكن مستندة إلى ما سمعته من عمتها. ليس هذا فحسب، بل إن فريال مع الوقت ستبدأ برواية ما تسمعه بوصفه حدث معها. فهي من زارت تلك الأماكن. على الأقل هذا ما يمكن لمحدثها أن يستخلصه. وهي تنجح في توصيل هذا الإحساس. على أي حال، فإن «فضة» حرصت على أن تلتهم في لندن كل شيء وتعيشه بكل جوارحها: المكان وتفاصيله والتاريخ المرتبط به، والعادات، الأفلام والمسرح

والأغاني، والريف والمصانع، استعداداً للحظة المتعة وهي تروي كل شيء للعائلة ولصديقاتها. بل إنها قالت لنفسها إنها ستذهب لزيارة مريم في عكا مع صديقاتها. ستكون مفاجأة لمريم. ستسعد كثيراً. هكذا ظلت «فضة» محافظة على ما تبقى من عالمها في يافا حتى لو عبر التخيل وعبر رسم اللقاءات الافتراضية. وهي عادة ستظل معها حتى مغادرتها المخيم بعد ذلك خلال العدوان على غزة في شهر يناير من العام 2009.

لم تمض أسابيع على وصولها للندن حتى وقفت مثل مئات الآلاف قرب قصر «باكنغهام» للاحتفال بزواج الأميرة إليزابيث، التي ستصبح بعد ذلك ملكة إنجلترا، على الأمير فيليب في العشرين من نوفمبر 1947. تلك أيام جميلة، عاشتها الفتاة بالكثير من الشغف رغم غلالة الحزن التي يمكن شم رائحتها في كل كلمة قد تنطق بها، أو حركة تبدر عنها. شاهدت بصحبة جورج افتتاح الألعاب الأولمبية في العام 1948، ووقفت مبهورة في مهرجان لندن أمام قبة الاكتشافات في العام 1951 على الضفة الجنوبية للتايمز، والإضاءات والرسومات والألعاب. في زحمة سوق «بورتبيلو» غرب لندن يضيع جسدها الصغير وهي تنظر للمقتنيات القديمة والملابس المزركشة، حيث ستفقد حذاءها. سيظل جورج ليومين يضحك كلما تذكر الحذاء الذي ضاع في السوق. لندن مدينة مزدحمة تستعيد عافيتها بعد الحطام الذي شهدته خلال الحرب العالمية الثانية.

وسيبهر جورج وهي ترقص وتغني له أغاني لندن الشهيرة:

ربما لأنني لندني أحب لندن كثيراً / ربما لأنني من لندن، أفكر بها حيث أذهب.

و في أي وقت تكون فيه في شارع لامبيث / أي مساء، أي نهار / ستجدنا كلنا نسير في شارع لامبيث.

وفيما كانت مدينتها التي خلقت فيها ولأجلها وبنت أحلام طفولتها في أعشاشها، تتدمر، فإن لندن، حيث وطئت قدماها، كان يُعاد بناؤها بسرعة وحيوية.

هكذا كان على الحياة أن تستمر، وكان على الفتاة أن تكتشف الحياة حولها وتعيشها كما يحلو لها. بل إن جورج قال لها ممازحاً إنها صارت تتحدث الإنجليزية بشكل جيد في أقل من ثلاثة أشهر. ضحكت، وقال إن علاماتها في المدرسة في اللغة الإنجليزية ستكون مرتفعة بل أفضل علامات في الفصل. من يعرف ما الذي ينتظر الجميع!

لن تعود للمدرسة. لن تجلس في الفصل. لن تسرد حكايات سفرها على أمها. ولن تنعم بالنظر للانبهار ورفع حواجب العين وهي تسرد غرائب ما رأت. ولن ترى الغيرة في عيني فريال وهي تحدثها عن سفرها وترحالها ولا عن قطار الأنفاق، ولا الباخرة والسمك الذي رأته في جوف البحر يلعب. لن تسعد برؤية صديقتها مريم في عكا حين تزورها وتفاجئها هي وصديقاتها في الفصل. لن تلعب أمام البيت في أماسي الصيف تحت ظل أشجار الرمان والتمر حنة واللوز. ولن تبلبط في ماء البحر. ولن تنعم بموسم روبين آخر بعد الآن، حيث لن تنعم بركوب الأراجيح، ولن تأكل الحلاوة البيضاء الشهية التي يظل طعمها في فمها حتى الموسم القادم. ولن تطير فرحاً وهي تشاهد المصارعة بين الرجال. وستظل ما حييت تشتاق لمشهد سقائف القصب التي يحتمي بها

الناس من الحر، ولترانيم المدائح في الموسم، ولبكائها هي وأخويها حين يدركون أنهم مغادرون الموسم. لن تنتظر أول آب العام القادم حتى تنطلق العائلة لتخيم بجوار النهر منذ بداية الموسم.

كل شيء يتغير. وكل شيء سيسير عكس ما هو مخطط. مثل أن تدور عقارب الساعة بالاتجاه المعاكس، لكنها لا تسير للخلف. بل إنها وبفجاجة منقطعة النظير تدفع بالزمن رغماً عن إرادة من يتعرضون لكل آثار دورانها العكسي. كل شيء لن يعود إلى حاله، على الأقل طوال السنوات التي زادت عن السبعين التي عاشتها «فضة» بعد ذلك. كل شيء سينقلب في اتجاه مختلف. مثل أن تجد نفسك في متاهة، متاهة لا متناهية من التشعبات والطرق والالتواءات. لا إشارات ولا علامات تدل على الطريق، ولا رائحة للبر ولا للبحر في آخر النفق المظلم الذي تسير فيه. أنت وحدك هناك. عليك فقط أن تتعلم كيف تتدبر أمرك في تلك المتاهة، أو أن تتكيف مع فكرة الضياع التي عليك أن تحمد المولى عليها. لا شيء أمامك إلا المزيد منه. حتى كل محاولاتك لفهم ما يحدث ليست إلا رحلة أخرى في ضياع ومتاهة عقلية عقيمة لن تجدي نفعاً، وستعرف كيف يؤلمك أن تكتشف ذلك.

لم يكن هذا قدر «فضة» وحدها. ولا يمكن للقدر أن يكون فردياً بل هو يخص الجماعة، حيث إن الألم في النهاية لا يتحقق هباءً وبلا تفاعل من الآخرين. أنت تحزن لأن شخصاً عزيزاً مات، بالتالي فإن الألم الذي تتألمه هو فعل أكبر من مجرد كونه مشاعرك. وأياً كان الحال فإن «فضة» لم تكن وحيدة في كل هذا الألم، ولم تكن مجرد شخص آخر يتألم. القصة ستكون أكبر من مجرد سرد ذاتي لقصةٍ شخصية ولمصابٍ خاص، إنها حكاية أوسع يدخل فيها المجتمع ويتغير في

أتونها المكان، وتتبدل في رحمها العلاقات والمواقع الاجتماعية، وتتحول الذكريات وتختلف درجات وطبقات الحنين وفق معادلات عصية على الفهم، لكن ما يمكن القول عنها إنها نتيجة طارئة لحدث طارئ. لكنه هذا النوع من الأحداث الذي تظل تذّكر نفسك أنه طارئ حتى يصير تفكيرك فيه هو دليل بقائه إلى حين.

سيكون من المبكر على «فضة» أن تفهم كل ذلك. وهي لن تجد الكثير من الوقت لفهم ما يجري. وإن توفر لها الفهم فإن سنها وخبرتها القليلة في الحياة لن تمنحاها الكثير من الحظ لتحليل ما سيجري. وربما لحسن حظها أنها لن تتمكن من ذلك؛ لكانت عانت أكثر ربما. ستجد نفسها في أتون التحولات التي ستهز حياتها وستقلبها رأساً على عقب وستحرمها من أهلها وأصدقائها، ومن سريرها وخزانتها ومن رائحة شجرة التمرحنة أمام البيت والروزماري في الحديقة الخلفية، ستحرمها من حياتها التي تعرفها. ولكن أيضاً، ستحرم الآخرين منها.

لم يحدث كل شيء فجأة، إذ إن سماء يافا حين سافرت «فضة» وجورج كانت ملبدة بالغيوم، والأحداث خلال العشرين سنة الماضية كانت تحمل كل يوم مواجهة جديدة من مظاهرات وإضرابات واعتصامات، وخطابات وقتلى وجرحى ومعتقلين. كانت تل أبيب منذ عشرينيات وثلاثينات وأربعينات القرن الماضي تكبر على حساب يافا، تتمدد زاحفة نحو جسدها البض. الحي الصغير شمال يافا سيتحول إلى مدينة أخرى ستبتلع يافا بعد ذلك وتقضم أجمل ما فيها ولا تُبقي ولا تذر من مبانيها الجميلة العتيقة عتق البحر ذاته.

تذكر وقفتها على باب البيت. لمست أوراق الأشجار. كأنها تسلم عليها مودعة. الطريق إلى الميناء أيضاً كانت مزدحمة بالمشاهد. بقالة العم درويش ومكتبة القرطاسية التي تشتري منها حاجيات المدرسة، حتى السوق المزدحم دائماً بالناس، والشرطي البريطاني يفتش بعض الشبان. امرأة بثوب مطرز تحمل سلة من القش تضع فيها البيض لتبيعه في السوق. كل شيء في يافا جميل. «حتى ملح يافا حلو» كما يقول زوار يافا من الريف. كل شيء له سره الخاص وفرحته الخاصة إلا دمعات «حياة» وهي تودع ابنتها. لا أحد كان يعرف المستقبل. ولا أحد كان يمكن له أن يزعم أنه يعرف. ولو أن أحدهم زعم ما حدث لسبوه وانهالوا عليه ضرباً. تذكر «فضة» كل ذلك الآن وهي تحضّر نفسها للعودة ليافا. تتخيل المدينة التي لم تعرف سواها. فباستثناء تلك الرحلات المدرسية للقدس وبيت لحم وأخرى للناصرة وحيفا فإنها لا تعرف مكاناً غير يافا. العالم كله كان يعني لها يافا. لم تكن حالمة بالسفر مثل صديقتها فريال، لذا فلا مكان آخر في مخيلتها إلا يافا. ربما كانت تنظر للبحر وتتخيل السفن تمخر عبابه، لكن حتى السفينة لم تحلم بركوبها. وربما لو لم تكن مضطرة لعلاج إصبعها لما كانت قد تركت يافا وجاءت للندن. حتى إنها لم تفكر ماذا ستفعل بعد أن تنتهي من دراستها في المدرسة، أو بالأحرى لم تناقش العائلة الأمر، فعوني أيضاً من هؤلاء الذين يؤمنون بأن المستقبل يأتي وحده، فقط علينا أن نسير معه بهدوء. كل شيء يسير بهدوء رغم القلق الكبير المخبوء خلف الاستقرار المصطنع.

لم تكن تعرف كل هذا وهي تخرج من بيت والدها في يافا وتسير نحو الميناء من أجل العلاج. رحلة وتعود. أيام وتنقضي. كما أن محاسن الرحلة تساعد في تطويق الحنين كلما تمدد في الروح. فمن

أماكن جديدة إلى معالم مختلفة إلى متع لم تعهدها وطعام غريب عليها. كما قالت «حياة»: «اشي بعوض اشي». قالتها وهي غير مقتنعة ولكنها تحب أن تواسي نفسها، وتحب أن تشعر بأن طفلتها مرتاحة حتى لو كانت تلك الراحة هي مصدر قلقها.لن تطول فترة الانتظار، إذ إن الريح العاتية ستحمل كل ما هو مبطون في الغيوم إلى الأرض، وما هو محفوظ في الغيب سيصبح معلوماً عما قليل. وعلى غير ما كان عوني يظن، أو حتى يخاطر بباله، فإن الأمور ستتدهور بطريقة غير مسبوقة قبل موعد عودة ابنته من لندن. هز رأسه وقال لـ«حياة» بعد أن أقنعها بأن الأمر مجرد شهر آخر: «الشهر بخلص، عادي».

كانت كلمة عادي في نهاية الجملة دامغة في عقل «حياة». إنها تُعبّر عن أن الأمر ليس عادياً، ولولا القلق الذي يحس به لما اضطر لوصف الأمر بالعادي. «حياة» كانت تعرف، ويمكن لها لو جئنا بها الآن أن تقول لنا إنها كانت تحس بكل ذلك. لكننا لا نقول عادة ما نحس به، خاصة حين يتعلق الأمر بالمستقبل الغائم الذي ينتظر أحبتنا – من باب «تفاءلوا بالخير تجدوه».

سينقضي الشهر بالطبع، لكن «فضة» لن تعود إلى يافا. يصعب الحكم اليوم بعد مرور عقود طويلة إذا ما كان جبن جورج الزائد هو الذي جعل عدم الرجعة هذه أبدية، أم أن جورج حقاً كان يعامل «فضة» بوصفها ابنته وبالتالي لم يكن ليجازف بالعودة بها ليافا، بعد أن زادت الأوضاع سوءاً في المدينة. كانت الصحف الإنجليزية تحمل كل يوم المزيد من التقارير عن الأوضاع المتدهورة في فلسطين والمناوشات والقتلى. لم تتوقف مثل هذه التقارير عن الظهور في الصحف، لكنها في الأشهر الأخيرة من العام 1947 صارت أكثر شيوعاً. فقد تدهورت الأوضاع إثر صدور قرار

الجمعية العامة في نوفمبر عام 1947 والقاضي بتقسيم فلسطين، والذي كانت نتيجته الأولى تهجير أهل «فضة» من يافا.

تربط جورج علاقة وطيدة بأحد أعضاء البرلمان، مصدرها قرابة من جهة أمه. ذات مساء وفيما كانا يحتسيان الشاي في مقهى في «البيكاديلي»، أفصح جورج عن رغبته المترددة في أخذ الفتاة العربية وإعادتها إلى أهلها في يافا. وليام، البرلماني المخضرم الذي يشغل مقعد دائرته منذ قرابة عقدين ونصف، عدّل نضارته كأنه يفشي سراً، وقال إنه لا يظن أن الوقت ملائم للعودة إلى هناك. كل شيء في جورج كان يطلب المزيد من التفسير حتى كأس الشاي الذي ارتج في يده كان يصرخ طالباً منه الاستطراد. البرلماني طويل القامة، لم يقل الكثير بعد ذلك لكنه نصح جورج بعدم المجازفة والعودة إلى فلسطين. في المرة الثانية ذهب جورج لزيارته في البيت الريفي في مقاطعة «يوركشير الشمالية» الذي ورثه عن والده الذي عمل لورداً ووزيراً في نهايات القرن التاسع عشر. سأل جورج: وماذا أفعل في البنت العربية؟ رفع وليام رأسه وسأل:

وهل سترميها؟

لن أرميها. ولكن أهلها..

ربما أفضل لها ولهم لو بقيت هنا.

وأهلها!!

أنت لا تعرف كيف ستسير الأمور. لا أحد يعرف.

صمت فترة طويلة ثم سأل وهما يتمشيان في الممر الحجري بين صف من أشجار الصنوبر والزان:

أنا لا أفهم شيئاً!!

وأنا أيضاً.

لا أستطيع أن أتخيل أنك لا تفهم ما يجري في «ويسمنستر». أنت هناك منذ ربع قرن. ووالدك قبل ذلك أيضاً. أنت تعرف كل شيء.

أنا لم أقل إنني لا أعرف. ولكن ما اقترحه هو أنه ليس من الحكمة أن تذهب.

والفتاة؟

هل سترسلها وحدها إلى يافا.

لا طبعاً. (صمت. وهو يقلب الفكرة في رأسه) وحدها لا طبعاً.

انتهيا من ممر أشجار الصنوبر والزان. قرب إحدى النوافير الحجرية كانت أوراق أشجار «كستناء الحصان» المتيبسة تطقطق تحت أرجلهما حين وقف وليام وقال:

القضية أكبر من قصة الفتاة العربية التي جئت بها إلى هنا.

لم يعرف جورج ماذا سيفعل، أو كيف سيناقش الأمر مع عوني. ماذا سيقول له؟ في نهاية المطاف «فضة» ابنته وهو يريدها عنده. في الطريق من يوركشير إلى لندن أصابه صداع من كثرة التفكير. حين وصل كانت «فضة» تجلس داخل بيت هدسن (الملجأ الذي كان المواطنون يضعونه في حديقة البيت، وهو مصنوع من الخشب والمعدن للاحتماء من القصف خلال الحرب العالمية الثانية). فتح باب البيت الحديدي. البيت عبارة عن غرفة صغيرة تشبه قن الدجاج. على موازاة الجدارين يمتد كرسيان مصنوعان من الخشب مفروشان بقطع من السجاد. «فضة» تجلس هناك حين تكون وحيدة. وقد

تغفو وتنام ثم تصحو على صوت جورج ينادي عليها. حين فتح الباب كانت تدندن بأغنية عربية لم يفهمها. جلس إلى جوارها. ضمها. أحس أنها تشعر بالغربة مما عقد المهمة القادمة عليه.

مضت الحياة كما يجب لها أن تمضي. وصارت حياتها السابقة في يافا عبارة عن صور تتماوج في الذاكرة. دخلت المدرسة وبسرعة تأقلمت مع زميلاتها الجدد. إلى جانب هؤلاء كوّنت صداقات من دوائر مختلفة بعضها من عائلة جورج وبعضها الآخر من سكان الشارع. قام جورج بتسجيلها في الأوراق الرسمية ابنة له ووهبها اسم كريستينا. مع الوقت تأقلمت مع الاسم الجديد الذي بات اسمها الرسمي. تعرفت على عائلة جورج وصارت تدريجياً جزءاً من العائلة المقيمة في لندن وتلك الممتدة في الريف. أجمل لحظاتها تلك التي تقضيها بين الحقول حيث ترعى أحلامها وتسافر بعيداً إلى مواطن الطفولة.

أخوات جورج لم يقتنعن بعناية أخوهن بالفتاة العربية التي تخيلوها جاءت من خيمة في الصحراء. وكلما اشترت أخواته قطع الكعك المعروفة «كعك يافا» الصغيرة المدورة الشهية، ابتسم جورج وقال: «هي من هناك». أنهت كريستينا دراستها الثانوية. التحقت بكلية الطب في جامعة ليدز في شمال إنكلترا حيث انتقلت للعيش في شقة صغيرة استأجرها لها جورج مع زميلة لها.

وكدأبنا حين نبدأ الأشياء، يبدو كل شيء علينا غريباً، وما إن ننهمك فيه وننشغل بتفاصيله، ونظن أننا انسجمنا مع حياتنا الجديدة حتى يدق الجرس معلناً اقتراب محطة النهاية.

مات جورج فجأة.لم يمرض. لم ينم في المستشفى. لم يشكُ من وجع مفاجئ. لم يفق من النوم. لم يعرف حين غفا في تلك الليلة أنها غفوته الأبدية.

التهمها الحزن. مادت الأرض تحت قدميها. صارت مثل غصنٍ مدلى في الهواء. تتأرجح، لا تعرف مستقراً، إذ إن الحزن والبكاء والسواد رسموا لها طريقاً أكثر ألماً بعد انتهاء مراسم العزاء. أخوات جورج لم يجدن مبرراً لاستمرار وجودها بعد وفاة أخيهم.

نظراتهن، همساتهن، تعليقاتهن، عباراتهن الملغومة، جلساتهن المستمرة، كل ذلك أشعرها بوحدة قاتلة. كانت مثل البعير المفرد متروكة لنهش الشكوك والظنون.

لم تلتحق بالجامعة في السنة التالية حيث إن الأخوات لم يمنحنها المصروف اللازم لذلك، طالبات منها الاستعداد مرة أخرى للعودة إلى أهلها في فلسطين. لم يناقشها أحد في الأمر. قُضي الأمر بالنسبة للعائلة: على الفتاة الفلسطينية أن تعود إلى أهلها. تعرف كريستينا ما حدث ليافا بعد خروجها وكيف تم تهجير أهل المدينة وتدمير جزء كبير منها. وتعرف أن أهلها قد تركوا يافا أيضاً. لكنها لا تعرف عنهم شيئاً إلا أنهم يعيشون في مخيم للاجئين قرب غزة.

لم يكن لها خيار في أي شيء. لم يكن لها خيار في ترك يافا. ولم يكن لها خيار في البقاء في لندن. ولم يكن لها خيار في أن تصبح كريستينا بدلاً من «فضة». ولم يكن لها خيار في الرحيل الآن والبحث عن عائلتها.

غيوم الدموع تتلاطم في مقلتيها. رجفة الجسد، اللسان الثقيل، والكلام المتقطع، نظراتها الساهمة وهي تعيد ترتيب ملابسها وبعض أوراقها في الحقيبتين اللتين ستصبحان رفيقتا رحلتها الجديدة.

الحياة التي كانت

في المخيم لا يمكن أن تكون غريباً، فالكل غرباء. الناس عادة ما ينسون بسرعة مذهلة القصص الكثيرة التي تقف خلف انتقالهم المفاجئ من حارة لأخرى أو من مخيم لآخر، فثمة قصة كبرى هي التي تحتل المكان الأوسع في ذاكرتهم. قصة خروجهم الكبير عنوة من بيوتهم وتحولهم إلى لاجئين.

وعليه سرعان ما توارت الشكوك حول أصل الفتاة الأجنبية التي وصلت المخيم فجأة، وغادرت بعيداً في دهاليز الواقع المرير. ومع الزمن يصبح الشك يقيناً، وما كان مشكوكاً فيه مصدراً للثقة، وتتحول الوحشة إلى ألفة. إنها الألفة التي تمتعت بها كريستينا في حارة شعرت فيها دائماً أنها حقاً ولدت بينهم. ولولا أنها فعلاً تعرف أنها ولدت في يافا وترعرعت في لندن، لكانت ظنت أن سير الأحداث لم يكن بالطريقة التي تتلاءم مع الواقع الحقيقي.

غمرها الناس بالحب، وأفاضوا عليها بالقصص حول طفولتها في شوارع يافا التي باتوا، بعد أن دفنوا شكهم في مقبرة الماضي، يتذكرونها -أي طفولتها- بالكثير من التفاصيل. أما القصص حول والدها ووالدتها فكانت فاكهة ليالي السمر، خاصة في السنوات الأولى لوجودها بينهم. وهي قصص كانت تدغدغ داخلها إحساساً

غريباً يحملها للحظات متخيلة نفسها جزءاً منها. هكذا وجدت نفسها في عالمها الجديد مكبلة بهذا الحب، محاطة برتابة أكثر مما تحتمله وهي تخطو مترددة في أزقة الحارة.

النسوة في السوق يرتدين الأثواب المطرزة، يسرن بسرعات متفاوتة. يبدون مثل قطع قماش مزخرفة تتماوج وتتداخل وتتباعد في تناسق وتناغم بصري، تظن معه أنك تنظر إلى لوحة زاهية الألوان. لكل قرية فلسطينية ثوبها الخاص بحيث يمكن الاستدلال على هوية المرأة من الثوب الذي تلبسه. وفيما لم تكن الفروق بين هذه الأثواب كبيرة بشكل واضح، فإنها لافتة بشكل يكفي لتعرف أنها مختلفة.

وحدها كريستينا كانت تسير في شوارع المخيم لابسة البنطال والسترة رامية شعرها خلف كتفها. في تلك السنين الخوالي من خمسينات وستينات القرن العشرين، حين كانت صبية ناهدة، كانت غالبية نسوة المخيم يلبسن الثوب الفلاحي أو البدوي، أما النسوة اللاجئات من مدينة يافا مثلها فكن يلبسن الثوب الأسود القصير قليلاً ويغطين وجوههن بالبرقع الأسود الشفاف المُثقب. ربما وحدها كريستينا كانت ترتدي البنطال والسترة. وربما كانت أول من سن هذه السُنّة في المخيم.

رغم ذلك لم يكن هذا الاختلاف يشكّل أزمة أو يسبب مشكلة لكريستينا، إذ اعتقد الناس أنه من المنطقي لفتاة تربت في لندن أن تلبس هكذا لباس. ثم إن أهل الحارة الذين هاجروا من يافا اعتادوا على هذا التنوع، فيافا مدينتهم كانت تعج بالكثير من الأجانب من جنسيات مختلفة، كما إن المدّنية فيها كانت قد قطعت شوطاً كبيراً مع وجود السينما والمسرح والنوادي الثقافية وشواطئ

السباحة والاحتكاك مع العالم الخارجي. وعليه فقد وجدت كريستينا نفسها في حاضنة اجتماعية سريعة التقبل.

غزة في ذلك الزمن في نهاية الخمسينات وبداية الستينات أيضاً كانت مدينة ناهضة. المدينة الواقعة على ذيل الساحل الفلسطيني، والتي رغم مشاركتها دائماً في الأحداث السياسية الكبرى من إضراب العام 1936 الشهير إلى المؤتمرات الوطنية ومقاومة الاحتلال البريطاني، إلا أنها لم تكن يوماً مركزاً مثل يافا والقدس حيث كانت تصاغ الوطنية الفلسطينية منذ نهايات القرن التاسع عشر. مع انتقال آلاف اللاجئين لغزة، التي سيصبح تعداد اللاجئين فيها أكثر من تعداد سكانها الأصليين، أصبحت مركزاً لصناعة الأحداث السياسية بسبب ذلك. إلى جانب كل هذا فقد تطورت المدينة وازدهرت بشكل لافت بعد ذلك من جهة توسعها العمراني والحضري، وخطوها بثقة باتجاه المدّنية والانفتاح.

جمعت غزة بين كل المتناقضات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية. لكنه الجمع الذي يجعل الأشياء طبيعية ويمكن فهمها. وعليه لم يكن لبس كريستينا غريباً بالشكل الذي قد يقترحه التمييز بين لبسها ولباس النسوة في المخيم. إذ مع الوقت بدأت بعض الفتيات لبس التنورة خاصة الصبايا منهن والبلوزة أو القميص. وكان من الطبيعي أن ترى أن التنورة قد تكون قصيرة إلى الركبة أو فوقها بقليل. كما أن بعض الفتيات بتن لا يتحرجن من ترك شعورهن على أكتافهن دون أن يغطين رؤوسهن.

لم تجد كريستينا صعوبة في أن تكون جزءاً من حياة المخيم، وفي تكوين بعض الصداقات وتبادل الزيارات، إلا أن الحدث الأهم سيقع بعد مرور عامين على وصولها للحارة.

إنه الحب!!

بان الحب عليها مثلما يبين الحمل على الفتاة البكر. كل شيء كان يقول إنها عاشقة: نظرات عينيها، بريق شفتيها، الوسن على قباب خدودها، مشيتها الجذلة، تلك النكهة الخاصة التي يمكن لمن تلّمس السعادة فجأة أن يكتشفها في كل عبارة ينطق بها، تتسلل مثل غيمة في أفقٍ أزرق مشمسٍ، لكنها تجد طريقها بسهولة.

كان هذا أحد مساءات تموز الملتهبة من عام 1960. كانت كريستينا قد احتفلت قبل أيام بعيد ميلادها الرابع والعشرين وكان على قلبها أن يحتفل هذا المساء بالحب. كان الاحتفال مهيباً يليق بعشرة العمر وبالسعادة التي ستقضيها بعد ذلك مع يوسف الذي يكبرها بقرابة نصف عمرها. جلست تحت شجرة الكينيا الهرمة قرب سور مدرسة وكالة الغوث، وأخذت تقص على أغصان الأشجار أحلامها المستقبلية، مثلما تفعل كل مساء قبل أن تأوي إلى الفراش. تجلس القرفصاء تحت الشجرة فيما الظلام يسدل ستائره بخفة على نواحي المدرسة، وتبدأ سهرة لا تطول، لكنها تكفي كي تشعر كريستينا بخفة الأسرار حين نطلقها في الهواء مثل طائرات ورقية لا تعود.

في ذلك المساء أطلقت أحلامها لتخفق بأجنحتها فوق أوراق أشجار الكينيا، فراشات لا تمل التحليق. ستتزوج من يوسف الذي شُغفت بقصص أهل المخيم عن بطولاته في يافا حين التحق بالثوار وهو فتى صغير خلال ثورة 1936، وظل لسنوات مطارداً بين البيارات وفي القرى المجاورة ليافا. وهي بطولات ستكون وراء شغف كل بنات المخيم به. شغف سيحملنه معهن خلال مسيرة الهجرة القاسية من شاطئ يافا إلى تلال الرمل على شاطئ غزة.

إنها بطولة متوارثة، فجد يوسف الكبير كان من رجالات يافا الذين تصدوا لنابليون ونجا من المذبحة التي ارتكبها الجنرال الفرنسي في يافا في 6 مارس عام 1799 وقتل فيها آلاف المواطنين والجنود. المذبحة التي كانت سبباً في صمود عكا وبقية مدن الشام.

وسيتغذى الشغف بقصص جديدة عن قيادة يوسف، بعد النكبة، لمجموعات الفدائيين المتسللة إلى الأرض المحتلة من أجل إيقاع خسائر في العدو. وستظهر قصص كثيرة تحكي عن مغامرات لا تليق إلا ببطل يحمل الناس حكاياته معهم سواء في جلساتهم المسائية، أو وهم يتحلقون حول كانون النار، أو يسردونها على أطفالهم قبل النوم.

فغرت كريستينا فاها وهي تسمع قصة تسلل يوسف عبر السلك الشائك بعد أن قتل خمسة جنود وسار على طول الشاطئ حتى وصل بيتهم في يافا. كانت عائلة يهودية قد جاءت من بولندا قد سكنت هناك. حين وصل للبيت لم تكن العائلة البولندية موجودة فيه. كانوا قد خرجوا لبعض الوقت. الأثاث ذاته. حتى السرير الخشبي الأسود ذاته وعلاّقة الملابس قرب الباب. المرآة في صدر الصالون كانت لم تزل تعكس صورته هو وإخوته وهم يغادرون البيت، خطوات أمه على بلاط البيت وإيقاع دندناتها بأغاني الأستاذ عبد الوهاب، وصوت البحر يتسلل، يوشوش ستائر المنزل سكرية اللون. كل شيء في البيت يقترح أن ساكنيه الذين تركوه عام 1948 ذهبوا في رحلة وسيعودون.

بكى مثل طفل وجد لعبته المفضلة. تساقط الدمع مثل حبات البرد على شاربه الكث. لم ير صورته في المرآة حين أخذ يحدّق فيها وهو يمسح الدمع عن جبينه وشاربه.

غفا على كرسي الخيزران الذي كان مجلس والده المفضل. لا يعرف كم مر من الوقت، لكنه بلا شك أكثر من نهار، وهو ينام مثلما يتذكر كيف كان ينام في تلك النهارات التي يغفو فيها تاركاً لنسيم البحر أن يحمل معه خفة النوم. فجأة سمع صوت العائلة البولندية تعود. هرول إلى السطح. يحفظ كل زوايا البيت وتفاصيله عن ظهر قلب. الغرفة الصغيرة حيث كان يلهو مع إخوته فوق السطح صارت مخزناً تتكدس فيه بقايا أدوات المنزل والأثاث (أثاث عائلته) الذي زاد عن حاجة العائلة البولندية. جلس في الغرفة الصغيرة يتربص فرصة للخروج. فرصة لم تتح له إلا بعد ثلاثة أيام أمضاها بلا طعام حيث كان يتسلل إلى خزان الماء قرب الغرفة فوق السطح ويروي ظمأه.

قالوا: سرقت البنت الإنجليزية قلب الرجل. شغفته حباً. أكلت عقله. في ذلك اليوم كانت تفرد شعرها الكستنائي المموج على ظهرها، طويلاً حتى أسفل فخذيها. الشمس تتسلل من خلف أشجار الكينيا حين مر يوسف يلبس قميصاً أبيض مطبوعاً عليه بالأحمر القاني «فلسطين حرة».. وقف يتأمل العيون العسلية والشعر المسافر في غابة من الكستناء والنهد الواقف مثل فاكهة على جذع الصدر. يمكن له أن يقول إنها كانت الغواية ذاتها. هرولت صوب البيت مسربلة بالخجل. وقبل أن تكمل خطوتها الأخيرة أحست بوقع السهام التي أطلقتها عيناه نحوها. كادت تقع على الأرض. تلعثمت في خطوتها الأخيرة. أسندت جذعها على الباب مسترقة النظر إلى الدرب الصغير الذي قطعته. حينها كان يقف قبالتها بجرأة لم تعهدها:

كيفيك يا كريستينا

ردت بإنجليزية مشبعة بالتردد والقلق: «وااااااااو».

رجفة الشفاه فضحت القلب. يمكن لمن مر في دروب المخيم في ذلك المساء أن يسمع هرولة الحب في قلبيهما مثل ضربات راقص الدبكة على دكة خشبية، أو مثل مضخات ماء تنتشل الحب من جوف القلب. ثم طفح الحب فملأ النواحي. ولم يمض وقت حتى تزوجا وانتقلت كريستينا للعيش معه في الغرفة اليتيمة التي يعيش فيها في طرف الحارة.

البنت الإنجليزية سرقت يوسف.

ساحرة.. مشعوذة.

جميلة وحلوة...

وهو حلو كمان..

وعادت القصص مرة أخرى تدور حول أصلها وفصلها. وعاد المشككون يروون الحكايات التي تنسف الحقيقة التي باتوا يسلمون بها، وهي أنها ابنة عوني السعيد. وفي خضم كل هذا يتم استعادة الدلائل والشواهد التي تنسف استقرار الحاضر وتعود به إلى تموجات الماضي المقلقة. لكن أحداً لم ينف حقيقة أن لعوني ابنة بكراً، رغم أن أحداً لم يسمع من عوني شيئاً عن ابنته بعد أن أرسلها مع صديقه البريطاني جورج للعلاج في لندن.

عادت القصص تُروى حول مصير عوني السعيد وعائلته. ففي البداية رفض عوني الخروج من يافا. يذكر أهل الحارة أنهم اضطروا تحت القصف وقذائف المورتر والقنابل الموقوتة أن يتركوا بيوتهم بحثاً عن الأمان. عوني رفض وقال إنه سيظل في البيت. بعد

أيام داهمت الحارة في يافا عصابة مسلحين، وعاثت قتلاً وذبحاً في كل شيء متحرك في البيوت، ثم نهبوا ما فيها من حلى ومجوهرات وأشياء ثمينة. داهمت العصابة البيت وهي تطلق النار وترمي بقنبلة من جهة الباب الخارجي نحو الصالون، اضطر عوني أن يخرج من باب الحديقة يحمل أطفاله ويجر أحلامه بعودة ابنته والتئام شمل العائلة. رأى الدمعات جمرات في عيني «حياة». لم يقاوم الدمعة وهي تكوي خده. سارت العائلة ثلاثة أيام تنتقل من قرية إلى أخرى. لا يعرف أحد تحديداً تفاصيل أدويسة الخروج تلك، لكن المؤكد أن سكان قرية في الطريق بين يافا وغزة تسمي «برقة» نقلوا أن عائلة أفندي من يافا وصلت إلى القرية ونامت ليلة وسط القصف ثم اضطرت أن ترحل مع أهل القرية. الرجل كان منهكاً وهو يجر عائلته، لذا كان في ذيل القافلة دائم الالتفات للخلف، كأن لديه رغبة في أن يعود. وفعلاً لم يمض الركب كيلومتراً واحداً حتى استدار عائداً، حينها قضت قذيفة مورتر على العائلة.

هكذا تم حسم الأمر فعائلة عوني السعيد قتلت جميعها قرب «برقة». وحين يستعيد المشككون روايات الشك، يضيفون أن عوني السعيد انتظر في يافا من أجل أن يستلم ابنته من صديقه الإنجليزي الذي أحضرها له، وبعد ذلك ترك يافا نحو غزة حيث ستقتل القذيفة كل العائلة. وفق هذه الرواية فإن ابنته «فضة» قد قتلت أيضاً.

في بداية وصولها لغزة عملت كريستينا ممرضة في عيادة وكالة الغوث في المخيم بفضل سنتها الأولى التي درستها في كلية الطب في الجامعة في ليدز. «كريستينا الحكيمة»، كما بات يشار لها، حيث يطلق على الطبيب «الحكيم» وعلى الطبيبة «الحكيمة»، صارت أشهر العاملين في العيادة الواقعة في قلب المخيم. يوسف طلب منها أن

تتوقف عن العمل في العيادة. «بتغار عليّ؟». هز رأسه وهو يطبع قبلة على شفتيها. لكنه لم يرغمها على ذلك.

تأخرت كريستينا في الإنجاب، مما أشعل الهمس واللمز على «البنت الإنجليزية» التي سيحرمها الله من الخلفة كما قال البعض. يوسف لم يهتم كثيراً للأمر. قال لها إن الله لن ينساهما، سيرزقهما طفلاً في آخر المطاف. كريستينا لم تترك طبيباً إلا زارته. كل مرة كانت تعود بباقة من الأمل والأمنيات مرويّة جيداً بكلام الطبيب الذي سيقول إنه لا يوجد شيء بيولوجي يمنع الحمل. الأمر مجرد وقت وستحمل.

صفية أخذتها على كل عطاري غزة ليصفوا لها خلطات عجيبة من الأعشاب والسوائل. حتى وصلت مرحلة اليأس، وسلّمت بالأمر بأن القدر لن يهبها طفلاً تعتني به. تبكي في كل يوم قبل أن تنام، وهي تتذكر أن لا طفل تحكي له القصص والمغامرات والعجائب وهي تهدهده حتى يغفو.

ثمة أقدار يجب أن نُسلم بها. أن نعترف أننا لا نملك حيلة ولا وسيلة من أجل تغييرها. علينا أن نتجرع العلقم الذي يتركه هذا التسليم في حلوقنا، والألم الذي يواصل الفوران والغليان في مرجل الروح، لا يهدأ. العجز الذي ستشعر به كريستينا طويلاً في حياتها وهي تتأمل مسيرة العمر التي باتت أكبر من مقدرتها على هضم أحداثها.

طبعاً نحن بحاجة لمليون صدفة أو مصادفة من أجل أن نتوقع أن هذا سيحدث. لكنه حدث فعلاً. فقد قابلت كريستينا صديقة طفولتها سلطانة. نعم تم ذلك ودون تخطيط أو حتى سؤال. فور استقرارها في المخيم أدركت كريستينا أنه سيكون من الصعب

العثور على صديقات طفولتها. فاللجوء مزق الناس ووزعهم في الفيافي والمنافي. العم منصور لا يعرف أصلاً صديقتيها سلطانة وفريال. أما مريم فتعرف كريستينا أنها ذهبت لعكا بعد وفاة والدها. لكن العم منصور قال إن بعض العائلات المسيحية من يافا هاجرت إلى غزة. بل إن ثمة منطقة صغيرة بجوار مخيم الشاطئ على طريق مستشفى الشفاء يسكنون فيها، تم بناؤها عام 1957 عرفت باسم «حارة المسيحيين» أو «كامب المسيحيين».

ستمر سنون قبل أن تحدث المفاجأة. في ذلك المساء سيحقق يوسف وعده لكريستينا بأن يذهبا للسينما. كان ذلك عام 1962. حضرا فيلم عبد الحليم حافظ الجديد «الخطايا». كريستينا مغرمة بعبد الحليم وأغانيه. كان مساء جميلاً كما تذكر حيث وصلا سينما «السامر» مبكراً قبل موعد عرض الفيلم بساعة. سارا سوية في شارع عمر المختار ثم هبطا الشارع من جهة الساحة باتجاه سوق فراس. اشترى لها قرطاساً من البوظة بطعم الفواكه. وصلا باب السينما. اشترى تذكرتين. وقفا لبضع دقائق أمام باب السينما ثم دخلا، حيث لن يترك يدها طوال عرض الفيلم. وكل مرة يمسك يدها تحس ذات الإحساس الذي أحسته يوم لمسها أول مرة وهما في السيارة حين ذهبا إلى سوق الذهب في منطقة الخان في مدينة غزة لشراء الدبل (خاتمي الزواج). لم تعرف كيف التقط يدها، سرقها، سطا عليها، المهم أن يده كمشت يدها، ضغط عليها، ارتجفت، أحست قلبها يهرول في الشارع فرحاً، لم تصدق. نظرت إلى عينيه، أشاح بوجهه. بدا عليه الخجل. خجل من يكتشف الخطيئة. ستظل ما حييت تتذكر هذا الإحساس. في السينما حين أمسك بيدها شعرت الإحساس ذاته. سرت قشعريرة داخلها. نظرت إلى عينيه.

كانت القاعة معتمة إلا من الضوء المنبعث من ماكينة العرض خلفهما. كأنها أرادت أن تقبّله. ضغطت على يده.

انتهى الفيلم. على باب السينما مازالت يداهما متشابكتين. وقفا على الباب، اقترح يوسف أن يحضر شيئاً بارداً يشربانه. ركض باتجاه الجانب الآخر للشارع. أسندت كريستينا جذعها على جدار رخامي بجوار السينما. الشمس اختفت جهة البحر. آخر أنفاس النهار تحمل القليل من الضوء. إنارة السينما ومحلات الشارع. ظِل شخص يتقدم نحو كريستينا. تقف سيدة أمامها. تبحلق فيها. انتبهت كريستينا إلى السيدة طويلة القامة بفستانها الأزرق السماوي وحقيبة يدها زهرية اللون.

من يصدق؟!

هذه سلطانة. لم تمض ثوانٍ حتى كانتا تتعانقان وتذرفان الدموع، ثم تنظران في عيني بعضيهما وتعاودان العناق. هناك شيء في العين هو سر شخصيتنا. لا يمكن لمن يعرفنا جيداً أن يخطئه. يعرفنا أصدقاؤنا ومحبونا منه. سلطانة لم تصدق عينيها. لمحت وجه كريستينا أول مرة خلال دخولها مع زوجها للسينما. نفضت الفكرة من رأسها. فلا يمكن أن تكون هذه فضة صديقتها في يافا. فآخر ما تعرفه عن فضة أنها ذهبت لبريطانيا مع صديق والدها. تذكر حفلة وداعها الأخير. تذكر كلماتها الأخيرة. وتعرف أن فضة في لندن. رفعت شعرها خلف كتفها كأنها تريد لفراشات الفكرة أن تطير عنه. لا يمكن أن تكون هذه فضة. حسبت سلطانة السنين في عقلها من العام 1947 حين غادرت فضة يافا إلى لندن إلى العام 1962. خمسة عشر عاماً انقضت الآن. رُحّلت هي وعائلتها عن يافا

وسكنت في غزة وتزوجت من شخص تعرفت عليه في صلوات الأحد في كنيسة دير اللاتين.

ستلتقيان بعد ذلك في بيت سلطانة حيث ستتبادلان قصص الحياة خلال تلك السنوات العجاف التي مرتا بها. لا يمكن أن نصدق دائماً أن الحياة تخبئ لنا مواعيد لا تخطر على بالنا. ففضة أو كريستينا كما تيقنت سلطانة حتى هذا المساء الذي التقتها فيه، لابد أن تكون قد ماتت أو صارت فتاة إنجليزية، خاصة بعد أن عرفت من والدها أن عائلة فضة قُتلت خلال التهجير بعد أن قابل منصور في إحدى المظاهرات المناوئة للتوطين. وقتها كان الشبان يحملون معين بسيسو الشاعر المعروف بعد ذلك وهو يهتف ضد مشاريع التوطين ويرددون خلفه. سيجلسان في مقهى «أبو كمال» في ميدان فلسطين أو «المقهى المعلق» لأنه كان يبين من الخارج معلقاً في الهواء بسبب أطرافه الخارجة على طول أطراف البناية حتى تظن أنه معلق في الهواء. اللقاء الذي نسي العم منصور أن يخبر كريستينا عنه حيث أنه لم يكن يعرف أن صديقه «ديب» هو والد سلطانة صديقة كريستينا.

اللقاءات المريرة التي تفتح الجرح تذّكرنا أن لا شيء يندمل في الحياة، وأن الجراح تظل حتى لو ظننا أنها شفيت. الحديث المر والتنهدات التي تشلع القلب وتقّطع الصوت وتهز الجسد. ثم ماذا بعد ذلك؟ المزيد من الذاكرة والمزيد من الملح على الجرح، ثم نغفو في دياجي النسيان نظن أننا نمسك به. وأمام أي مواجهة مع الذاكرة تنهار كل قلاعنا ودفاعاتنا، ونكتشف أن الحياة لا تمضي إلى الأمام رغم كل ما يعتريها من تغيرات وتبدلات.

غادرت سلطانة يافا إلى غزة مع عائلتها. في البداية مثل الكثير من العائلات المسيحية، التجأت عائلة سلطانة إلى كنيسة دير اللاتين

في حي الزيتون في مدينة غزة، حيث أعطتهم الكنيسة غرفة صغيرة لتعيش فيها العائلة. بعد بضعة أشهر تمكن والدها من استئجار بيت في الحارة قرب باب الدارون. ثم بعد فترة، وبعد إقامة مخيم المسيحيين، انتقلت العائلة لتعيش هناك في بيت لا تزيد مساحته عن تسعين متراً. وضعت كأس الشاي بتوتر على الطاولة وهي تقول من بيت مساحته 400 متراً إلى تسعين متراً. أنهت دراستها الثانوية والتحقت بمكتب إداري تابع لوكالة الغوث. تقدم لخطبتها ثلاثة شبان واحد منهم قريب أمها. والدها عض على شفتيه وهو يقول إنه يريد أن يتزوج أبناؤه في يافا. قال لزوجته: «بنستنالنا كمان كم سنة». ولكن السنوات مرت، وكان لزاماً على قلب سلطانة أن يخفق.

في صباح يوم الأحد كانت الشمس خفيفة تتلصص على زقاق الكنيسة من بين البنايات، وقفت أمام العذراء مبتهلة.

أيتها البتول يا فائقة القداسة، اذكرينا في حزننا. لقد ضعنا يا أماه. اشتقت أن أصلي لك في كنيسة القديس بطرس. أعرف أنك في كل مكان. لكني اشتقت أن أجثو تحتك هناك حيث اسمع همس البحر وهو يحمل بطرس لينشر نورك.

خرجت من القدّاس والدمعة مازالت عالقة على أهدابها. اقترب منها شاب يعرض عليها منديلاً لتمسح دموعها. انبهر الشاب بتلك الفتاة التي تبكي وهي تتضرع لمريم العذراء. لن يمضي وقت طويل قبل أن تصبح لقاءات ما بعد القدّاس مواعيد غرام مقصودة ومرتبة ستنتهي بزواج سلطانة من أنطون الذي لجأ مع عائلته من مدينة الرملة.

والدها «ديب» يبكي وهو يرى أن عمره انقضى ولم يتمكن من الوفاء بنذره أن يقوم بتقديم ثلاث تنكات زيت زيتون للكنيسة

شكراً للرب على نعمه بعد أن يزوج أول أطفاله. يومها في قدّاس الأحد في يافا، حين كان عمره لم يتجاوز السنوات العشر، جعلته أمه يقدم النذر. لا يعرف لماذا لم يكن وقت تقديم الزيت حين يتزوج هو، أو حين يُرزق بطفل مثلاً. أصرت والدته -التي ترقد الآن في ملكوت يسوع في يافا- أن يكون يوم يقوم بتزويج أول أطفاله. يوم تزوجت سلطانة اعتصر ألماً. بكى وهو ينظر إلى العذراء وإلى يسوع. قال: «أبتاه أعرف أن لا آلام مثل آلامك. أعرف أن عذابك يفيض عن الكون، لكن هل تحس بي؟».

في تلك الليلة وفيها كانت أمه نائمة، رأت بطرس يتمشى قرب الكنيسة مع سمعان الدبّاغ. ورأت ملاك الرب يظهر لهما. لكنها رأت أيضاً ابنها ديب يلهو بجوار بطرس الذي مسح على رأسه بيده بعد أن غمسها ثلاث مرات في إناء من الزيت. «القديس بطرس يريد منك زيتاً». لم يفهم الولد، لكنها استطاعت أن تحول حلمها إلى رؤية ومن ثم إلى نذر. تقام كنيسة القديس بطرس على شاطئ البحر وتسمى كنيسة القلعة أيضاً. بنيت في المكان الذي وقف فيه بطرس على شاطئ بحر يافا حيث مكث ثلاثة أيام عند سمعان الدبّاغ، وحيث ظهر له ملاك الرب ثلاث مرات وأخبره بلقائه لقائد المائة كورنيليوس من قيساريا. إنها الكنيسة الوحيدة التي يقف برجها مواجهاً الغرب حيث ستسافر أحلام بطرس ليقيم الدين في روما.

عموماً ستفي العائلة بالنذر ولكن سيكون ديب قد رحل ولحق بأمه، وسيكون هذا بعد العام 1967 حيث ستحمل سلطانة ثلاث تنكات زيت زيتون وتتجه بهم إلى يافا مع زوجها حيث سيغمى عليها وهي تقف أمام العذراء معاتبة على هذا الفراق القسري. نظرت في عيني العذراء اللامعة في أفق الإيمان، وقالت لها

بهمس: «لو أنك حميتنا». ثم نفضت الخطيئة التي سولت لها بها نفسها، وأخذت تبكي وهي تجثو على الأرض ثم تفقد وعيها. الكاهن في الكنيسة سيغرق بالدموع وهو يطلب منها أن تثق بحب العذراء وبخلاصها القريب. أوقدت الشموع لروح والدها ووالدتها ثم سارت على البحر تضرب موجه بقدميها وهي تنظر إلى برج الكنيسة شاخصاً بحزن. ستكون هذه زيارة سلطانة الأخيرة ليافا.

سألت كريستينا في ذلك اللقاء المشحون بالذكريات عن الصديقات ومعلمات المدرسة والجيران. الإجابات لم تكن تفي بالغرض ولم ترو الظمأ. ثم فجأة سألت دون أن تنظر في عيني سلطانة عن حلمها في الرهبنة، في أن تصبح مثل الراهبة ماري ألفونسين غطاس. كأنها نكأت جرحاً عميقاً. تنهدت سلطانة وهي تذّكر كريستينا بأن الزمن تغير والواقع لم يعد يحتمل. صمتت ثم قالت: «الله يعين سلطانة على حملها». ولم تعرف كريستينا إذا ما كانت تقصد نفسها أم تقصد الراهبة سلطانة. ثم بكتا.

عموماً ستتواصل الزيارات بين صديقتي الماضي في استعادة «متاحة» لجزء مما كانت عليه الأيام الخوالي. وستظل سلطانة من القلائل الذين ينادون كريستينا بـ«فضة» إخلاصاً لتلك الأيام. قالت سلطانة بألم إن اسم كريستينا من مرحلة ما بعد يافا، وهو تذكير بالمأساة التي نتجت عن الخروج من يافا. تقصد لو أن فضة لم تخرج من يافا لما صار اسمها كريستينا. أما اسم «فضة» ففيه الكثير من أيام يافا الحقيقية. ضحكت وقالت: حتى لاحظي حرف «الفاء»... يافا وفضة. لم يكن الأمر مجرد حرف بالطبع بالنسبة لسلطانة، لكنه شيء مرتبط بطقوس الماضي، وبتلك اللحظات التي

عاشتاها سوية في الصف والمدرسة والشارع. أرادت سلطانة أن يظل شيء من الماضي الجميل يسيّج آلام الحاضر.

ستواظب كريستينا على الذهاب للكنيسة مع سلطانة خلال صلوات الأعياد، خاصة عيدي الفصح والميلاد. مازالت تلك الزيارة للكنيسة في يافا عالقة في ذهنها. كما أنها ستسر لسلطانة إن جورج كان يأخذها للكنيسة يوم الأحد في لندن. سألت سلطانة: «يعني حولتي». تقصد غيّرت دينها. ضحكت كريستينا وهي تقول لا تعرف. لكن الأمر بالنسبة لها طقوس وعادات. تحب أن تظل وفيّة لتلك الأيام التي تعودت فيها الذهاب للكنيسة. شيء صار جزءاً منها. كما أنها تصلي في البيت كمسلمة. واصلت سلطانة طلاء أظافرها وهي تقول: «مجنونة». بدا الأمر درباً من الجنون في البداية لكنه مع الوقت صار مألوفاً. لم يعرف كثيرون في الحارة عن زيارات كريستينا للكنيسة خلال الأعياد المسيحية، فقط زوجها كان يعرف. العم منصور أيضاً. حتى حمدي عرف متأخراً. وكان تبرير كريستينا إنها تذهب لتهنئة صديقتها سلطانة وعائلتها. في الحارة يعرفون بالطبع سلطانة وبعض الجيران المسيحيين، لذا لم يكن الأمر مستغرباً. بل إن العم منصور ذهب مع كريستينا أكثر من مرة خاصة عند وفاة والد سلطانة صديقه من أيام يافا، وبكى في قدّاس الجنازة.

حتى الكاهن في كنيسة دير اللاتين سيختلط عليه الأمر حيث سيتعامل مع كريستينا بوصفها إحدى أفراد الرعية. وسيسأل بعد فترة لماذا لا يراها يوم الأحد. سترد سلطانة نيابة عنها وتقول: «إنها مشغولة يا أبونا». الإجابة التي لا تكفي لتنهي النقاش حيث سيرد بقليل من الحنق: «لا يمكن أن نكون مشغولين عن من وهبنا الحياة بموته». يمكن بسهولة القول إن كريستينا تندمج بشكل كبير في

القدّاس وفي الصلوات والأناشيد التي تُتلى، ويظهر عليها الخشوع والإيمان بطريقة لافتة. تضحك سلطانة وتقول: «بتنفعي تكوني راهبة». تهز كريستينا كتفها وتقول: «أنا راهبة». ثم تسأل كيف يكون الإنسان راهباً. هل عليه أن يُمثّل على الناس؟ هل يجب أن يقابل ملاك الرب؟ يمكن لنا أن نكون رهباناً دون أن نكون بحاجة لمصادقة الناس وموافقتهم. هل لو ظل بطرس يعيش تحت هاجس ما سيقول الناس استطاع حمل الأمانة؟ في النهاية الدين المعاملة وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت. خلطة عجيبة من اللاهوت المسيحي والأحاديث المحمدية الشريفة والثقافة العربية. لكنها خلطة تخبر بصدق عن شخصية كريستينا التي ستصر على اسمها المسيحي الإنجليزي دون أن تجد في ذلك حرجاً، حتى حين يبدأ الناس بمناداتها بالحاجة، سيظل اسمها الحاجة كريستينا.

كانت تقول إنك لست بحاجة للناس من أجل أن تكون مؤمناً، أنت بحاجة لله لأنه وحده من يقرر الإيمان. البشر يقررون موقفهم منك؛ أما إيمانك فهو ملك لك، ووحده من تؤمن به يقرر إذا كان ذلك الإيمان كافياً أم لا. أما فيما يتعلق بالله فهو بالطبع لا يريد لإيماننا به أن يعذبنا، فالإيمان خلاص من التيه والشك وإبحار باتجاه اليقين واستقرار الروح والعقل. لذا فإنه ليس مُهماً كيف تؤمن طالما كنت مؤمناً حقاً وتحس بإيمانك، تلمسه، تشعر به يجري في عروقك، ترتجف فجأة حين تسرح في قوة الخالق، تشعر بذلك الضعف البشري الذي يجعل الله قوة مطلقة أمام عدم مقدرتك على مجاراة القدر الذي كتبه لك. فليس الإيمان بسوط نتعذب به، بل هو كأس من رحيق الجنة نشربه كلما عطشنا في فيافي الدنيا. من هنا لم يكن ما تقوم به كريستينا من ممارسات دينية غريباً. فهي تصلي

الصلوات الخمسة كما أنها تذهب للكنيسة من أجل أن تبتهل للعذراء أن تحميها من مصائب الدنيا.

بذلك تحافظ على توازنها وعلى تلك العلاقة الرقيقة بين ماضيها المضطرب مشوش الهوية وغير واضح الطرق والمسالك، وبين حاضرها الذي اختارت أن تعيشه حتى لو كُتب عليها في البداية ولم يكن باختيارها. هذا التوازن المطلوب الذي تجد فيه كريستينا درعاً واقياً يحافظ على جعل هذه الحياة المضطربة مستقيمة وسليمة وقادرة على السير على تلك الشعيرة الرفيعة من الحياة. نحن بحاجة لذلك دائماً، لكننا أيضاً بحاجة لأن نفهم ما نقوم به. بالنسبة لكريستينا لم تكن بحاجة للكثير من التفسير والشرح. فقد تشعر بأن الذهاب للكنيسة في الأعياد هو مواصلة لطقس كانت تقوم به لأكثر من عشر سنوات خلال فترة نضوجها وانتقالها من الطفولة إلى الشباب في لندن، كما أنه استذكار لأحبة لها لهم فضل عليها خاصة جورج الذي عاملها على أنها ابنته. إلى جانب ذلك كانت فعلاً تشعر بالواجب الاجتماعي بضرورة مشاركة سلطانة وعائلتها أعيادهم كما كانت تفعل وهي طفلة في يافا.

مع الوقت بات كل رواد الكنيسة يعرفون كريستينا، وبات من المؤكد لديهم أنها من أفراد الرعية لكنها تسكن في المخيم. توسعت دائرة الزيارات والعلاقات الاجتماعية ولم تعد مقصورة على سلطانة إذ صارت تشمل نساء أخريات. وبطريقة أو بأخرى بات لكريستينا عالمان تعيش فيهما بطمأنينة واستقرار. تنتقل من واحد لآخر بسلاسة. كما أنهما لا يتعارضان داخلها، فهي تشعر بالرضا والسعادة في كل عالم. غير أنها فعلاً لم تكن تشعر بأنهما عالمان منفصلان. بل كانت ترى في واقعها مثالياً ومناسباً لشخصيتها

ولماضيها. أهم شيء أن يكون ما نفعله منسجماً مع أرواحنا. كانت تشعر بأن روحها راضية وأنها عبر هذا التوازن الدقيق تحافظ على الهارمونيا والتناغم بين أطراف الماضي المختلفة وبين واقعها وحاجتها لتتواصل مع هذا الماضي. بذلك فمن غير الصحيح القول إنه بات لكريستينا عالمان، وأنها تبرع في التوفيق بينهما. صحيح أن الأمر قد يبدو غريباً للكثيرين، وقد يبدو مستهجناً للبعض، وربما يذهب طرف للقول إنه ضد الدين، لكن سيزول الشك إذا ما تمعنا حقاً في تاريخ كريستينا الشخصي وبخط حياتها وتعرجاته. من الصعب التصديق بأنها بعد كل ذلك استطاعت أن تواصل الحياة. ومن شأن استعادة تفاصيل الحكاية مرة بعد مرة أن يدفعنا للشك بأنها فعلاً نجحت في أن تظل واقفة على رجليها. كيف تتصالح مع كل هذه المتناقضات وتجمع بين كل تلك الأطراف، وتظل على علاقة جيدة مع الجميع؟

الآن عاد للحياة بعض توازنها: فها هي ترتبط بالكثير من تفاصيل الماضي كما أنها تواصل البحث عن المستقبل الملبد بالغيوم الداكنة. قالت لصفية ذات مرة إن سلطانة هي الوحيدة التي تعرّفت على شخصيتها دون أن تتوسل إليها أن تفعل ذلك. كانت تتخيل لو أن العم منصور لم يصدقها أنها ابنة عوني و«حياة»، لكان عليها أن تبحث عن حياتها في مكان آخر. ما أصعب أن تبدأ من تحت الصفر! لكن سلطانة هي من جاءت إليها وقالت إنها فضة. بالنسبة لها فإن سلطانة هي البرهان الأكيد على هذا الماضي. ففيما صحيح أن أهل الحارة هم أهل حارتها الحقيقية، لكنها تعرف كيف شعرت يوم أنكروها ورفضوا الاعتراف بها. كان الأمر بحاجة لبشارة من نوع آخر حتى يستوعبوا أنها ابنتهم. تحقق الأمر مع

الوقت. أما سلطانة فقد تعرفت عليها من بين المئات الذين حضروا إلى السينما في ذلك المساء.

أيضاً كان لكريستينا عادة أخرى تحافظ من خلالها على ارتباطها بماضيها، وتقبض على القليل من التوازن بين عالميها المتناقضين، تمثلت هذه العادة بزيارتها المنتظمة للمقبرة الإنجليزية في غزة حيث يُعتقد أن جثمان إدموند أخي جورج يرقد هناك. الزيارة الموسمية، ولكن المنتظمة، التي كان يقوم بها جورج للمقبرة في غزة خلال إقامته في يافا.

على مدخل المقبرة الإنجليزية قرب شارع صلاح الدين في الجزء الشرقي من مدينة غزة قرب حي الشجاعية، منقوش العبارة التالية: «الأرض المقامة عليها هذه المقبرة قد أوهبها شعب فلسطين كمثوى أبدي لرجال قوات الحلفاء الذين سقطوا قتلى في حرب 1914-1918 والمخلدين في هذا المكان». تسير كريستينا في الشارع الطويل المحفوف من الجانبين بأشجار المورسيان والدرينكس، حيث سيستقبلها حارس المقبرة، كما كل مرة، بابتسامة عريضة وهو يصحبها إلى قبر إدموند. لم يعد الحارس يغير موضع القبر. ظل الشاهد الذي جلبته كريستينا في أول مرة زارت فيها المقبرة بعد عودتها لغزة في مكانه. كان على الحارس أن يصدقها حين قالت له إن إدموند هو عمها. أخرجت له جواز سفرها الإنجليزي. ورثت كريستينا من جورج عادته في زيارة المقبرة في عيدي الميلاد والفصح. تضع وردة تقطفها من حديقة بيتها على الضريح. سيظل كل من يقوم على رعاية المقبرة يتوارث أيضاً الحب والترحاب الذي يتم مقابلة كريستينا به خلال زياراتها للمقبرة. المقبرة مع الوقت باتت

متنزهاً يقصده الناس للاستمتاع بالطبيعة الخضراء والزهور الملونة، فيما يرقد الأموات بهدوء رغم الصخب والعنف الذي يدور حولهم.

سلطانة قالت لكريستينا معاتبة إن هؤلاء قُتلوا وهم يحتلون بلادنا. «ماتوا عشان يوخذوها منا ويعطوها لليهود... الرب مش راح يسامحهم».

لم تعرف كريستينا كيف تجيب. قالت إن جورج سيكون سعيداً بما تقوم به.

بعدين هادول أموات يا سلطانة.

أموات سرقوا بلادنا.

سكتت كريستينا، لكنها تعرف أنها كل عام ستخوض نفس النقاش مع سلطانة، وتعرف أن لا أحد يستوعب ما تقوم به. حتى حارس المقبرة الذي يتلقى راتباً من الحكومة البريطانية، كان في مرات كثيرة ينظر إليها، رغم الابتسامة التي يطبعها على شفتيه، ويهز رأسه غير مصدق كيف يقوم شخص من غزة بزيارة قبور هؤلاء الجنود. لكن علينا أن نسلم أن هذا هو عالم كريستينا الخاص الذي يجعلها تذهب للكنيسة في الأعياد، وهو نفس العالم الذي يُطلق عليها لقب «حجة»، رغم أنها لم تصل مكة مطلقاً في حياتها، ويجعل منها امرأة مبروكة تشفي السقيم، وتطرد العلل من الجسم، وتداوي بآيات القرآن وغير ذلك. إنه العالم الذي يكون فيها زوجها أحد أهم أبطال المقاومة، فيما تواظب هي على زيارة قبر أحد الجنود البريطانيين الذين قتلوا وهو يحاولون احتلال غزة. الراحة التي تجدها كريستينا رغم كل شيء في الحفاظ على توازن هذا العالم.

عموماً، كأن القدر حين يقرر أن يفتح قِرب السعادة لتندفع منها الرياح العاتية تغمرنا بالأخبار السارة، يفعل ذلك مرة واحدة وبلا مقدمات. صفية صاحبة مقولة الأخبار الجيدة تأتي بدون مقدمات،لا تطرق الباب، لا تشاكس ستائر النافذة، نجدها تقف أمامنا، تحضننا، تغمرنا بهالة من الفرحة، نعتقد في كل مرة أنها الفرحة الأجمل في حياتنا.

الألم الذي أحست به كريستينا في ليلة ماطرة من شهر مارس حملها على أن تهرع لبيت صفية تطلب منها أن تأتي معها إلى عيادة الوكالة في المخيم. في الطريق قالت إنها لا تقوى على السير من شدة المغص. ضحكت صفية وقالت لابد أنك حامل. مطت كريستينا ابتسامة باهتة على وجهها وهي ترفع راية أخرى من رايات الاستسلام لتقول: «فات القطار». وكان قد مضى على زواج كريستينا أربع سنوات، ولم تعد تحسب مواقيت دورتها الشهرية ولا أيام الإخصاب ولا شيء. سلّمت بالأمر. هزت صفية رأسها وهي تقول: «الله كبير».

صفية لم تعرف أن تعليقها العابر هذا سيكون حقيقة حين تبتسم الطبيبة بعد أن انتهت من جميع الفحوصات اللازمة، وتقول لكريستينا إنها حامل. ظنت نفسها تحلم. لم تسمع جيداً. شعرت بدوار غريب في رأسها. عادت إلى الاضطجاع على سرير العيادة. أغمضت عينيها وغفت قليلاً. ظنت صفية أن صديقتها أصابتها صدمة ما. الطبيبة قالت: «من الفرحة». اقتربت صفية منها وأخذت تمسح على جبينها وتوقظها. أفاقت كريستينا. نظرت في عيني صفية وقالت إنها حلمت أن الطبيبة قالت لها إنها حامل، وشحب وجهها وهي تختم عبارتها بالقول: «يا ريت يا صفية».

ستكتشف أن الأمر ليس حلماً، فهاهي الطبيبة تقف قرب السرير، وها هي الممرضة أيضاً مشغولة ببعض الأوراق، كما أنها الآن تتمدد على سرير العيادة. نظرت في عيني صفية التي بادرت إلى هز رأسها والدمعة تقفز من عينيها قبل أن تنحني لتضم كريستينا التي أجهشت بالبكاء. ثم فقعت صفية زغرودة رنت في العيادة وفي السوق الذي يبدأ أوله من عند بابها. أجمل الأخبار الجيدة تصل حين لا نتوقعها. نظن أننا نحلم، حيث إن لها وقعاً وتأثيراً يُخَدّران مقدرتنا على التمييز بين الحلم والحقيقة.

تلك الليلة لم ينمها يوسف في البيت. أمضاها في معسكر الفدائيين خارج المخيم. عاد في صباح اليوم التالي. استقبلته الأخبار الجيدة عند طرف الحارة. قبل أن يدلف إلى الشارع الكبير، مر عن امرأة عجوز بادرته بالتحية وهي تقول: «مبروك يا يوسف». لم يعرف سبب التهنئة. وكلما مر عن جماعة في الشارع بادروه بالتهنئة. خطر بباله أن التهنئة قد تتعلق بحمل مفاجئ لكريستينا، لكنه استبعد الأمر حيث إن سنوات أربع مرت دون أن يتحقق الحمل المنتظر. لم يفهم سبب التهنئة. وحده حمدي من سيقولها له صراحة حين يراه. سيهرول نحوه يعانقه، ويقول له إن كريستينا حامل. كانت البندقية «الكارلوستاف» تتدلى من كتفه، ولباسه الكاكي مغبّر قليلاً، وجسده منهك من السهر وعدم النوم خلال الليلة الماضية في معسكر الفدائيين. حتى شاربه بان عليه التعب. دب فيه النشاط وغمرته الفرحة وهو يرفع بندقيته ويعمّر أجزاءها ويطلق أربع رصاصات في الهواء فرحاً. أربع رصاصات بعدد سنوات الحرمان التي عاشها.

أطلق يوسف على الطفل الذي وُلد في أواخر ديسمبر من العام 1964 اسم «ياسر». غيابات يوسف عن البيت كثرت وبات يمضي في بعض المرات أسبوعاً خارجه. لاحظت كريستينا أن ثمة رفاقاً جدداً انضموا إلى الجلسات العاصفة التي كان يعقدها في البيت خلال عودته. شبان عيونهم تبحث بنهمٍ عن المستقبل، ترمي بالحزن خلف ستائر الحاضر. ثم يغيب ولا يعود إلا بعد أيام. قالت له وهي تمسك يده في تلك الليلة الدافئة من شهر تشرين أول، إنها لا تريد أن تفقده. تريده أن يكون معها دائماً. يعيشان معاً ويموتان معاً. نظرت إلى ياسر غافياً في سريره: «أريد أن نرقص سوية يوم زواجه». قال لها إنه سيسمي الطفل الثاني «مصطفى» على اسم الضابط المصري مصطفى حافظ الذي عمل مسؤولاً عن العمل الفدائي في غزة وعن نشاطات يوسف قبل أن يلتحق بالتنظيم الجديد الذي انطلق حديثاً.

بدي تمليلي الدار ولاد.

أمنيات كثيرة كانت تشعر أنها تعيدها بين وقت وآخر مثل تعويذة تريد لها أن تصبح حقيقة. هل يمكن لها أن تشتم رائحة الحزن؟ الأخبار الجيدة تصل بلا مقدمات كما تقول صفية، أما الحزن فأسالوا كريستينا، نشم رائحته قبل وقوعه.

لم تمضِ أعوام ثلاثة على ميلاد ياسر حتى اندلعت حرب حزيران 1967 حيث احتلت إسرائيل قطاع غزة والضفة الغربية وسيناء والجولان في ستة أيام. اختفت آثار يوسف. لم يعد منذ أكثر من أربعة أسابيع. قبل الحرب بثلاثة أيام خرج وقال إنه سيعود في نهاية الأسبوع. أحست قلبها يسقط منها وهي ترسم قبلة على شفتيه. طعم الشفاه الذي لم يغادر كريستينا حتى الآن. في تلك الليلة

قبّل كل جسدها، نشر رحيق شفاهه على كل تفاصيله. الطفل ظل نائماً لا يند عنه أي صوت، تاركاً والديه في لذة لم تنتهِ حتى طلوع الفجر. ملأت الغرفة صهيلاً وهي ترتشف اللذة من شفاهه وتنتشي مع كل حركة يقوم بها.

لا يمكن لها أن تقول إنها كانت تعرف إنها المرة الأخيرة. فقط حين قبّلت شفتيه وهو يخرج في اليوم الثاني عند المغرب شعرت برجفة في قلبها. قالت له أن يعود. أعادت عليه أمانيها حول الرقص في حفل زفاف ياسر، وحول العيش معاً والموت معاً. ظلت تلوح له وهو يعدّل من وضع بندقيته على كتفه ويمضي في الدروب خارج الحارة.

لم يره أحد بعدها. وقعت غزة تحت الاحتلال وجابت السيارات العسكرية الإسرائيلية طرقات المخيم، فتشت البيوت وعاثت دماراً وتخريباً في ممتلكات الناس، ودمعات كريستينا تنهمر مثل إعصار عاصف. مضت أسابيع أربعة ولم يبن عنه خبر. في ذات نهار من شهر تموز طرق الباب شاب صغير. ما إن فتحت الباب حتى رمى ورقة ومضى. كانت تلك رسالة من يوسف. قال فيها إنه بخير لكنه مضطر للتخفي عن أعين الجيش حيث يقوم هو ومجموعة من رفاقه ببعض العمليات ضد المواقع العسكرية. قال في الرسالة إنه سيحاول القدوم للبيت سراً. أرسل قُبلاً لها وللطفل، وطلب منها في آخر الرسالة حرقها حتى لا يعتقلها الجنود لو عثروا عليها لديها. في الحقيقة لم يتوقف الجنود عن مداهمة البيت بين أسبوع وآخر، الأمر الذي جعل زيارته الموعودة للبيت صعبة ولن تتحقق.

مرت أشهر أربعة قبل أن يستشهد يوسف خلال اشتباك مسلح بين مجموعة من الفدائيين وبين الجيش. في تلك الليلة سقط

قلبها بين رجليها. أحست أن أزيز الرصاص وتحليق الطائرات الهيلوكوبتر يزيدان من توترها وهي تُحاول أن تُطعم الطفل فيرفض ويدخل في نوبة طويلة من البكاء. بكت من حرقة الألم الذي أحسته وهي تنتظر أن يباغتها القدر بخبر سيء. سقوط قطرات الماء على سطح الغرفة الصفيحي يثير فيها الرعب، هسهسة الريح بين الأزقة تقتلعها من مكانها. أي حركة أو صوت قد يعني طرقة يد تنقل لها ما لا ترغب سماعه.

طلع النهار بصعوبة في تلك الليلة بعد أن هدأ كل شيء إلا قلقها. عرفت الخبر دون أن يقوله لها أحد. الجلبة في الشارع وحركة السيارات العسكرية ومداهمة الجيش للبيت، وقلبه رأساً على عقب، وركلات الجنود لها وللطفل الذي بدأ في ذلك النهار أول محاولاته في الخطو. كل شيء كان يحمل معه رائحة الحزن.

ذلك النهار الماطر الضبابي، كان أشد ما عرفت كريستينا من قسوة. كانت قطرات المطر تنز من بين شقوق ألواح الصفيح التي تغطي سقف الغرفة، والدموع تسح من عينيها ملبدة الرؤية، مشوشة الخيال. وكانت التنهيدة التي تند عنها بين فينة وأخرى تهز الحارة، فتحنو عليها النسوة مواسيات يُلطفن من ألمها، فيما صورة النعش يحمل يوسف ويرحل به إلى العالم الآخر، يطوف أمام عينيها كأنه لا يريد أن يفارق.

قالت للنسوة إنها ترى النعش في الغرفة. قامت بتثاقل. وقفت وسط الغرفة. أخذت ترفع يديها من أسفل إلى فوق كأنها تمنع النعش من الوقوع على الأرض.

قامت النسوة ليتحلقن حولها وأخذن يفعلن مثلها. ثم تسارعت حركة اليد في هستيريا أحست معها كريستينا بلذة القرب،

وهي ترى يوسف يفيق من الموت. في البداية جلس فوق النعش، ثم حدق في عينيها ذات التحديقة التي أسر فيها قلبها يوم رأته في الزقاق. ثم وقف. انتصب فوق النعش. اخترق رأسه السقف الصفيحي. رفعت عنقها إلى فوق. فعلت النسوة مثلها. رفعت يديها نحو الجسد الواقف فوق دكة الموت. رفعت النسوة أيديهن. تحلقت مئات الأصابع وعشرات الأكف حول أصابعها التسعة الطويلة. ثم انهارت، وانهارت الدموع من عينيها مثل قطرات كثيفة ومتتابعة تسح من بين شقوق ألواح الصفيح. ارتمت النسوة حولها منهكات، تبعثرت أعضاؤهن وتقاطعت، وتداخل شعر رؤوسهن، فبدون كعصف مأكول. ثم استوت كريستينا في جلستها وزفرت زفرة تساقطت من شدتها أوراق النعناع في الأصص فوق عليّات الأبواب، ثم قالت بهدوء: «وصل السما».

جلست النسوة حولها في استعادة للحظات ألم تغزو ذكرياتهن عن حبيب رحل أو عزيز فُقد. متى ينتهي هذا النهار؟ نهار من الألم والحرقة. وجع ساعاته أكثر وقعاً من مقدرة كريستينا ونسوة الحارة على الاستيعاب.

ذلك يوم آخر من أيام الحاجة كريستينا. لكنه يوم بألف يوم. لا تحب أن تتذكره. بعض الذكريات نرغب لو أنها تختفي من حياتنا، لا تعود بين فينة وأخرى لتُقلب جمرات الماضي فوق صفيح دماغنا الملتهب. لكن ولحكمة لا ندركها ربما، فإن تلك الذكريات تحديداً هي أكثر زوار الألم رجوعاً على الدرب. تعرف كريستينا ذلك فتمسك بخصلة شعرها وتقول لصفية ولنسوة الحارة: «من كثرة الوجع هالشعر ما بده يشيب».

بريق الحب لا ينتهي حتى لو رحل من نحب. يظل هذا الإحساس بهم في داخلنا نشعر به كلما تذكرناهم أو خطروا ببالنا.

ظلت وحيدة في البيت مع طفلها الذي كانت تريد له أن يكبر بسرعة، أن يصبح رجلاً. تجلس معه في الصباح وتأخذ بسرد قصص وحكايات الماضي عليه. قد تحكي لساعات وقد يكون الطفل يلهو بلعبة ما أو يبتسم لشيء آخر غير حديثها، لكنها كانت تفعل ذلك بمتعة وألم في آن.

اعتقلها الجيش أكثر من مرة في محاولة لمعرفة إذا ما كانت تعرف أي معلومات عن الخلايا السرية التي شكلها يوسف للتنظيم العسكري الجديد. اعتدوا عليها بالضرب. ذات مرة وبعد أن مضى على توقفيها ثلاثة أيام صرخت في وجه الضابط بلغة إنجليزية أبهرته قائلة: «أنا بريطانية.. أريد أن أتحدث مع السفير البريطاني». أفاق من دهشته وضحك بهستيريا، وقال: «وأنا مجري»!. بيد أنه ما لبث أن أطلق سراحها بعد هذه الحادثة بساعات وهو يقول لزملائه: «بريطانية!!!».

توقفت عن العمل في عيادة وكالة الغوث. تفرغت لتربية طفلها، لم تنفع رجاءات المسؤولة الأجنبية لها بالعودة للعمل. قالت لها صفية: بس الناس بدها خبرتك يا كريستينا. أطرقت ساهمة ثم حملت طفلها بين يديها. رغم ذلك لم تتوقف نسوة المخيم عن زيارة بيتها طالبات المشورة والعلاج خاصة في قضايا الحمل والميلاد. مع الوقت صارت كريستينا قابلة المخيم وطبيبته الخاصة. تشّخص الداء وتصف الدواء، وتسعف الجريح، وتساعد الحامل على الميلاد.

اقترح عليها العم منصور أن تنتقل هي وطفلها للعيش معه في البيت قرب المدرسة. لا يوجد للعم منصور من يرثه، لذا قال

لكريستينا إنه سيسجل البيت باسمها، فهي أقرب الناس له. وهكذا انتقلت كريستينا بعد أشهر من استشهاد يوسف لبيت العم منصور حيث ستظل تعيش هناك حتى يأتي جيب اللاندروفر ويأخذها في يناير 2009.

لم يمض عام آخر حتى رحل العم منصور. لم يعد يعمل في محطة السكة الحديد إذ إن ضابط الركن الإسرائيلي استدعاه بعد استشهاد يوسف وقال له إنه لن يعمل في أي مصلحة حكومية بعد أن رفض الإدلاء بأي معلومات عن يوسف. فرك أعقاب سيجارته بعنف في المنفضة وهو يقول: «كلكو ارهابيين». العم منصور أدرك بأننا في لحظات يجب أن نقفز في الهواء، أن نصرخ، لأننا لو لم نفعل سنظل نندم طول العمر. ابتسم بسخرية وقال: «الإرهابي اللي أخذ بيتي بيافا». كلفته الكلمة يومين في زنزانة قذرة مع الصراصير والجرذان. لم يعد القطار رفيقه، ولم تعد قضبان السكة الحديد تملأ فراغه في انتظار القطار القادم. بدأت روحه تعتم وجسده يذوي، حتى أفاقت كريستينا في الصباح ووجدته قد لحق بالآخرين. مشهد الموت ذاته الذي مازال يدمي روحها. رائحة من غادروا مازالت تملأ المكان. وعربة الموت مازال وقع صرير عجلاتها يصم الأذان.

أحست أنها مثل شجرة تُنزع أغصانها بعنف وقسوة. مسحت دمعتها وهي تقول لنسوة الحارة: «بشوف الموت ساكن دارنا». لم يملكن أي كلمة يواسينها بها. لو لم تقابل العم منصور في ذلك اليوم في محطة السكة الحديد لربما تغير مسار حياتها بالكامل. كأن القدر جعله يعمل في محطة السكة الحديد حتى تعثر عليه ويتعرف عليها حين أنكرها الجميع.

تحسب سنوات عمرها الآن التي تجاوزت الثلاثين بثلاث سنوات. سنوات مزدحمة بالأحداث مليئة بالمآسي، لكنها لم تخل من الحب. من ثورة 1936 إلى الإضرابات في يافا وهي طفلة والأحداث الدامية، ومن ثم سفرها إلى لندن التي كانت تنهض من رماد الحرب العالمية الثانية، إلى النكبة وفقدان أهلها كلهم، إلى موت جورج وطردها من قبل أخواته من لندن، وإجبارها على العودة إلى غزة، وانتقالها من حي فيكتوريا في لندن إلى مخيم لاجئين، وبعد ذلك لقاؤها بيوسف وإنجابها لطفلها ياسر، واحتلال الجيش الإسرائيلي لغزة واستشهاد يوسف بعد ذلك، ومن ثم سجنها والتحقيق معها، انتهاءً بموت العم منصور. أحداث متزاحمة كأن القدر يريد أن ينتهي من كومة الأحداث المتكدسة في جعبته حتى يرتاح.

عموماً لا يمكن للقدر أن يكون أكثر قسوة من ذلك. لم تعرف أن الأسوأ لم يأت بعد، وأن غيمات الغد تحمل المزيد من المطر الأسود الذي سيزيد حياتها ألماً. لكنها تحس أن ثمة حكمة غير مرغوبة وراء هذا التدافع البشع للأحداث التي حملت حياتها سفينةً من ورق، واهنةً تتلاطمها أمواج بحر من الدموع والأنّات والآهات. أدركت أن عليها أن تسلم بكل ذلك، وتقبل أن هناك أشياء لا نقدر على ردها، أو نحن لا نعرف الطريقة المناسبة لفعل ذلك. وأياً كان الحال فإنها شعرت بعجز قاتل وهي ترى نفسها وحيدة تفقد الأحبة واحداً تلو الآخر.

انقطعت السبل بابنها ياسر حيث لم تعد تسمع عنه خبراً أو تتلقى منه رسالة. التاريخ لا يعيد نفسه لكن الأحداث تفعل، على الأقل بقسوة لا يمكن تحملها. أما التاريخ فيعيد ربما دروسه وتعاليمه التي ننسى أن نتذكرها. تشبه حكاية اختفاء الابن قصة اختفاء

العائلة وقت النكبة وقصة اختفاء الزوج وقت النكسة. فالولد اليافع الذي خرج للقاهرة ليتعلم الطب هناك، سيلتحق بعد وصوله بآلاف الطلاب الذين حملوا حقائبهم وتوجهوا إلى لبنان للمشاركة في المعركة عام 1982. أخذت الحرب معها لهفة اللقاءات المنتظرة والعناقات الندية.

وصلها منه رسالة صغيرة مع شاب عاد من القاهرة بعد ذلك، قال فيها إنه رأى والده في تلك الليلة يقف وسط الفدائيين في بيروت، وأن عليه أن يلتحق به. عضت شفتها السفلى حتى تخثر الدم فيها، وقالت لنسوة الحارة: «الولد بوكل بعقلي حلاوة». قصة الحلم بالنسبة لها كانت من اختلاق عقل الولد من أجل إقناعها بما قام به. المؤكد بالنسبة لها أن الأمر لم يكن حلماً، كما لا علاقة له بالعقل والقناعة، بل هو تقليد من تقاليد العائلة. أحست وقتها أن الولد لن يعود. هي تعرف، فقسوة السنين علمتها أن اللعنة حين تحل لا ترحل. التقليد الذي لم تختره يوماً، ولم ترغبه، ولم تجد فيه مُعّبراً عن حقيقة الأشياء، لكنه أقوى من ذلك، ووحده -أي هذا التقليد- من يفسر القدر الذي لا تستطيع رده.

لكن كم مرة في الحياة عاندنا وكابرنا وزعمنا أننا لا نعرف رغم أننا نعرف، وتجاهلنا إحساسنا بالنتيجة رغم أننا نعيشها. ضغطت كريستينا على نفسها وصدقت دائماً أن الولد سيعود. خبأت عميقاً الشعور بالمرارة والخيبة، ودفنت عميقاً لسعة القلب التي تصيبها حين تتذكر قصص العائلة وكيف يختفي أفرادها، ويصبح وجودهم مجرد إشاعات وأقاويل وحكايات غير مؤكدة، وقالت بقوة نادراً ما يراها الجيران على وجهها: «الولد راح يرجع». يمكن لأي شخص يعرف الحارة لِماماً حتى، أن يجزم أن أحداً لم يصدق أنها

تؤمن بما تقوله حول عودة الولد، لكن الجميع هز رأسه متمتماً: «إنشا الله». وأضيفت إلى أيقونات كريستينا أيقونة جديدة وتعويذة تتكرر عشرات المرات يومياً. فما أن يُنهي شخص ما الحديث معها حتى يقول: «برجعة الولد»، أو «بسلامة الولد». وكانت تبتسم بكثير من التفاؤل كأن المتحدث يخبرها خبراً سعيداً، ثم تلملم ما تبقى من شجاعة لديها حتى لا تنهار بالبكاء أمام الناس. الآن يقولون لها: «برجعة الولد»، وقبلها كانون يقولون: «برجعة أبو ياسر»، زوجها. وحين كانت صبية صغيرة ولم تكن قصة وفاة العائلة قرب «برقة» قد حُسمت كانوا يقولون لها: «برجعة الأهل». وكانت هذه «الرجعات» غير المحققة غصات في الحلق ودوامات في الرأس.

ظلت ثلاثة أشهر لا تخرج من البيت غير مصدقة أن القدر يمكن له أن يكون بهذه القسوة، وغير مقتنعة أن الولد -وحيدها في الحياة- يمكن له أن يتخيل أنها تتحمل المزيد من الفقد. هي تعرف الفقد وتعرف مرارته مثل العلقم، وتعرف أنه لا يسرق البهجة فقط، بل يُقصّر العمر. تعرف وقع حوافره على الروح، يدميها. حبست نفسها في البيت. لم تخرج للشارع ولو لدقيقة. كان حاتم ابن نبيلة جارتها الذي كان يخطو على العاشرة وقتها الوحيد الذي يتواصل معها، يقضي لها حوائجها خارج حدود البيت، يشتري لها ما تقتات به من طعام وشراب. تكتب له ما تريد على ورقة صغيرة ليعود لها به. صامت عن الكلام واحتجبت عن النظر. سكان الحارة يستقون أخبارها من حاتم الذي كان مقلاً في نقل تلك الأخبار، عازفاً عن البوح بها. في الليل تضع شريط الكاسيت في جهاز التسجيل وتستمع إلى معزوفة باخ «عذابات القديس ماثيو»، ويعلو نحيبها ويصعد صدرها مع آهات ماثيو وآلامه ومع تسارع ضربات أصابع

باخ. الأوراتوريو ونحيب الكورس يحرران طاقة الحزن الكامنة في تجاويف الروح.

سمع الجيران هلوساتها في النهار وفي الليل وهي تهذي وتناجي صورة الولد. كانت في مرات تصرخ بانكسار في الصورة المعلقة على جدار صالون البيت. العتاب الذي يزيد الروح اشتعالاً ويعصر القلب مثل ليمونة ناشفة. قالوا جُنت كريستينا، فقدت عقلها. ومثل كل مرة صارت مادة دسمة للأحاديث والثرثرة ونقل القصص والشواهد.

ثم فاجأت الناس بخروجها في ذلك الصباح الندي حين وضعت كرسيها المصنوع من الخيزران وجلست تستقبل الشمس. التف الناس حولها يسألون عن صحتها وعن الأخبار التي لم تصل. ومثل كل مرة عزمت على تحمل القسوة التي لا تطاق. أقنعت نفسها بأن الولد مازال حياً رغم أن الحرب في بيروت انتهت، والمقاتلون رحلوا عن المدينة. يومها بحلقت في الصور القليلة التي بثها التلفاز للمقاتلين لعل وجه ياسر يخرج من بين الزحمة. لكنها لم تصدق بأن الأشياء قد تنتهي رغم إرادتنا. تلك الحكمة التي تعلمتها من العم منصور. يومها كانت الأمطار تدق سطح الزينكو بعنف وكانت نظرات كل من في البيت تنتظر اللحظة التي قد تحمل فيها الريح لوح الزينكو بعيداً مثل بساط علاء الدين، ويصبحون وحيدين مع المطر، بلا سقف يقيهم غضب السماء. كان ذلك بعد استشهاد يوسف زوجها. وضع المزيد من أغصان البرتقال الجافة في الكانون الطيني وقال، وهو يناول كريستينا كوباً من الشاي تتماوج سحب الدخان منه:

- أشياء كثيرة تتم رغم إرادتنا.

صمت ثم أضاف:

- بل كل شيء يتم رغم إراداتنا.

نفخت في كوب الشاي الساخن وهي تلفه بيديها تستمع إلى صوت المطر ينقر فوق الزينكو، فيقع قلبها كل مرة من الألم.

لم تترك باباً إلا طرقته ولا جهة إلا خاطبتها. سألت كل من تسمع أنه جاء من الخارج - ليس بالضرورة من لبنان حيث منتهى وحيدها، ولا من مصر حيث رفاق دراسته. أي مكان خارج غزة كان محطة محتملة لرحلة التيه التي اختارها الولد. لذا لم تدّخر جهداً في محاولة الحفر في صخر عنيد، كانت هي أعند منه، وأشد صلابة. ولم يعد الولد. حمل لها الناس الكثير من القصص والإشاعات التي لم تفلح في إخماد الحريق. السنون وحدها كفيلة في أن تجلب السلوى وتشق طريقاً للسكون.

بعد توقيع اتفاق أوسلو عام 1993، وعودة بعض من قوات منظمة التحرير من الخارج إلى غزة، ذهبت إلى مقر القوات العائدة في «السرايا» و«أنصار» تسأل عن ابنها. لعل أحدهم قابله. الإجابات المتفرقة التي تلقتها لم تشف غليلها، وتعارض كثير منها مع بعضه بعضاً. لكن الشيء الذي لم يذوِ في قلبها، هو يقينها بأن الولد مازال حياً. على الأقل فإن بعض من قابلت ذكر لها بأنه يعرفه. أحدهم قال وهو يبعث الأمل في روحها: يمكن يا حجة راح على أوروبا زي كتير من الشباب بعد حرب 1982.

لكن حتى هذا لم يشفِ غليلها، لأنه لم يقدم إجابة عن مكان الولد.

مرت عربة الزمن، أثارت الغبار تارة، ورمت قشر السنين خلفها تارة أخرى، لكن وقع حوافر أحصنتها العنيدة ظل يتردد بعند وإصرار مثل وجيب قلب خائف، تذكرها بالألم الذي لا يخبو، وبالولد الذي لم تمل النظر لصورته كل صباح وكل مساء. ومع الوقت قلّ الذين يحملون لها أخباراً وشذرات لم يثبت منها أي شيء. رغم ذلك فإن تلك الأخبار والإشاعات مثل الريح الرقيقة التي تهب على كومة الجمر فتشعل ألسنة لهب خفيفة فيها. ثم اختفى حاملو الأخبار، ولم يعد أحد يطرق الباب لاهثاً ليبشرها بأن هناك من يحمل خبراً عن ياسر. وكانت كل دقة عنيفة على باب البيت أو صراخ عليها من خلف النافذة من أحد الجيران، قد تنذر بحامل خبر جديد. الشيء الوحيد الذي لم تفعله هو أن تروض نفسها على النسيان. إنه المستحيل الوحيد الذي لم تُقر بوجوده.

في جلسة صفا أمام عتبة البيت قالت لصفية:

شو بدي أنسى وإلا شو.. أنسيأهلي اللي لليوم ما بعرف عنهم إذا ماتوا ولا لأ. انسى زوجي اللي رجعوا كل صحابه إلا هو رجع على نعش. انسى ابني اللي راح زي شربة مية. ما عدت اسمع عنه خبر.

هزت صفية رأسها وهي تلتقط الألم المشع من شفتيها، وحاولت أن تقول أي شيء تواسيها به. جملة. كلمة. حرف. لم تجد إلا هزة الرأس المترددة. أسوأ شيء أن تخوننا قدرتنا على ترجمة ما نحس به. أمسكت كريستينا عوداً جافاً سقط من شجرة الكينيا الهرمة، وأخذت ترسم على الأرض أشكالاً غريبة.

هالحياة معثرة من يومها. حتى يوم ما ولدتني إمي كانت يافا زي النار والطخ زي القلية.

حدقت في عيني صفية السارحة تتأمل الشمس وهي تغيب خلف البيوت الواهنة، وسألت:

معقول حظ يا صفية؟

ماذا عساها صفية أن تقول؟ فهي أيضاً لم تكن أكثر سعادة منها. فلو كان الأمر قصة حظ فإن صفية لا تعرف أصلاً ما هو الحظ، لذا فهي لم تعرف كيف تجيب كريستينا. فهي أيضاً فقدت عائلتها خلال الهجرة إلى سوافي غزة. نجت وحدها من الموت الذي التهم جميع أفراد العائلة حين باغتتهم قذيفة مورتر خلال قصف المستوطنة اليهودية لقرية «بربرة» في نهاية شهر أكتوبر من العام 1948. حمل والدها العائلة وانتقل من يافا إلى «بربرة» جنوب مدينة المجدل. كان ذلك شهوراً قليلة قبل سقوط القرية وترحيل أهلها، حيث التحق بطاقم التدريس الصغير في المدرسة التي شُيّدت حديثاً في القرية. لم تنعم بأيامها هناك رغم أنها مازالت تذكر بشغف حقول الذرة الممتدة حتى نهاية الكون على تخوم القرية، والكثبان الرملية تلمع مثل اللؤلؤ في الطريق القصيرة إلى البحر، وكروم العنب والحواكير المحاطة بالصبّار تحميها حتى لا تلتهمها ألسنة الرمال.

يوم وصولهم في يناير 1948 إلى القرية أطلقت النيران على السكان من المستعمرة المجاورة. ولم تمض شهور حتى كادت صفية أن تصاب برصاص قناصة المستعمرة في نيسان من ذات العام. كتب والدها رسالة للقائد الليبي للقوات العربية غير النظامية في المنطقة «طارق الأفريقي» يطلب تعزيز صمود القرية التي صمدت شهوراً بعد سقوط قرى الساحل، وكتب للحاج أمين يطلب المزيد من القتال. كانت «بربرة» آخر قرى جنوب الساحل التي تسقط في

الحرب. يومها خرجت العائلة إلى سوافي الرمال هرباً من القذائف التي تسقط من كل صوب وفوج. لكن القذائف لم تترك أحداً دون أن تصيب حياته أو حيوات من يحب. مزقت ثلاث قذائف عائلة صفية الصغيرة المكونة من والديها وطفلين غيرها. ونجت بكثير من الحظ الذي لم يعد يسعفها الآن.

إذاً هذا هو الحظ!

أن تعيش صدفة، أو أن تنجو بخطأ لم تتقصده. هذا ما كانت تفكر به كريستينا وهي تحاول أن تجر صفية، محاورتها الصامتة، إلى حديث يفتح رتاج الألم إلى رحابة التأمل. كيف يمكن لكل ما يحدث أن يكون مجرد حظ عاثر! أو مجرد صدفة غير مقصودة في ترتيب الوقائع. فهي مثلاً لو أعادت ترتيب حكاية حياتها بطريقة مختلفة، مثلما قد يفعل لاعب الشطرنج مع بيادقه، فهل ستتوقع نهايات مختلفة؟ مثلاً لو أنها لم تعانِ في طفولتها من هذا الورم الخبيث في إبهامها، وبالتالي لم يأخذها جورج إلى لندن ليعالجها هناك، لكانت حظيت مثلاً بتسلسل مختلف للأحداث. أو لو أن النكبة لم تتم في العام التالي لسفرها إلى لندن. نفضت عن وجهها سحابة حزن أكلت استقرار تفكيرها، حيث إن أي تغير في ترتيب الأحداث سيعني أنها ستلاقي نفس مصير العائلة. الأموات وحدهم لا يفكرون، لذا فهم مرتاحون في سرمدية القبور، لذا لا يأبهون كثيراً بحقيقة النهايات التي واجهوها. وحدهم الأحياء يعرفون طعم النهاية لأنها تترك بصماتها على فرص وجودهم، وحين يدركونها قد لا يعودون أحياء أصلاً.

قد تسأل نفسها لماذا نجت أصلاً! لماذا كانت حياتها بهذا الترتيب العبثي للأحداث! كان يمكن لها أن تكون مثل بقية أفراد

العائلة مجرد ضحية أخرى للحرب، تصبح مع مرور الزمن مجرد حكاية أخرى، ورقماً آخر في سجلات الموتى. لماذا كان على والدها أن يقتنع بفكرة صديقه الإنجليزي المجنونة بأن يأخذ ابنته الصغيرة ويسافر بها إلى لندن! كان يمكن له أن يرفض، على الأقل يتعلل بتقاليد العائلة والعرض والشرف وعدم جواز ترك البنت تسافر مع غريب، وكلام الناس وما شابه.

أيضاً كان يمكن لها أن تعيش كل حياتها في انجلترا وتظل فتاة إنجليزية لو أن جورج صديق والدها لم يمت، أو لو أن أخواته لم يصررن على أن تعود الفتاة العربية إلى أهلها بعد وفاة أخيهم. أيضاً كانت تستطيع أن تترك غزة بعد احتلال إسرائيل لها، واعتقالها من قبل الجيش، فهي في نهاية الأمر مواطنة بريطانية على المستوى الرسمي، أو حتى بعد ذلك خلال الانتفاضة ومداهمة الجيش للبيوت. كان يمكن للكثير من الصدف أن تحدث، كما أن الكثير من المصائر كانت ستختلف لو تم بعبثية أخرى تحريك «ماوس» الأحداث بطريقة مختلفة. الحياة ليست إلا ترتيباً للأحداث بطريقة معينة، وأي تغير طفيف في هذا الترتيب، أو حتى افتراض مثل هذا التغير، سيقود إلى نهاية مختلفة، وحياة أخرى. لذا لا يمكن لنا أن نعيش نفس الحياة مرتين. الحل الوحيد هو التسليم بالقدر الذي اختار لنا هذه الحياة، أو العمل على تغيرها. الفكرة الأخيرة لا تروق لكريستينا التي اعتادت أن تكون أمواج الحياة أعلى من مقدرتها على السباحة، رغم محاولاتها القليلة أن تعاند وتقف في وجه التيار، لكن حتى الوقوف في وجه الموج لا ينجي من الغرق. وهي لم ترد يوماً أن تغرق.

صفية كانت تهز رأسها موافقة على كل ما تقول كريستينا. تظن الأخيرة في مرات كثيرة حين تتحدث مع صفية أنها تتحدث مع

نفسها، تتخيل أن حكاية صفية ليست إلا إعادة إنتاج لحكايتها مع فارق صغير هو رحلة السفر إلى إنجلترا. أكثر شيء تحبه صفية هو حديث كريستينا عن حياتها في لندن. تصنت بشغف لكل التفاصيل التي تبرع محدثتها في اصطيادها من الذاكرة. من المؤكد أن أحد أهم مواهب كريستينا هو «التذكر» الدقيق لتلك الأيام، منذ عناق أمها لها والدمعات الساخنة التي سقطت من مقلتيها على شعرها، إلى ركوبها الطائرة للمرة الأخيرة متجهة إلى القاهرة، ومن ثم القطار والرحلة الطويلة إلى غزة. «التذكر» يشبه النسيان في قسوته، فأن تتذكر هو أن تعاني وتتألم، خاصة حين تكون الذكرى شيئاً شهياً من الماضي يمكن مقارنة افتراقه عن مرارة الحاضر، وأن تنسى فأنت تقتطع جزءاً من روحك وتسلخه عنك وترميه بعيداً بيديك وبرغبة منك. في الحالتين تعاني قسوة لا تطاق. لذا من العبث في مرات كثيرة أن تحاول النسيان

تلك أيام مضت الآن.

مجلس النساء

في الطريق كانت الأفكار والصور والأحداث تتزاحم في عقلها. انفرطت مسبحة الحياة وتدحرجت حباتها في سهول ووديان، واختفت بين أحراش وصخور. كل مرة تلمع في رأسها حبة فتضيء وهجاً في الروح يعيد لها ألق اللحظات التي عاشتها وقتها، ممتدة من طفولتها في يافا إلى حياتها الحافلة في المخيم. واحد وخمسون عاماً من الحياة في الحارة تنبسط أمامها الآن. تسقط الدمعة من عينيها. الدمعة ذاتها التي كوت خدها وهي تغادر يافا في ذلك المساء من عام 1947. جرفها شوق عارم لأهل الحارة. لجلساتها المسائية أمام البيت، لأحاديثها في الطريق مع الجيران، لوقفتها أمام بقالة حمدي.

أحست أنها قشة تطير بها الريح بعيداً عن البيدر. نظرت للسماء تشكو، أو تبحث عن وجوه من أحبت لعلها تجدهم يطيرون مثلها. مدت يدها في الهواء تريد أن تقبض على ما تبقى من بيدرها، من ذلك العالم الثري الذي عاشت فيه واحداً وخمسين عاماً مضت. وصلته غريبةً، وسرعان ما صارت أيقونته الأثيرة. ابتسمت وهي تتذكر تلك الأماسي الطويلة التي كانت تجلس فيها أمام البيت مُحاطةً

بنساء الحارة. الصدفة التي صارت عادة، والعادة التي صارت علامة فارقة في حياة الناس. الصور تتقافز أمام عينيها، وجوه نسوة الحارة ورجالها، الأزقة، أشجار الكينيا، أصص الورد حول جدران البيوت، النعناع على العليات، الدوالي يعتلي الأسطح، البوسترات على الجدران. تسمع الأصوات، إيقاع الشارع، ضجيج الحارة، طابور الصباح المدرسي. يسرقها الحنين والألم من الطائرة التي تصعد درجاتها قبل أن تقلع بها إلى لندن، ويحط بها أمام بيتها في المخيم، تتوسط نساء الحارة كما تفعل كل مساء فيما بات يعرف بمجلس النساء.

مجلس النساء!!

أو مجلس كريستينا!

من المؤكد أن مثل هذا المجلس كان ضرورياً في حياة الحارة، وفي بلورة شخصيتها وهويتها. فمن جهة فهو لم يكن مجلساً بالمعنى الذي تقترحه مساهمته في مصير الحارة، وكأنه مجلس سياسي أو اجتماعي ينتظم وفق تقاليد ما. ومن جهة ثانية فإنه مع الوقت صار تقليداً من تقاليد الحارة، وأحد أهم مظاهرها. إذ يصعب مثلاً تخيل وقوع حدث كبير في الحارة دون أن يكون لمجلس النساء موقف منه، لو حتى من باب الرأي الذي قد لا يؤخذ به. ويصعب أكثر الشك في قدرة مجلس النساء في التأثير على رجالات الحارة. بل إن بعض الشبان قد يغمزون من قناة الرجال في هذا الجانب من خلال القول إن من يريد أن يعرف موقف الحارة عليه أن يسأل «نساوينها». ورغم ما في ذلك من مبالغة إلا أنه يحمل بعضاً من الحقيقة.

هل ثمة مجلس فعلاً؟

تبتسم كريستينا الآن وهي تتخيل الموقف.

بالطبع لا يوجد هناك مجلس ولا ما يحزنون. كل ما في الأمر أن نسوة الحارة اعتدن الجلوس في المساء عند الحاجة كريستينا. في الصيف يجلسن تحت شجرة الكينينا الهرمة أمام باب البيت الصغير، وفي الشتاء يجلسن في صحن البيت متحلقات حول كانون النار الطيني. رغم ذلك، لا يمكن لمن يمر في الحارة أن يلحظهن أو أن يسمع حديثهن أو ضحكاتهن المتفاوتة. فبيت الحاجة كريستينا يقع في طرف زقاق فرعي ملاصق لمدرسة وكالة الغوث. هو عملياً داخل المدرسة. للبيت بابان: واحد يفضي إلى الزقاق الذي لا يقع فيه إلا بيت الحاجة، وآخر خلفي صغير يفتح داخل المدرسة.

لا يمكن ملاحظة نساء الحارة متجمهرات أمام البيت مثلاً سواء في الدخول أو في الخروج. فهن لا يفدن مرة واحدة ولا يغادرن دفعة واحدة. لكن المؤكد أنهن يحرصن على القدوم بشكل شبه يومي في طقس بات مع الزمن جزءاً من حياتهن الخاصة. ربما من باب الترفيه، ربما من باب الفضفضة، ربما من باب تبادل الأخبار والمواقف، ربما من باب الصداقة التي تنمو مع الزمن، ربما كل ذلك أو غيره. وحجر الرحى في هذا بالطبع الحاجة كريستينا.

كما أن المجلس أو «المقعد» -كما يسميه أهل الحارة- أخذ تأثيره في حياة الناس من حقيقة أنه مجلس الحاجة كريستينا أو «مقعدها». في الحارة سرعان ما يتم تطويع أي حدث ليصبح جزءاً من حكاية الحارة عن نفسها، تفصيلاً آخر من تفاصيل الشارع، مادةً أخرى من مواضيع النقاش والحوارات اللامنتهية التي تمتد من الطقس وتقلباته، إلى الشكوى من تقليص وكالة الغوث لخدماتها،

إلى السياسة وقصص الزواج والطلاق. لكن حتى في كل هذا فإن مجلس النساء ليس مجرد تفصيل آخر، إذ إنه مع الوقت تحول إلى مكّون أساس في صناعة هذه التفاصيل الأخرى. ومع هذا فإن الأمر ليس إلا طقساً آخر من طقوس الحارة. في قلب كل ذلك كانت الطقوس الأخرى تأتي ويتم استعادتها في انصهارٍ سلس يخفف عن الناس أعباء الحياة رغم ثقلها، ويجعل حياتهم محتملة، أو أنهم يُبدعون كيف يعيشون الحياة رغم كل المآسي والرياح العاتية التي ضربت شِراع الحياة

لم يكن كل هذا في بال كريستينا، لكن مثل كل شيء في الحياة ينمو مع الوقت ويأخذ شكله بفعل عوامل التعرية والتراكم وحركة الطبيعة. فالمجلس لم يكن إلا تلك الأوقات التي تجلس فيها كريستينا أمام بيتها، أو حول كانون النار، تخلو لنفسها، تفكر في قطار الحياة الذي لم تفهم الرحلة التي يقوم بها أبداً منذ شعرت بذلك الألم الرهيب في إبهامها بعد حفلة عيد ميلادها الحادي عشر في بيتهم في يافا. في تلك الخلوات ترى الماضي مثل دفتر مفتوح، لكنه مكتوب بخط سيء لا يمكن فهمه. وإذا أعملت تلسكوب الفهم في الحاضر تكاد تبكي حظها العاثر، حيث إن الحياة تسير من سيء لأسواء. أما المستقبل فهو سؤال المليون دولار الذي لا يمكن فهمه أو توقعه. أحجية تعلمت كريستينا ألا تحاول فك طلاسمها.

ورغم أن زائرات المجلس كثيرات، فقد يزيد عددهن في بعض الأحيان عن عشرة، فإنه يمكن الإشارة إلى مجموعة دائمة التردد، يشار إليهن بالاسم حين يرد ذكر مجلس النساء في الحارة.

كيف بدأ الأمر؟

صدفة؟

ربما! فكل شيء يبدأ في الحياة صدفة. الصدفة هي القول بأن ثمة شيء لم يحدث ضمن نسق خاص من التوقع. هل كان الأمر كذلك؟

عادة الناس أنها تحب الحديث من أجل ألا تشعر بالوحدة. فعلاً كان الأمر كذلك. فكريستينا التي عصفت بها الحياة فأكلت استقرارها، وظلت تقضم سعادتها كلما نما على أغصانها ورقة جديدة، تجلس أمام البيت ساهمة تنظر في المجهول الذي تخاف الإمعان فيه، لكنها لا تملك حيلة إزاء ذلك.

صوت المضيفة تطلب من الركاب ربط أحزمة الأمان والانتباه إلى التعليمات على الشاشة الصغيرة أمام مقاعدهم. تمر مضيفة أخرى، تبتسم للحاجة وتطلب منها أن تعدّل وضع مقعدها من أجل سلامتها. الكل في الطائرة مشغول بالاستعداد للرحلة التي ستستغرقهم أكثر من أربع ساعات. ترى وجوه أهل الحارة في الطائرة، يلتبس عليها الأمر. تغمض عينيها لعلها تحلم، أو لعل كل ما يحدث كابوس. المسافة بين الحلم والواقع واهية. لا تعرف أين تقف الآن.

كانت صفية أول الوافدات لمشاركة كريستينا جلستها أو خلوتها تلك. فعمر صفية يكاد تقريباً يكون نفس عمر كريستينا. ورغم أنه لا تربطهما أي علاقات سابقة، إلا أنها كانت أول صديقاتها بعد أن سكنت في المخيم.

من يعرف الحارة سيكتشف السبب بسهولة. فبيت صفية هو أقرب بيوت الحارة لبيت كريستينا. إذ إنه أول بيت تمر عنه كريستينا

بعد أن تدلف من زقاق بيتها إلى شارع الحارة. لكن الآن من الصعب القول إن الأمر مجرد جيرة؛ فالعلاقة بينهما مضى عليها نصف قرن الآن. ربما تشابه الألم في حكايتيهما، أو أنهما متشابهتان حتى في العادات. فصفية مثل كريستينا مقلة في الحديث، ساهمة سارحة معظم الوقت. فقد يمضي على جلوسهما ساعة أو أكثر دون أن تتبادلا كلمة. فقط نظرات العيون من وقت لآخر تنقل شحنات التواصل بينهما، ثم من السهل الإحساس بهذا التواصل. فقد تقف كريستينا فجأة لتجهز الشاي أو القهوة دون أن تسأل صفية ماذا تريد. والأخيرة قد تُخرج كيساً صغيراً مليئاً بالبزر والمسكرات، دحشته في صدرها، تفك عقدته وتضعه على الكرسي القش الذي تستخدمانه مثل طاولة بينهما.

الصمت الأكثر عمقاً من الحديث. النظرات الأقوى من كل اللغات. الكيمياء الخفية التي تسري بخفة بين السيدتين. قد تفتح كريستينا موضوعاً ما يتحدثان حوله ثم تصمتان فجأة، أو العكس.

على كثرة ما يمكن أن تتبادلانه من أحاديث وقصص، فإنهما تمضيان أغلب الوقت صامتتين، كأنها جلسة تأمل خاصة بهما. بالطبع بين لحظة وأخرى تتناقشان في قصة حدثت في الحارة، أو تشكوان لبعضهما ألماً تحسان به. والألم إحدى متلازمات حياتيهما التي تجاوزت السبعين عاماً. وأشد ما يؤلم في الألم هو حين تتحدث عنه. لكن لو كانتا جبلاً لانهارتا، لذا فإن الحديث عن الألم - على ما فيه من ألم- يظل أفضل من الانهيار الجارف بصمت. من هنا فقط يكون الحديث أفضل من الصمت، والشكوى أقل إيلاماً من الانطواء داخل الروح.

لم يكن ثمة موعد بينهما. فقط في أوقات تعرفانها بالحس وتدركانها بلا توقيت، تجلسان لساعتين، أقل أو أكثر قليلاً، ثم بعد غروب الشمس بقليل تقوم صفية إلى منزلها تاركة كريستينا تواصل بحلقتها في شجرة الكينيا، أو في الجمرات في كانون النار.

قصة زواج صفية لم تخل من غرابة بالنسبة لسكان الحارة كما قصة زواج كريستينا. تزوجت صفية من حسن الصياد الشاب مفتول العضلات من شد الشِباك الممتلئة بالأسماك. كانت تكبر حسن بأربع سنين. وجرت العادة أن يكون الزوج أكبر سناً من الزوجة. لكن الحب غريب الأطوار، يقلّب العادات ويبّدل الطباع. ثارت ثائرة أهل حسن حين علموا بالأمر. أصر على أنه لن يتزوج إلا صفية. وقعت في غرامه في إحدى مساءات آب وهي تستجم مع عائلتها في البحر. كان حسن يجر المركب مع والده إلى داخل الماء، ثم يقفز داخله كأنه يعتلي صهوة جواد، حين تلاقت عينا الشاب بعيني الصبية الناهدة وهي تغسل قدميها بالماء، ترفع أطراف ثوبها حتى لا يبتل. عواصف وأنواء وموج مضطرم هاج وماج في قلبيهما. وكان للحب ما كان.

تتشابهان كأنهما نسختا كربون عن بعضهما البعض. ورغم ما في ذلك من إجحاف بحق الأخريات، إلا أن صفية أكثرهن فهماً لكريستينا. تفهمها على الطاير. فهي ليست بحاجة للتفسير والشرح حين تتحدث إليها، تلتقط كل ما يدور في عقلها أو يعتمل في روحها. ربما طول العِشرة أو ربما تشابه الحكاية، وفي كل الأحوال فإن هذا التشابه سرعان ما يلتقطه الآخرون.

تلك الجلسات بدأت سنوات قبل أن تبدأ نسوة الحارة بالتوافد إلى المجلس. سنوات لا يمكن لهن عدها، ليست لأنها غائرة

في القدم، ولكن لأنها تتشابك مع الروح، ويصبح من العصي فصلها عن بقية سنوات العمر.

هكذا بدأ الأمر. ثم كانت نبيلة ثانية الوافدات إلى المجلس. كانت قد جاءت بأصغر أطفالها قبل أكثر من ثلاثين سنة لكريستينا من أجل أن تقوم برقيته. كان الهم والغم والقلق ينهشون جسدها الذابل. كانت كريستينا تجلس مع صفية حين طُرق الباب. دخلت نبيلة ومعها الطفل يشكو من صداع حاد. قالت نبيلة: «ارقيه يا حجة كوود يطيب». أجلست كريستينا الطفل في حضنها، وبدأت تمسد شعره بيدها اليمنى وهي تتمتم ببعض الأدعية، ثم فجأة بدأت تتثاءب بشكل متكرر. قالت: الولد محسود يا نبيلة. قومي يا صفية جيبي شقفتين رصاص نسيحهن على راس الولد.

حسن زوج صفية يقوم بين فينة وأخرى برتق شبكته ويقوم بتغيير الرصاص المثبت في أطرافها، وعادة ما يقوم بإعطاء الجيران قطع الرصاص لاستخدامه في الكثير من المناسبات. أهمها وأكثرها، ربما، هو قيام الحاجة كريستينا بفك الحسد.

عادت صفية بأربع قطع من الرصاص. قامت كريستينا بقطع مجموعة من أوراق شجرة الليمون والكينيا، ثم قامت بتسييح الرصاص في وعاء وضعته على نار حامية. ثم وضعت ماءً في صينية ألمونيوم رمت أوراق الأشجار فيها، ثم طلبت من نبيلة أن تحمل الصينية وتضعها فوق رأس الطفل، وبدورها سكبت الرصاص السائل الساخن في الماء. طشطش. قرأت بعض آيات من القرآن. أنزلت الصينية وأخذت تنظر في الأشكال التي تشكلت بفعل سكب الرصاص الساخن على ماء بارد، أمسكت بعضها وقالت

لنبيلة أن تنظر إلى العيون الثلاثة التي تشكلت من الرصاص المسكوب، ثم طلبت من نبيلة أن ترميها على مفترق طرق حتى يذهب الحسد.

في اليوم التالي كانت نبيلة مسرورة وهي تطرق الباب، فقد شُفي الولد ولم يعد يعاني من الصداع المزمن الذي أمسك به لمدة أسبوع دون أن يفلح دواء الطبيب في تخفيفه. كانت تحمل بين يديها صينية من الكنافة. جلست تحت الكينيا. تناولن الكنافة بصمت فيما كريستينا تصب الشاي بالنعناع. هكذا صارت نبيلة دائمة التردد على بيت كريستينا. كل مساء تطرق الباب مثلما فعلت في ذلك المساء حين جاءت بطفلها لترقيه كريستينا.

نبيلة حكاية أخرى لا يمكن لك أن تمر على الحارة دون أن تسمعها. أو ربما لن يكون من العدل أن لا تسمعها. أبناؤها الثلاثة في السجن، وقد مضى على أصغرهم عشرون عاماً- الطفل الذي رقته كريستينا. من يحتمل هذا الألم! ومن يقدر على هذا الفراق! يا الله كيف يمكن لامرأة أن تتحمل كل هذا! كانت تنظر إلى السماء وتقول: «واحد بس يالله». تقصد لو أن واحداً من أبنائها الثلاثة خارج السجن. تقول لكريستينا: «بنربي الولد بدمع العين، وبيجي السجن بوخذه بلمحة بصر». تهز كريستينا رأسها وتحاول أن تخفف عنها: «السجن أحسن من الموت. السجين مصيره يطلع».

صارلهم أكتر من عشرين سنة. لا اتفاق سلام ولا مفاوضات ولا شي طلعهم.

بطلعوا.

لما أموت يعني!

المهم يطلعوا.

صمتها أعمق من أي قول آخر. يمكن رؤية الألم يقصدر على وجهها، يجر عرباته بعنفوان وكبرياء وسادية على قباب خدودها، ثم يصعد مرة أخرى إلى جبهتها. كل شيء فيها تحسه يتألم. البنات تزوجن والأولاد في السجن وظلت هي وزوجها وحيدين في بيت من ثلاث غرف، يتأملان جدران البيت التي تشتاق إلى لمة من تربوا بين أكنافها. تحظى نبيلة باحترام عارم في الحارة. لا تنقطع عن عادتها في قيادة المظاهرات التي تطالب بتفعيل قضية الأسرى والعمل على إطلاق سراحهم. قالت للنساء ذات مرة والغضب يأكل وجهها:

أنا شو بدي بالمفاوضات إذا ما طلّعت الولاد. (صمت) التنتين.

وكانت تقصد مفاوضات السلام ومفاوضات تبادل الأسرى.

كانت تقيس كل شيء بمدى نجاحه في إخراج أبنائها من السجن. حتى في صفقة تبادل الأسرى التي تمت وعرفت بصفقة شاليط، استبشرت خيراً حين جاء الشباب وقالوا إن اسم ابنها الصغير مدرج ضمن اللائحة. قالت: «واحد أحسن من البلاش». لكن في اللحظة الأخيرة اختفى اسم ابنها من القوائم. بكت بكاءً لم تبكه ربما من قبل. أحست أن الفرصة الأخيرة لأن ترى أولادها قد ذهبت، لكنها لم تفقد الأمل رغم ذلك.

أما لطيفة فقد وجدت طريقها مبكراً إلى مجلس كريستينا حين دعتها الأخيرة ذات يوم لمشاركتهم «السهرة»، كما قالت في إحدى أماسي رمضان بعد الإفطار. يومها جاءت لطيفة بصحن من القطائف المخبوزة بالفرن قبل لحظات. دارت كريستينا بكؤوس الخروب وهي تروي نكتة على مسامع رفيقات السهرة. لطيفة مكافحة بكل

ما في الكلمة من معنى. هي ربة البيت الحقيقية، فزوجها أصيب خلال اقتحام الجيش للحارة في بداية السبعينات خلال عملية مطاردة لمحمد الأسود الملقب بـ«جيفارا غزة». الإصابة ألزمت زوج لطيفة الجلوس في البيت إلى أن تمكنت لطيفة من تدبير كرسي متحرك يتنقل عليه. بذلك انتقلت قيادة البيت من الزوج للزوجة، حيث صار لزاماً على لطيفة تدبر أمرها من أجل أن توفر قوت العائلة يومياً. بدأ الأمر ببسطة صغيرة في السوق تبيع عليها الملابس النسائية وملابس الأطفال.

كان من السهل مشاهدة لطيفة كل صباح خلف بسطتها تجلس على قطعة من الحصير فرشتها على الأرض، وتمتد أمامها الدكة الخشبية التي تتزاحم مساحتها الضيقة ملابس النساء الداخلية والجلابيب والبشاكير وملابس الأطفال. وفي البيت حيث تمتلك مساحة صغيرة تسميها الحاكورة لا تزيد مساحتها عن خمسين متراً مربعاً تربي لطيفة الدجاج والبط، وتضع الحمام في أقفاص تعلقها على الجدران. جزء من هذه الطيور مخصص لإطعام العائلة والجزء الأكبر الفائض تقوم لطيفة ببيعه في سوق الطيور يوم الجمعة. حياة قاسية لكن لطيفة كانت قادرة على جعلها ممكنة. بجانب كل ذلك كانت ترعى زوجها رعاية فائقة. فكانت تُرى كل مساء، وبعد أن تنتهي من عملها في السوق وتقوم على ترتيب شؤون البيت، جالسةً معه أمام البيت في الزقاق. تضع طاولةً خشبيةً صغيرة أمامهما، تضع عليها كأسَي الشاي وهما يتسامران، تخبره قصص السوق والمواقف الطريفة التي مرت بها طوال اليوم.

أما قصة إعاقة الزوج فتلك حكاية ستظل في أدراج العائلة الخاصة. لن تمحوها السنون، لكنها ستظل من تلك القصص التي

يحفظها الزمن بعيداً عن أعين الوشاة والمثرثرين. فزوج لطيفة كان فعلاً يعمل ضمن مجموعات «جيفارا غزة»، وكانت تُوكل له مهام كثيرة لتنفيذها ضد الجيش. لكن أحداً لم يعرف ذلك. وللصدفة فإن الكل بات مقتنعاً بأن إصابته خلال مطاردة جيفارا كانت صدفة، حتى الجيش اقتنع بذلك. فالرجل كان يحمل سلة الخضار ويسير في الشارع حين بدأ الجيش بمداهمة بيت اعتقد أن الرجل المطلوب رقم واحد وقتها في قطاع غزة مختبئ فيه. لم يكن يمر صدفة. كان يضع مسدسه تحت الخضراوات حين وقف داخل أحد الأزقة وبدأ يطلق النار على الجيش ليساعد بقية الرفاق في تشتيت جهد الجيش حتى يتمكنوا من الانسحاب. أصابته رصاصة في ساقه. طلب من رفيق بجواره أن يأخذ المسدس ويمضي، وهو سيتدبر أمره. سار قليلاً ثم أوقف سيارة وذهب للمستشفى ومعه سلة الخضار. جاء الضابط الإسرائيلي إلى المستشفى يتفقد المصابين ليعتقل بعضاً منهم. قال إنه كان قادماً من السوق حين جاءته رصاصة طائشة خلال الاشتباك. الضابط الذي اعتقل خمسة من المواطنين للاشتباه بهم أنهم كانوا يعملون مع جيفارا، هز رأسه غير مصدق ربما، لكن لا يوجد شيء في ملفاتهم يتحدث عن نشاطات له. لذا تركوه. وظلت القصة طي الكتمان. في الليل بعد شهر سيمر جيفارا لشرب الشاي عندهم والاطمئنان على صحته، ثم لن يمضي وقت طويل قبل أن يستشهد.

لطيفة تعرف كل ذلك. أيضاً هي لا تعرف أي شيء أمام الناس. البسطة الصغيرة صارت دكاناً بعد عشر سنوات. جسدها الذي بدأ العمر يأتي على رشاقته بالكاد كان يمر في المساحات الضيقة بين الرفوف الممتلئة بالملابس، وفي أوقات الراحة تجلس على كرسيها ذي المسند الطويل ترد التحيات على عابري السبيل الذين

يحيونها. كان يمكن الظن، بل يمكن التأكيد، أنها تعرف كل شخص في المخيم. وتستطيع أن تخبر عن عائلته وبقية أقربائه.

سيمضي الزمن وسيصير مجلس النساء مجلس لطيفة أيضاً الدائم خاصة بعد زواج أبنائها وبناتها إلا أصغرهم «منار» الذي لا يفكر في شيء إلا كيف يترك غزة ويسافر للخارج. «الولد بده يهج يا حجة»، تشكو لكريستينا. وتنزل دمعة من عينيها على حظ الولد العاثر في الحياة. قالت له أن يعمل معها في بيع الملابس، أن يفتح بوتيكاً للملابس الرجالية. أي شيء. المهم أن ينشغل بشيء يلهيه عن البحث عن الهجرة. باستثناء قلقها على مستقبل «منار» فإن حياتها تسير بهدوء وروية. كان المجلس والحكي «على الفاضي وعلى المليان»، كما تقول لطيفة، يملآن حياتها بالكثير من التفاصيل الجديدة.

الغريب في الأمر أن كريستينا لا تذكر لطيفة التي كانت جارتهم في الحارة. صحيح أن كريستينا تكبر لطيفة بأربع سنوات، إلا أن بيت لطيفة في يافا كان في ذات الشارع الذي سكنت فيه عائلة كريستينا. عموما كريستينا لا تذكر شيئاً عن عائلة لطيفة رغم أنها ستكتشف مثلاً أن والدة لطيفة كانت صديقة والدتها. بل إنها ستسمع تفاصيل عن حفلة عيد ميلادها الأخيرة في يافا حين اكتشفت العائلة مرضها من خلال لطيفة التي ستنقل الكثير من تلك القصص عن والدتها. لن تصدق! لقد كانت والدة لطيفة في الحفلة. وهي من جهزت بعض الطعام مع أمها.

الطائرة تركض على المدرج، ثم تبدأ بالإقلاع. تنظر كريستينا التي تجلس بجوار النافذة إلى أجنحة الطائرة تشق طريقها إلى فوق. كل شيء هادئ وساكن إلا هدير الطائرة الذي يتداخل مع هدير

الأصوات والصور والأحداث وهي تتزاحم في عقلها. ابتسمت وهي تتخيل ركاب الطائرة طابور الصباح في المدرسة التي كانت تقودها وداد ناظرة مدرسة البنات الإعدادية في المخيم.

في الحقيقة بات في المخيم أكثر من مدرسة، لكن وداد ناظرة المدرسة التي يقع في حضنها بيت كريستينا. لذا فإن تردد وداد على المجلس لم يكن إلا استكمالاً ليومها المدرسي الحافل. من يعرف وداد يظن أن المدرسة ابنتها أو هي جزء من العائلة. فدوامها في المدرسة لا ينتهي بانتهاء الدوام الرسمي، فهي أول من يصل للمدرسة قبل وصول أي معلمة أو موظفة، وهي آخر من يغادرها بعد أن لا يظل إلا هي وظلال أشجار السرو والكينيا. وعادة ما تُرى تمسح الأبواب أو تزيل الغبار عن الشبابيك أو تسقي ورود الجوري في الأحواض أمام الفصول، أو تقنب شجرات الليمون خلف غرف الإدارة. كل شيء فيها وفي حركاتها يقول إن المدرسة جزء منها.

أصعب اللحظات تلك التي كان عليها أن تتقاعد فيها من المدرسة. قال مدير التعليم في وكالة الغوث لها: «يا ست وداد هذا نظام لا يمكن تجاوزه». اقترحت أن تظل تعمل في المدرسة دون أن تتلقى راتباً. ضحك الرجل الذي يعرف الست وداد ويعرف أنها واحدة من أقدم اللواتي شغلن موقع ناظرة في مدارس وكالة الغوث في قطاع غزة، وقال إن هذا شرف كبير للمدرسة ولكن الأمر ليس بيده. عموماً لم تنقطع وداد يوماً عن المدرسة، إذ إن استمرارها في التردد على مجلس كريستينا منحها فرصة الحضور اليومي إلى المكان الذي تعرف تاريخ زراعة كل شجرة فيه، وتاريخ بناء كل حجر. رغم ذلك يجب القول إن معلمات المدرسة كن وفيّات لها. إذ إن ثمة صورة لها في غرفة المعلمات تتحدث عن دورها وإسهاماتها في تطوير

المدرسة. كما يقمن باستضافتها في بداية كل عام في طابور الصباح. والحقيقة أن بيت «الست وداد»، كما يجب مناداتها، لا يبعد عن باب المدرسة إلا مئتي متر، وبالتالي فإن المدرسة جزء من تلك التفاصيل التي لا تغيب عن حياتها، حتى لو لم تكن أهم من عمل فيها.

لكن هذه ليست كل القصة التي تربط وداد بكريستينا. الحياة في المخيم مليئة بتلك الحكايات التي تعبر عن نفسها تلقائياً، فأنت لست بحاجة للحفر عميقاً في ذاكرة الناس أو البحث بميكروسكوب في نسيج علاقاتهم الاجتماعية لاكتشاف هذا التشابك في علاقات قديمة قبل وجود المخيم نفسه، فذاكرة الناس أقدم من ذاكرة المكان الذي وجد كنتيجة لمحاولة طمس ذاكرتهم، لذا فإن تلك الذاكرة لمفارقة تلقائية هي من أعطت المخيم هويته. ولو لم يكن الأمر كذلك لتحول المخيم إلى تجمع لأناس مشردين يبحثون فقط عن البقاء. نقيضاً لذلك ظلت تلك الذاكرة هي الصمغ الذي حافظ على تماسك المخيم وجعل الحياة فيه ممكنة. بل هي من منح المخيم شكله وأعطاه حيويته. ليست فقط النار التي يتدفأ عليها الناس في صقيع الأيام القاتلة، ولا هي فقط المروحة التي تخفف عنهم حرارة الصيف تحت أسطح الزينكو، إنها صورتهم قبل غبار الشتات.

وقبل غبار الشتات كانت والدة وداد هي القابلة التي سحبت كريستينا من رحم أمها. هل ثمة مصادفة أكبر من تلك. في الحقيقة فإن هذا لن يكون اكتشافاً. إذ إنه وبعد عودتها لغزة عام 1958 كانت القابلة مازالت على قيد الحياة. رغم أنها امتنعت عن مزاولة المهنة بعد اللجوء. امتنعت عن أن تفعل ما كانت تفعله في يافا. ورّثت كبرى بناتها المهنة لتقوم بها نيابة عنها. أما هي فقد رفضت. وظلت في باطن وعيها تلك اللحظات الجميلة التي كانت تسحب

فيها الأطفال من أرحام أمهاتهم ليتنفسوا الهواء والحياة في يافا. كانت تضحك وتقول: «مش راح اسحبهم عشان يتنفسوا في الكانب». وكانت تقصد الكامب، أي المخيم. يومها نظرت في وجه كريستينا، بحلقت في عينها. شدت وجهها من تحت العين، كأنها تكتشف شيئاً مخبأ تحت الجفن، وقالت: «آه هاي بنت حياة».

تبقى نادية أصغر حاضرات المجلس. ولدت نادية لعائلة هاجرت من مدينة المجدل جنوب يافا. تربت كما تقول في النول. حيث كان والدها آخر من حافظ على مهنته كنسّاج يستخدم النول الذي قام والده بصناعته على غرار النول الذي كانت العائلة تمتلكه في مدينة المجدل قبل النكبة. النول الذي من خيراته عاشت العائلة، واستعادت بعضاً من مكانتها بعد الفقر المدقع الذي مرت به، بعد أن ترك والدها كل أملاكه في المجدل خلال الحرب. مازالت تحتفظ بثوب أمها المجدلاوي الشهير بتطاريزه وزخرفته والنجمة الكنعانية ذات الرؤوس الثمانية، تلبسه من فترة لأخرى خاصة في المناسبات. الثوب غزله والدها لوالدتها في المجدل وظل مع العائلة حتى اليوم. سألت كريستينا ذات يوم: «ليكون التوب اللي هاجرت فيه إمك من المجدل؟». هزت رأسها نافية وقالت إنها هاجرت بثوب آخر من نوع «جنة ونار»، وأن هذا الثوب جلبته معها احتياطاً. وما كان احتياطاً ماتت دون أن يعود مع بقية الأشياء إلى طبيعته ومكانه الطبيعي في الحياة.

تقود نادية مؤسسة للدفاع عن حقوق المرأة وتتمتع بعلاقات واسعة مع جهات كثيرة. ورغم أن راتبها مرتفع مقارنة بالكثيرين فإنها أصرت على أن تظل تعيش في المخيم. بَنت البيت في المخيم

بطريقة معقولة بعد أن اشترت بيتاً آخر بجواره وهدمتهما، وقامت ببناء بيت صغير بحديقة صغيرة أمامه مكانيهما.

المؤسسة التي تقودها وأيضاً التي أسستها قبل قرابة عشرين عاماً مع مجموعة من الناشطات، جعلت منها واحدة من أهم الناشطات النسويات في غزة. ومع قدرتها الخطابية فقد صارت شخصية عامة، كثيراً ما تشارك بالمهرجانات والندوات وتستضيفها الفضائيات للتعليق على بعض الأحداث سواء السياسية أو الاجتماعية والقانونية. في المجلس كثيراً ما تضع أمام النساء الأخريات الهموم الكثيرة التي تواجهها في العمل، وعدم القدرة على تغير المجتمع وصعوبة حل المشاكل التي تعصف به. كانت تلك القصص التي تتعلق بالشرف والقتل على خلفيته، وحرمان المرأة من الميراث وعدم تزويجها إذا كانت سترث ثروة كبيرة عن والدها من أجل الحفاظ على تلك الثروة، وحرمانها من السفر للخارج بمفردها للتعليم، وقصص كثيرة أخرى مواد دسمة للحديث وتبادل القصص الشبيهة. لكن تظل قصة طلاقها المعلقة في المحاكم منذ قرابة ثلاثين سنة الحكاية الأبرز في كل هذه القصص.

تزوجت نادية وهي لم تبلغ السادسة عشر. لم تملك قرار الرفض. والدها الذي وجد أبناءه يسافرون للعمل في الخليج ولا يعودون إلا للزيارة في الصيف، قال إن ابنته الوحيدة لابد أن تتزوج في المخيم، حتى تظل بجواره. وأمام أول متقدم لخطبتها وافق والدها. رفضت. بكت. نتفت شعرها. لم يُجدِ كل هذا شيئاً. قالت إنها تريد أن تكمل تعليمها. لم يكن هذا سبباً مقنعاً. عاشت سنتين من الذل والمهانة والضرب والسب والشتم. كان زوجها في بعض المرات يربطها برجل السرير، وفي مرات يمارس معها الجنس عنوة. حياة قررت

نادية أن تتمرد عليها. هربت من البيت. قالت لوالدها إنه إذا ضغط عليها وأرجعها لزوجها ستنتحر. كشفت له عن جسدها حيث أثر الضرب والتعذيب. بكى وهو يبتلع مرارة القرار الخاطئ الذي ارتكبه بتزويجها مبكراً ورغماً عن إرادتها. زوجها أصر على عدم تطليقها بل حاول أخذها من بيت أبيها بالقوة. بعد وفاة والدها، حيث لم يعد رجل في البيت، هجم على البيت يريد استرداد زوجته. فزعت الحارة وهبت للدفاع عن الصبية التي ملأت الحارة زعيقاً طالبة النجدة والحماية. رفض تطليقها رغم كل الوساطات والعروض.

أكملت نادية تعليمها الجامعي. وقبل تخرجها عملت في مؤسسة حقوقية. ثم قامت بتأسيس مؤسسة للدفاع عن حقوق المرأة مع مجموعة من الناشطات النسويات. بعد سنة صارت رئيس المؤسسة. وظلت هكذا إلى اليوم. بيد أن قصة الطلاق المعلق التي مر عليها قرابة ثلاثة عقود ظلت سحابة حزن تلوح كل ثانية في أفق الرؤية.

رغم ذلك فإن رأي نادية في الحارة كان مسموعاً نوعا ما، فهي امرأة قوية حتى في المجتمع. تظهر على التلفاز بشكل مستمر، فيما كل رجالات الحارة قد لا يعرفون طريقهم إلى الكاميرا إلا إذا جاءت الطواقم الصحفية لتعمل تقريراً ما فتأخذ رأيهم كمواطنين. أما نادية فهي ضيفة دائمة الظهور ليس على القنوات المحلية بل والفضائيات العربية.

أقلعت الطائرة من مطار اللد شرق مدينة يافا. مدت كريستينا رأسها لتطل على مدينتها لأول مرة منذ خرجت منها عام 1947، أي قبل أكثر من اثنين وستين عاماً. خفق قلبها وهي ترى المدينة مازالت ترقد بدعة بجوار البحر. مازالت تستطيع أن ترى بعض

بيارات البرتقال. رائحة الشوارع والمحال، هرولتها في البلدة القديمة بعد أن ينتهي يومها المدرسي مع فريال ومريم وسلطانة، موج البحر، رائحة شجرة التمرحنة في حديقة البيت، مشهد الوداع الأخير في الميناء. عبرت الطائرة البحر تاركة خلفها المدينة التي رأت فيها عينا كريستينا النور لأول مرة، محج ذكريات أهل الحارة، وقِبلة أمنياتهم.

تغرق كريستينا في بحر مضطرم من عوالم مختلفة، تسير فوق لُجينه سفينة ذكرياتها الواهنة، لكن الثابتة.

تعود لمجلسها في الحارة حيث سهيلة صديقة جمال عبد الناصر. هكذا كان ينادونها في الحارة. ولدت سهيلة في قرية الفالوجا، وحين وقعت النكبة كان عمرها ثماني سنوات. بالكاد دخلت مدرسة البنات التي شُيّدت حديثاً في القرية حتى بدأت المناوشات والهجمات على القرية من سكان المستعمرات اليهودية التي أقيمت حولها في السنوات الأخيرة. الفالوجا شهدت صموداً عز مثيله خلال النكبة من قبل قوات الجيش المصري الذي تحاصرت فيها، فيما عُرف بحصار الفالوجا الذي ضم إلى جانب قرية سهيلة قرى أخرى مثل عراق المنشية وحتا وكراتيا وعراق سويدان وغيرها. كانت أسماء الضباط المصريين الذين عاشوا بين سكان القرى محاصرين معهم تتردد في آذان سهيلة وتحفظها عن ظهر قلب، خاصة ذلك الضابط الأسمر الطويل الذي رآها تبكي ذات نهار قرب حقول الذرة خوفاً من صوت الانفجارات، فنزل من جيبه العسكري وحملها. أخرج حبة حلوى من جيبه وأعطاها إياها. حملها قليلاً ثم لما هدأت أنزلها وسار معها إلى بيتها بعد أن أشار للجندي بأن يذهب للموقع. وصلت البيت. خرج والدها ليستقبل الضابط

البطل. دخل عبد الناصر إلى صالون البيت. جلس على «حشية» من حشيات القطن. شرب الشاي وهو يلاعب سهيلة. ثم ذهب.

في ذلك النهار ذهبت سهيلة مع صديقاتها إلى حقول الذرة تبحث عن والدها الذي قالت أمها إنه في الخص الذي بناه قرب حقلهم. الخصاص منتشرة في المناطق الزراعية حيث يمضي فيها المزارعون وقتهم لمتابعة الأرض، وقد ينامون فيها في أوقات الحصيدة. تُغطي سطوحها بنبات الحلفا المكسوة بالطين الممزوج بالقصب. لم يكن أحد في الخص. نظرت من بين فتحات أغصان الأشجار الجافة التي تفصل خصهم عن الخصاص الأخرى والمعروف بالـ«الصيرة»، لم تسمع صوت الفتيات الأخريات. فقد عدن وتركنها. سارت وحيدة بين الحقول بعد أن تشابهت عليها، ولم تعد تميز طريق عودتها. بكت حتى مر الجيب العسكري ونزل منه جمال عبد الناصر.

سيواظب جمال عبد الناصر على زيارة العائلة، وجلب الحلوى لها، والمسح على رأسها وملاعبتها وهو يفتقد طفلتيه، ربما، اللتين تركهما قبل قدومه للمشاركة في الحرب. انتهت الحرب وانتهى حصار الفالوجا بعد شهور طويلة من الصمود رغم القصف والقتال المتواصل. واضطر أهالي الفالوجا إلى تركها. في ذلك اليوم كانت والدة سهيلة قد عجنت وطلبت من أطفالها أن يجمعوا القحاويش ، وهي عيدان الحطب الجاف، من أجل إشعال النيران في فرن الطين. وانهمكت سهيلة في جمع القحاويش ورميها في جوف الفرن. لم تكد أمها تنتهي من خبز خمسة أرغفة حين بدأت الطائرات والمدفعية تقصف القرية. غطت أحد الأرغفة بملعقة من السمن البلدي وأعطتها لسهيلة، حتى تكف عن البكاء. لم تكد تنهي مضغ لقمتها الأولى حتى اشتعلت النيران في بيت الجيران جراء وقوع

القذائف. تركت الأم الخبز على حاله ونيران الفرن تنتظر أرغفة جديدة، وحملت أطفالها وبدأت رحلة التيه.

صار عبد الناصر بعد ذلك رئيساً لمصر، وكانت سهيلة تجلس بجوار الراديو تستمع إلى خطاباته مثل كل أهالي المخيم بشغف وحماسة منقطعتي النظير. ظلت أشهر وسنوات تحلم بالضابط الذي كان يزورها في بيتهم في الفالوجا، يأتي إلى بيتهم يعطيها الحلوى ويسأل عنها. عبد الناصر الزعيم الكبير الآن، سهيلة أكثر شخص في المخيم يمكن له أن يتحدث عن مواقف لها معه، رغم أن الكثير من اللاجئين الفلسطينيين الذي جاؤوا من القرى التي تحاصر فيها عبد الناصر يروون قصصاً حميمة عن الرجل الذي تحاصر معهم وكان جزءاً منهم. بيد أن سهيلة يمكن لها أن تبدع في وصف الضابط والحكاية التي رواها لها حتى يُهّدئ من روعها حين وجدها تبكي قرب حقول الذرة.

حين زار جمال عبد الناصر مدينة غزة عام 1955، خرجت مثل عشرات الآلاف لاستقباله. في الطريق قالت لصديقاتها كيف سيقوم عبد الناصر بترك كل الناس والركض نحوها لضمها. وكانت تتخيل المشهد بثقة ونشوة. وصلت قرب مدرسة الزهراء حيث سيلتقي عبد الناصر بأعيان غزة. شقت طريقها وسط الجماهير الغفيرة، حتى تمكنت من الوقوف في أقرب نقطة تمر منها السيارة الرئاسية. صديقاتها يقفن بجوارها، يُمنين أنفسهن بأنه سينالهن من الحب جانب، كما يقول المثل، حيث إنه وعند قدوم عبد الناصر نحو سهيلة سيتمكّن من مصافحته. جاءت سيارة عبد الناصر. خرج، حيا الناس رافعاً يده وسط هتاف وتهليل كبيرين، مر من جوار سهيلة التي باتت شابة ناهدة بلغت الخامسة عشر. لم يقف ليضمها.

لم يلتفت لها. في الطريق إلى المخيم، أصابتها الخيبة وسحت الدمعة على خدها وهي تجر أذيال الخيبة وظلال الانكسار.

تحول العشق إلى كره، والحديث المعسول إلى غضب. لم تعد تسرد حكايات طفولتها مع عبد الناصر، ولم يعد طعم الحلوى التي أطعمها إياها عالقة في فمها. بل لم تعد تجلس قرب جهاز الراديو تستمع إلى خطاباته. حتى حين جاء بعد ذلك بعام في العام 1956 لم تخرج لاستقباله مثل صديقاتها. ظلت وحيدة في البيت، حيث خرج كل أهلها وكل الحارة لاستقباله. وستتندر صديقاتها بعد عودتهن من الاستقبال الجماهيري له قائلات: «سأل عنك عبد الناصر يا سهيلة». بل إن كريستينا ستتواطأ بعد ذلك معهن وهي تروي كيف حكى لها يوسف زوجها -وكان من ضمن الضباط الفلسطينيين الذين التقوا عبد الناصر- أن الأخير سأل عن سهيلة. وتنفجر ضاحكة مثل بقية النسوة.

لكن الشيء الكامن في القلب لا يذهب. بعد أن تزوجت سهيلة أسمت أول أبنائها «جمال». كانت تقول لكريستينا: «بهونش عليّ فيه». تقصد بجمال عبد الناصر. طبعاً سيكون لجمال من اسمه نصيب، إذ سيقع تحت تأثير الاسم الكبير الذي يحمله ويلتحق بمجموعات الفدائيين، وهو لم يكمل الخامسة عشر من عمره. يوم مات جمال عبد الناصر أغرقت سهيلة الحارة دموعاً ونحيباً. لم تخلع الأسود إلا بعد مرور عام كامل على رحيله.

كريستينا تعرف كيف تستدرج سهيلة للحديث. فقط عليها أن تنتقد سياسة عبد الناصر، أو أن تتظاهر أنه لم يكن بطلاً كبيراً كما يصورونه. وقتها لا تعرف كيف يخرج الكلام من فم سهيلة وهي

تدافع عن بطل طفولتها، الضابط الأسمر الطويل الذي أعطاها الحلوى وكان يواظب على السؤال عنها.

نشف ريق الحاجة كريستينا وهي تلاحق هذه الذكريات في أزقة عقلها، تفتح صناديق الذاكرة المختلفة، كل صندوق به صندوق أصغر، وهذا به آخر أصغر وهكذا. متوالية لا تنتهي، وأحداث تعصف باستقرارها والطائرة تشق طريقها بين الغيم قبل أن تستوي فوقه سابحة في بحر من البياض. إنه البياض الذي تبصر خلاله كريستينا حياتها الماضية في الحارة. طلبت من المضيفة كأس ماء، شربته وهي تعيد لف بكرة الذاكرة مثل عامل السينما يعيد تركيب شريط الفيلم.

كان رجال الحارة يقولون «ما بجيبها إلا نسوانها». وكانت الحاجة كريستينا تضحك وتقول الحارة اللي ما فيها نسوان بتموت. ويمكن عند قراءة سيرة الحارة القول إنها بطريقة أو بأخرى سيرة مفعمة بالنساء القويات القادرات على المساهمة الفاعلة في حياة الحارة وفي صناعة الأحداث فيها. فنبيلة مثلاً بسبب أبنائها الثلاثة الأسرى تعتبر خارج الحارة رمزاً وطنياً كبيراً، يحرص القادة السياسيين على زيارتها وبعضهم يقّبل يدها احتراماً. أما وداد فهي ليست أول ناظرة لمدرسة بنات في المخيم فقط، فهي إلى جانب ذلك شخصية بارزة في المخيم حتى إن أحد التنظيمات طلبت منها أن تترشح على قائمتها للمجلس التشريعي، لكنها رفضت. بالطبع من المؤكد أن هناك نسوة أخريات يشاركن في مجلس كريستينا. لكن هؤلاء هن أساس المجلس والشخصيات الأبرز فيه والأكثر تردداً. وكانت كريستينا تقول: «وحياة أصبعي المقطوع، إنها هالحارة من دون نسوان ما بتسوى».

كما بات من باب الوجاهة القول إن فلانة تذهب لمجلس النساء أو لمجلس كريستينا. وقد يغضب الرجل من زوجته ولا يقدر على الهيمنة على موقفها إذ تدحض موقفه وتهزمه فيقول: «شو تعلمتي عند كريستينا». ولسنا بحاجة للتأكيد بأن كل نسوة الحارة في مرحلة معينة من حياتهن لابد أن يجلسن تحت شجرة الكينيا حيث ينعقد مجلس النساء وحيث تدور كؤوس الشاي وتتبعثر الحكايات والقصص مثل فراشات يسحبها نسيم خفيف فوق لجة ماء.

لكن كريستينا الآن وهي تنظر في الغيوم التي تسبح وسطها الطائرة التي تقلها من موطنها إلى لندن، حيث عاشت قبل واحد وخمسين عاماً، ترى وجوهاً كثيرة، ترى الحارة التي كانت حكايتها أبرز قصصها، والتي تحولت فيها من مجرد غريبة يشّكون في أصلها إلى سيدتها الأشهر.

كانت صورة رجال الحارة يلتفون حولها وحول العم منصور فور وصولها للحارة أول مرة دامغة في ذاكرتها.. وجوههم، حركة أيديهم القلقة، أسئلتهم العابثة باستقرارها، كلماتهم، ضربات أرجلهم على الأرض، خوفهم وأيضاً ابتسامتهم. لكنها، رغم ذلك، أحست بوخز شعاع واهن، لكنه موجود، من الحب يصيب قلبها.

مجلس الرجال

فيما كانت المضيفة في الطائرة تصب لكريستينا كأساً من الشاي، كانت الذكريات تقصدر في عقلها. وعلى ما في ذلك من ألم إلا أنه متعة تُعينها على تحمل الغصة التي تحس بها وهي تترك عالمها خلفها، لا تعرف ماذا ستفعل في قادمات الأيام. موظف السفارة قال إنها ستعود إلى لندن، وإن كل شيء مرتب لها هناك. لم تفلح أسئلتها واحتجاجها في تغيير الأمر. ابتسم وطلب منها ألا تقلق. كأنه لا يعرف أن القلق يكاد يجهز عليها. تنتقل بين الآن والماضي، بين ما كان قبل وقت قصير عالمها الحاضر وبين المجهول الذي ينتظرها في الطريق. تشبه تلك اللحظات وقت حملتها الطائرة من لندن للقاهرة في طريق عودتها لغزة قبل واحد وخمسين عاماً. لا تعرف شيئاً، تحاول جاهدة أن تمسك بتلابيب عالمها مثل طفل يسحبونه بعيداً عن أمه، فيمسك بكل ما أوتي من قوة بأطراف فستانها. هكذا تفعل كريستينا الآن... تحاول أن تمسك جاهدة بحياتها.

ماذا عن مجلس الرجال؟

لا يمكن تقسيم الأمور بهذه الطريقة. ومن الصعب تخيل أن ثمة مجلسين في الحارة ينعقدان في مكانين مختلفين. ولكن لما كان

هناك مجلس للنساء فإن من المنطقي أن يكون هناك آخر للرجال. أو أن علينا أن نصدق كريستينا حين تقول إن رجال الحارة لا يجتمعون على كلمة.

لم يكن الأمر بهذه الطريقة، فرغم انتقادات كريستينا الحادة لرجالات الحارة، إلا أنهم رغم ذلك وفي لحظات معينة ومواقف محددة يلتقون ويجلسون ويتشاورون. قد لا يتفقون، لكنهم يحاولون قدر الإمكان تجنب الاختلاف. وحين نقول اختلاف فهذا يعني أن هناك مواقف كثيرة لا يتفقون فيها. بالطبع ليس هذا هو السبب وراء عدم وجود مجلس للرجال في الحارة. إذ إن وقوف الرجال المتكرر أمام بقالة حمدي أو على طرف أحد الأزقة، كان فرصة لتباحث شؤون الحارة.

عموماً لا يوجد ثمة مجلس دائم للرجال. فبعد موت المختار قبل تسع سنوات لم تعد الحارة تلتئم بطريقة متواصلة أو منتظمة. كان المختار يجمع الجميع في الغرفة الجانبية بجوار بيته. الغرفة التي عُرفت في الحارة لعقود مضت «مقعد المختار». أي مجلس المختار. كان صاحب هيبة ومكانة. كلمته صارمة قاطعة تسري على الجميع. ورث المخترة عن والده الذي ورثها بدوره عن والده، وهكذا. كل مشاكل الحارة تُحل في مجلس المختار. كل رجال الحارة يجتمعون عنده ويختصمون عنده.

مات المختار. لم يعد هناك مجلس أو مقعد أو أي شيء. انقسمت الحارة على نفسها. كل عائلة باتت ترى في نفسها الأحقية في وراثة المخترة. ولم يعد ثمة مكان مهاب الجانب، موضع إجماع الكل. تشتت الحارة بين المجالس العائلية الصغيرة التي بدورها اندثرت مع

الزمن. إذ سرعان ما دبت الحمية في كل عائلة لتشكيل مجلسها الخاص الذي كان كل أبناء العائلة يحرصون على حضوره من أجل استعراض تعداد العائلة وقوتها أمام العائلات الأخرى. ومع الوقت، وحين تفتر المنازلة وتخف المنافسة، ينشغل كل بأعماله الخاصة، وتفرغ المجالس العائلية ولا يظل شيء من كل ذلك إلا حقيقة واحدة وأبدية هو انقسام الحارة وتمزق شأنها، وغياب مجلس رجالها.

هل كانت القصة قصة مختار استطاع جمع الجميع تحت مظلة واحدة؟ أم أن الأمر يتعلق أكثر بالتغيرات الكثيرة التي ضربت الحارة والمخيم وكانت تُلزم تغيراً في نمط الحياة والعلاقات فيها؟ فالمختار الكبير حظي بمكانته وقوته وسطوته المعنوية على الجميع ضمن سياقات تاريخية واجتماعية مختلفة كانت النكبة والتهجير الجماعي أحد أهم مفاعيلها. فهو ورث تلك المكانة من رائحة الزمن الجميل الذي يملأ الصدر انشراحاً. إنه الزمن الذي يحلمون به وعنه. وبموته انتهى كل شيء. لم يعد هناك من يمكن أن يتمتع بهذه المكانة. ربما! لكن من المؤكد أن بحث الجميع عن وجود مجلس لعائلته يعني أن الأمر كان مجرد صراع على المكانة التي لم يعد أحد يشغلها.

الرجال فيما بينهم يتحسرون على تلك الأيام الجميلة. الكل يتحسر للدرجة التي لا يمكن لك أن تعرف ذنب من ما يحدث، أو من يعيق وجود مجلس للحارة عن قصد وتعمد. تضحك كريستينا وتقول لنديماتها: «ذنبنا نحنا». وتضحك النسوة. أما الرجال فإنهم ظلوا عاجزين عن تجاوز الأمر. وظلت الحسرة والبكاء على الأطلال واستذكار الماضي أفضل ما يبرعون به. فقد تجد أحدهم يقول: «سقا الله أيام المختار» أو: «لو أن المختار عايش لوضع حداً لهذه المهزلة». لكنهم يعرفون أن المختار لم يعد بينهم، وأن البكاء لا

يعيد فقيداً، ولا يشفي جرحاً. إنه الألم الأبدي الذي ينقعون أنفسهم به بلا سبب.

كانت الجلسة عند المختار تتم في المساء حيث يجلس المختار في صدر المقعد على كرسي من الخيزران خلفه صورة ضخمة لمدينة يافا تجلس فوق تلة تطل على البحر. وصورة والده المختار الكبير وجده. «اللي بده يعمل جمّال بعلى باب بيته». هكذا اقتطع المختار غرفة من بيته الصغير وفتح لها باباً جانبياً، وجعلها غرفة لمجلسه. أحد أبناء الحارة يَدور بفناجين القهوة وكؤوس الشاي على الجالسين. العادة أن يجلس كبار رجال الحارة. وكبار يمكن أن تعني نوعين من الرجال. الرجال النافذين في الحارة، وهم عادة كبار العائلات وبعض أصحاب المواقع الاجتماعية المهمة مثل ناظر المدرسة والشرطي. والنوع الثاني من الرجال يتمثل في كبار السن فعلاً الذين يشكل حضورهم استمراراً مندفعاً في صلب الزمن.

مر ذلك الزمن وانتهى. أو إنه مر بالنسبة للناس، خاصة حين يتعلق الأمر بالمجلس. مات المختار. لم يمرض فترة طويلة، ولم ينم في المستشفى لشهور ثم يرحل. فقط أفاق الناس على صوت ينادي في شوارع الحارة: «المختار مات». النحيب يندفع في النداء فيقّطعه أوصالاً. مات المختار بلا مقدمات. في الليلة الماضية حين كان يجلس في مقعده بدا غاضباً وهو يتحدث عن الوضع السياسي الداخلي ويسب ويلعن. لم يترك أحداً من حديثه. الكل مدان. «هيك صار في البلد!!!». ودق عكازه في الأرض بعنف حتى اهتزت الصخور داخل جوف الأرض. ثم تناول سيجارة من علبة السجائر المعدنية القديمة التي يضع فيها سجائره، سحب نفساً عميقاً وقال: «يا عيب الشوم، هيك صار بالبلد». واندفع مجالسوه يبدون الآراء

ويتناولون الأوضاع، كلٌّ وفق موقفه وقناعاته. صوتهم يخلق ضوضاء من المحتم أنهم خلالها لا يفهم بعضُهم بعضاً لأنهم لا يستمع بعضهم إلى بعض. ضحك المختار ساخراً. «يا جماعة اسمعوا بعض». ثم سأل نصري المحامي: «شو صار بقصة طلاق نادية!!».
كان السؤال لتغير الموضوع ليس إلا. وانتهى الحديث ومضى المختار إلى النوم في تلك الليلة حيث لن يفيق أبداً.

ولما لم يرزق الله المختار بذرية من الذكور فقد توقفت المخترة في بيتهم، ولم تتفق حمولة المختار على وريث له، كما لم تتفق عائلات الحارة على مختار جديد. عموماً شهدت الحارة نقاشات وخلافات وعداءات كثيرة بسبب الأمر، غاب خلالها العقل وضاعت الحُجة أمام طغيان الغضب والمزاجية. وهكذا أُغلق باب المجلس أحمر اللون وما عاد يُفتح، وظل صدى الصوت داخل الغرفة الدافئة التي احتضنت هموم الحارة لنصف قرن من الزمن يتردد بألم وعتاب في آذان المارة كلما خطروا من الزقاق الواسع الذي تقع فيه دار المختار.

تغفو الحاجة الآن في الطائرة ويبدو كل شيء مجرد شذرات من عالم آخر. تشعر بقليل من البرد تشد البطانية الرقيقة التي وجدتها على كرسي الطائرة، تغطي قدميها. قشعريرة تسري في جسدها. تتمتم ببعض العبارات التي لا يمكن أن تنتمي لأي لغة، كأنها قادمة من كوكب آخر. بين فينة وأخرى تند عنها تنهيدة تسري من الطائرة إلى بحر الغيوم الذي تسبح فوقه. بحر الأحلام. بحر الماضي. بحر الذكريات. بحر واحد وخمسين عاماً. بحر الفرح والألم. بحر الحارة التي صارت خلف ظهرها الآن. بحر تفاصيلها الدقيقة وعوالمها المتشعبة ونسائها ورجالها الذين باتوا جزءاً من وعيها عن نفسها.

عموماً، ظلت مجموعة صغيرة من رجالات الحارة تجتمع بين فينة وأخرى أمام بقالة حمدي يتناقشون في همومهم الشخصية، ومشاكل الحارة يشربون الشاي ويمضون. بقالة حمدي هي أقدم بقالة في الحارة أو ربما يصح القول إنها بقالة الحارة. بدأت البقالة بغرفة لبيع مواد السمانة حيث كان حمدي، حين كان شاباً وقتها، يشتري بعض المواد الغذائية التي يحصل عليها الناس عبر بطاقة الإعاشة والتموين من وكالة الغوث، ويبيعها للبعض الآخر الذي لا يحصل عليها. ثم بدأ يشتري بعض المواد الأخرى من سوق الزاوية في مدينة غزة. وهكذا توسعت البقالة وصارت دكاناً كبيراً يبيع من الحامض للحلو كما يقول حمدي. على باب البقالة ثمة ساحة واسعة مسقوفة ومحاطة بسور من مواسير حديدية وشجرة ياسمين تتشعبط أحد جوانبها. يضع حمدي كرسيه القش ويجلس. في مساءات الصيف ينظف أرجيلته بعناية فائقة. يضعها أمامه، وقد اعتلى المعسل العجمي رأسها الفخاري، ويبدأ بسحب أنفاسٍ تملأ الحارة برائحة التبغ.

البقالة الصغيرة تاهت الآن بين الدكاكين والسوبرماركتات الضخمة التي انتشرت على أطراف شارع الحارة وفي المخيم. وعليه لم تعد تجذب الكثيرين إلا هؤلاء الزبائن الذين مازالوا متمسكين بها. أولاده كانوا يساعدونه في الدكانة حين كانوا صغاراً. الأولاد تعلموا وكبروا وتزوجوا، فمنهم الطبيب ومنهم المهندس ومنهم من وجد حياته مع فتاة روسية تزوجها خلال دراسته هناك وعاد بها إلى غزة. كان يهز رأسه ويقول: بعد ما أموت يعملوا فيها اللي يعملوه. حمدي سعيد بنجاحه في حماية العائلة من الضياع. هو يعرف معنى الضياع ومعنى التشرد ومعنى أن لا تجد لقمة خبز تضعها في

فمك. يعرف شعوره القاسي وهو يمشي فوق سوافي الرمال المغبّرة في نهاية نيسان من العام 1948حيث لم يجد ما يأكله ليومين. اضطر وقتها لأكل ورق شجرة خوخ على الطريق، بكى وقتها، أحسن بالعجز، التحق بالعائلة في غزة حيث اهتدى عليهم بعد شهر تقريباً.

الهدف الوحيد الذي وضعه نصب عينيه منذ ذلك الزمن كان ألا يجوع. لقمة العيش أولاً. يجب توفير لقمة العيش قبل أي شيء آخر، كثيرون ماتوا قهراً من الجوع والعطش في رحلة الخروج المر من يافا ومن القرى والمدن الأخرى عام 1948. يعرف هذا الشعور. الآن وحين ينظر للخلف لتلك السنوات التي مرت وهو يقف خلف طاولته الصغيرة يبيع المواد الغذائية للناس ثم يعود بالمال الكافي ليعيش حياة كريمة، يشعر بالرضا على الأقل أنه لم يضطر يوماً لمد يده للناس، ولم يجع.

أيمن أستاذ جامعي، يتردد على البقالة والجلوس مع حمدي. أنهى تعليمه الجامعي في القاهرة مبكراً. شغفه باللغة والأدب حمله لدراسة الشعر العربي القديم. سأله والده حين هاتفه من القاهرة ليخبره أنه سيواصل تعليمه لنيل درجة الماجستير والدكتوراه: «وشو راح تشتغل بعدها؟».

راح أدّرس في الجامعة.

يعني مُدرس!

يعني..

نفس الشي يا بني، تعال ارجع ودّرس في البكالوريوس في مدارس الوكالة أريح.

مدارس شو يا حج. بصير أستاذ جامعي.

يعني كلها أستاذ بأستاذ يا بني.

الأب اقتنع في النهاية، وواصل أيمن دراسته الجامعية. وحين عاد في بداية ثمانينات القرن الماضي لم يكن هناك إلا جامعة واحدة في غزة. ذهب للتدريس في جامعة بيرزيت حيث عمل هناك أكثر من عشر سنين، ثم عاد إلى غزة في أوائل التسعينات حيث سيعمل أستاذاً في جامعة الأزهر بغزة بعد فتحها. لسبب لا يعرفه أحد حتى الآن لم يتزوج أيمن بالمطلق. ها هو يسير بهدوء وثقة في عقده السادس دون أن يتزوج. إشاعات كثيرة تناقلها الناس حول ذلك. لكن المؤكد أن أياً منها لم تكن الرواية الصحيحة.

حمدي عرف مع الوقت أطرافاً من القصة التي تتعلق بحبه لفتاة في نابلس خلال عمله في جامعة بيرزيت، رفض أهلها تزويجه إياها. الأسباب كثيرة، فرق السن كان السبب الظاهري الأسهل فيها.عموماً بات هذا الحديث من الماضي، ربما، إذ إن ثمة همساً لا يمكن نفيه عن علاقة حب متأخرة تجمع بين نادية وأيمن. هل تصدقون؟!

قصص نادية تتكشف مع مرور الوقت. ونصري المحامي قد يهمس في أذن حمدي بأن نادية باتت أكثر إصراراً على الطلاق لأن هناك مشروع زواج من أيمن. مشروع الزواج الذي بات حاجة مع الوقت. لم يصدق حمدي أن أيمن يمكن أن يعزف عن عزوبيته ويتزوج أخيراً. ضحك نصري وهو يمج مبسم غليونه وقال: «هاي نادية والأجر على الله». وضحك حمدي وهو يقول: «بنت غلبانة كوّنت حالها لحالها، وبتشتغل ليل نهار».

يعيش أيمن وحيداً في بيت العائلة في المخيم. حياته أكثر يسراً من كثيرين بسبب دخله المرتفع نسبياً في الجامعة. يمتلك سيارة منذ عودته إلى غزة في أول التسعينات. قام بتجديد البيت وبنائه حيث صار مكوناً من طبقتين. مئات الطلاب تخرجوا من تحت يديه. كان مغرماً بمحمود درويش حيث يزين صالون بيته صورة تجمعهما خلال إحدى ندوات درويش.

الجلسة أمام بقالة حمدي كانت الشيء الوحيد الذي يقوم به في المساء، إذا لم يكن منهمكاً بقراءة كتاب أو مشاهدة فيلم أو مسلسل. يحلم مثل جماليبناء مكتبة عامة في المخيم. «تخيل أكثر من مائة وعشرين ألف نسمة لا يوجد لديهم مكتبة عامة!».

رد حمدي: هي أجت على المكتبة يا دكتور. كتير أشياء مش موجودة عنا.

بس المكتبة شيء أساس.

يعني لو ما لاقي الواحد رغيف خبز، فكرك راح يفكر بالكتاب؟

طبعاً لأ، بس لازم يكون فيه مكتبة.

صمت حمدي عميقاً وقال بشرود:

أهم شي ما ييجي يوم يوكلوا ورق الشجر. ورق الكتاب مش كتير مهم.

أحس حمدي بالإحباط الذي رشقه على وجه صديقه. قال بلغة مداعبة:

بس أنا جاهز للي بدك إياه. يوم ما تفكر نعمل مكتبة أنا جاهز إش مطلوب مني راح اعمله وزيادة كمان. أنا بحب القراءة كمان. لو ما صارت النكبة كان كملت تعليمي وخلصت وصرت معلم زيك يمكن.

أما نصري المحامي فهو من أوائل من فتح مكتباً للمحاماة في المخيم. إذا إن معظم المحامين يفتحون مكاتبهم في مدينة غزة بجوار المحاكم. في بداية عمله كان يترافع في محاكم جيش الاحتلال لصالح أبناء المخيم الذين يُعتقلون بسبب مقاومة الجيش. يقوم بزيارتهم في السجون بعد خروجهم من التحقيق القاسي معهم في أقبية الزنازين. ينقل أخبارهم لأهلهم، وفي مرات كثيرة كان ينقل معلومات من الأسرى في التحقيق إلى رفاقهم الذين مازالوا في الخارج يواصلون الطريق، معلومات تتعلق بمسار التحقيق وبالمعلومات المتوفرة لدى الجيش.

اليوم ينشغل نصري أكثر بقصص الطلاق والميراث والخلافات التجارية. كل زمن له قضاياه وله مشاكله. فمع قيام السلطة الفلسطينية في العام 1994 توسعت المحاكم وتطور النظام القضائي بحيث بات هناك محكمة في كل تجمع سكاني، وصار للمخيم محكمة تقع ليست بعيداً عن السوق. أيضاً جلب الوضع الجديد معه مشاكل من نوع آخر. في البداية عرض عليه أحد الأسرى السابقين الذي بات مسؤولاً في السلطة الجديدة أن يعمل في وزارة القضاء أو حتى في وزارة الأسرى والمحررين. قال له إن دورك كان هاماً في المرحلة السابقة. ابتسم نصري وقال: كنت أريده فقط في المرحلة السابقة، ليس بالضرورة أن يكون في المرحلة الحالية.

في الحقيقة نصري من الذين قالوا لا لاتفاق أوسلو بصراحة، وقالوا إنه لن يحقق الغاية من ورائه. قال لصديقه الأسير السابق إن الاتفاق لم يُخرج كل رفاق الدرب الأسرى الذين مازالوا يقبعون خلف القضبان. ابتسم الأسير السابق، أو بالأحرى المسؤول الجديد، وقال لا تقلق سيخرجون. قدح نصري عود الثقاب ليشعل تبغ الغليون، فهب اللهب عالياً وأحرق جزءاً كبيراً من العود. «لما يطلعوا كلهم راح اشتغل في السلطة». وسيثبت الزمن أن عقدين ونيف سيمضيان ولن يشتغل نصري في السلطة.

نبيلة تجد فيه أكثر من يستمع لمناجاتها وهي تتذكر أولادها الثلاثة الذين لم يخرجوا رغم أن الآلاف قد خرجوا. كانت تبكي وتقول له: «شو كانه السجن انبني لولادي بس». كمشة السلامات والأشواق التي كانت تحملها نبيلة من الأولاد في المرات النادرة التي يسمحون لها بزيارتهم، كانت تغرق عينيه بالدموع. يتذكرهم شباناً صغاراً حين دخلوا السجن وها هم صاروا رجالاً تجاوز كبيرهم الخامسة والأربعين. الزمن يمضي وهم أكثر إيماناً من أي شخص آخر بأن حريتهم على الأبواب. مثل نبيلة يعيش نصري في ذلك الزمن الذي لا يمكن للأحلام أن تموت فيه.

الآن يعمل أكثر على قضايا اجتماعية حيث ارتفعت نسبة الطلاق في المجتمع بشكل ملفت. خلافات على الميراث. تطلب المؤسسة التي تقودها نادية خدماته في الترافع عن حقوق المرأة خاصة فيما يتعلق بحرمان بعض الفتيات من الميراث، وعدم تزويج بعضهن خوفاً من تفتت ميراث العائلة.

تحسَّن وضعه كثيراً في السنوات الأخيرة، إذ توسع المكتب وتخرج ابناه من كلية الحقوق وباتا يعملان عنده. يسلمهما الراية

تدريجياً، ويكتفي بالاستشارات والتوجيه، فهما باتا قادرين على استكمال كل القضايا ومتابعتها. في المساء وأمام البقالة يقص على الجالسين بعض الحكايات الغريبة من داخل المحاكم. حكايات تكشف المخبوء في المجتمع والمسكوت عنه. يقول فقط يمكنك التعرف على المجتمع أكثر من داخل قاعة المحكمة حيث تعرف غرائب القصص والحوادث التي لا يخطر بعضها على بال، وتعري الشر على حقيقته داخل الروح الإنسانية. وفي مرات كثيرة يظل صامتاً طوال السهرة حتى يسأله أحدهم: «شو يا أستاذ نصري كيف مجتمعنا؟!». أما كريستينا فكان لها معه جلسات خاصة يسرد عليها كل ملفات محاكم غزة وهو يضحك على «قفشاتها» اللاذعة على كل قصة. «هات كمان يا أفوكادو»، تقول كريستينا وهي تضحك.

يصعب اليقين إذا ما كانت كريستينا تحلم الآن وهي غافية في الطائرة، أم إن الذكريات تموج أمام عينيها، فيما المضيفات يبدأن توزيع وجبات الطعام. كل شيء بدا حلماً، هلوسةً، خيالات، ذكريات: صوراً مبعثرة من الماضي ينظمها الحنين، فتبدو حكاية واحدة.

جمال المناضل السابق الذي أمضى عقداً ونصفاً من عمره في السجن أكثر الجالسين حديثاً وغضباً وسخطاً. من السهل أن تظن أنه وُلد ليحتج، أو أنه خُلق من أجل أن ينتقد. سنوات عمره الجميلة أمضاها في السجون بسبب انتمائه لمجموعة عسكرية. خرج في صفقة تبادل الأسرى عام 1984 ثم عاد إلى داخل السجن لخمس سنوات أخرى. الآن بدا كل شيء بالنسبة له مختلفاً. لم يصدق أن آخر الرحلة قد تكون بهذه «التعاسة» كما يقول. لم يصدق أنه أمضى أجمل سنوات عمره من أجل ألا يتمكن مثلاً من الخروج من غزة، وأن يظل أسيراً داخل حدودها لا يستطيع السفر. بغضب سيقول: استبدلنا سجناً

صغيراً مساحته بضع أمتار بسجن كبير مساحته بضع كيلومترات- يقصد قطاع غزة.

محل القرطاسية الصغير الذي يملكه في شارع المدارس مازال على حاله. فيما مضى كان المحل نقطة تجمع الرفاق حيث يتداولون في التنظيم العسكري ومستقبل العمل الوطني، ويخططون لنشاطاتهم. من داخل المحل كانوا يأخذون التعليمات على قصاصات من الورق ويغادرون لتنفيذ مهامهم. المحل مليء بالكتب التثقيفية التي كان جمال يعيرها للناس بلا مقابل. يقول: «بس اقرأوا». رغم ذلك كان المحل يدر عليه دخلاً كافياً لأن يعيش حياة كريمة. تغيرت الدنيا وتبدلت وبقي المحل على حاله. افتتح البعض محلات قرطاسية ضخمة بفاترينات عرض واسعة، وجلبوا لها مواد وإكسسوارات لا يعرفها جمال، أما محل جمال الذي أسماه محل «العودة» فلم يتغير بالمطلق. ظل على حاله منذ اليوم الأول الذي افتتحه فيه في منتصف السبعينات حين كان وقتها شاباً لم يبلغ العشرين. حتى حين أمضى سنوات السجن ظل المحل قائماً إذ كان والده العجوز وقتها يقوم بفتحه والعمل فيه. صار المحل هوية جمال وبطاقة التعريف به. رغم ذلك فإن الرفاق القدامى من أبناء جيله مازالوا يفدون إلى المحل ويجلسون مع جمال كأنهم يستعيدون عنوةً، رغماً عن الزمن، ألق الماضي.

لابد أنكم تدركون الآن أن جمال هو ابن سهيلة. لم يهن عليها بطل طفولتها، فأسمت أول خلفتها باسمه. اسم جمال شائع في ذلك الوقت خاصة إذا عرفنا أن جمال ولد بعد عامين من العدوان الثلاثي على مصر وتأميم جمال عبد الناصر لقناة السويس. خلال العدوان احتلت إسرائيل قطاع غزة ولم تتركه إلا في شهر مارس من العام 1957 فيما عرف بـ«عيد الجلاء» وسمى شارع الجلاء، أحد أهم

شوارع غزة بهذا الاسم. حملت سهيلة الطفل بين يديها وهي تتمنى له حياة مثل حياة بطلها. قال لها زوجها: «والله ما أنا عارف على شو سميتي هالولد جمال بشوف احتلونا اليهود وهزموا عبد الناصر». أطرقت سهيلة حزينةً تتأمل المَدة الأسمنت التي تُكسى بها أرضية الغرفة وقالت: «بكرا بنتصر يا ابن الحلال». خلال احتلال غزة خرج والد جمال في المظاهرات المعادية للاحتلال. وكان ضمن الشباب الذين حاولوا رفع علم فلسطين فوق مبني السرايا يوم أطلقت قوات الطوارئ الدولية النيران على الرياضي الفلسطيني «محمد مشرف» وهو يحاول رفع العلمين الفلسطيني والمصري. غنت له الناس يومها: «علمنا برفرف رفعه محمد مشرف». بعد هزيمة 1967 قال لسهيلة: «بشوف بكرا تبعك ما راح يجي».

الأسماء أعباء، وحكاياتها هاجس يطارد أصحابها. فقد تحدد شخصياتهم رغماً عنهم، أو أنهم يكيفون أنفسهم وفقها. فجمال الذي ولد وكبر في فترة حكم جمال عبد الناصر عشق الرجل منذ صغره حتى حين رحل عبد الناصر خرج يبكي مثل الكثير من سكان المخيم في الجنازة الرمزية التي أقاموها له. كبر وهو يسمع تلك القصص الكبيرة عن عبد الناصر وبطولاته. ناهيك عن قصص أمه الخاصة عن بطلها الأسمر الذي أنقذها من الضياع. كانت ترضعه تلك الحكايات مع الحليب من ثديها. أحب عبد الناصر بالفطرة. صورة عبد الناصر التي وضعتها والدته قبل ولادته في صدر البيت ظلت هناك مكانها لم تغادره حتى اللحظة منذ أكثر من نصف قرن من الزمن.

الآن يجلس في المساء أمام بقالة حمدي يحلل كل شيء يسمعه. السياسة تجري في دمه. قد يقول حمدي في نفسه إن جمال لا يفهم في

شيء إلا في السياسة. يتحدث حتى في القضايا السياسية الكبرى من احتلال العراق إلى صعود اليسار في أمريكيا الجنوبية. يدمن سماع الأخبار. لا تفوته نشرة إلا حين يكون خارج المحل أو خارج البيت. ما عدا ذلك فإن الراديو رفيقه الذي لم يتركه. عادة اكتسبها من والده. احتج نصري المحامي مرة وقال: يا رجل الدنيا فيها أشياء غير السياسة.

في الحقيقة كان جمال يشعر بالإحباط الكبير من مآلات الوضع الراهن. لم يكن يصدق أن كل شيء جميل قام به هو ورفاق دربه، وسنوات العذاب داخل السجن، والأمل الكبير الذي كانوا يرون شعاعه يبرق أمامهم، قد انتهى وتحول إلى مجرد دولة لم تتحقق أو صراع على سلطة غير موجودة أصلاً، وليست صاحبة سيادة. هنا كان يتفق مع نصري الذي كان يشعر بغصة في حلقه وهو يتأمل ما يجري. قد يقول: بصراحة الشباب عندها حق أنها نفسها تسافر. تخيل لو أن فرصة السفر متاحة للجميع، لرأيت نصف الشباب تهاجر. ضحك حمدي وقال: يا جماعة أصلاً لو المعابر مفتوحة والكل يمتلك حرية التنقل والخروج والدخول لغزة لما كان هناك حاجة كي يسافر الشباب ويهاجرون.

منار، ابن لطيفة، نموذج من أولئك الحالمين في السفر. لا يمكن الحديث عن السفر دون الرجوع إليه. ولما كان أحد أركان الجلسة أمام بقالة حمدي فإنهم بالطبع سيلتفتون له يأخذون رأيه. رأيه؟ سؤال غريب حقاً. لو صح له أن يسافر الآن لتركهم وسافر فوراً. لن ينتظر كثيراً سيقوم للبيت يحمل حقيبته ويغادر. سيقول إن حقيبته جاهزة دائماً. لن يعيقه شيء. ما يعيقه فعلاً هو الإغلاق المتكرر لمعبر رفح المنفذ البري الوحيد الذي يربط غزة مع العالم

الخارجي، بجانب معبر إيرز (الذي لا يمكن المرور منه بسهولة بسبب إغلاقه من قبل القوات الإسرائيلية). غزة سجن كبير، سجن لا يحس سكانه بالجدران. لأنهم يرون البحر ويعتقدون أنه نافذة على العالم الخارجي فيما هو سلك شائك آخر. كل شيء في غزة سلك شائك، حاجز، جدار، عائق. لو ولد منار في مكان آخر، كما يقول للرجال في المجلس، لكان وضعه الآن مختلفاً. من المؤكد أن مستقبله كان أكثر تفتحاً. لكن لا أحد يختار مكان ميلاده، كما سيقول.

ها هو يغادر عقده الرابع بلا وظيفة وبلا زواج وبلا مستقبل. في الانتفاضة الأولى سجن وهو يلقي الحجارة على الجيش. أمضى ثمانية عشر شهراً في سجن النقب الصحراوي، خرج بعدها ليواصل حياته. تقدم لامتحان الثانوية العامة وبعدها التحق بالجامعة حيث أنهى دراسته في الفيزياء. لم يجد عملاً رغم أنه تقدم لعشرات الوظائف. كان يعرف أن الحل الوحيد أن يعمل مدرساً، لأن من يدرس الفيزياء لا خيار آخر له. قالت له لطيفة: «وين بدك تشتغل؟ في مفاعل نووي!». وكانت تقنع به أن يعمل مدرساً. هو لا يعرف أي حماقة أصابته كي يدرس الفيزياء. ظلت صورة أستاذ الفيزياء في المدرسة الثانوية لاصقة في عقله. الأستاذ سُجن فيما كان «منار» في السنة الأولى ثانوي. وشاعت قصص كثيرة عن بطولات الأستاذ في التحقيق وصموده الأسطوري حيث أمضى قرابة سنة في التحقيق دون أن ينطق بحرف. حين دخل «منار» سجن النقب كان الأستاذ هناك يمضي آخر خمس سنوات في محكوميته. كان بالنسبة له قدوة في كل شيء.

لكنه سيتألم حين يكتشف أن الفيزياء فعلاً في غزة لا تصلح إلا للتعليم في المدارس. رغم ذلك أخذ أكثر من دورة في مجالات مختلفة من القيادة إلى إدارة المؤسسات والمشاريع والتثقيف المدني. لم

يدع دورة تدريبية إلا أخذها لعله يجد عملاً في إحدى المؤسسات. لكن بلا فائدة.

حمدي سيقول له إن الحق عليه أصلاً فهو مسكون بفكرة السفر والهجرة من غزة منذ كان شاباً صغيراً. لذلك لم يكن يبحث عن عمل بطريقة صحيحة. يصمت «منار» ويسأل وماذا إذا وجد عملاً. هل المشكلة هي مشكلة عمل؟ آلاف الناس لديها أعمال جيدة ولديها مصادر دخل مستقرة، لكنها غير سعيدة. يوجه إصبعه نحو نصري المحامي: «أنت سعيد!!»، ثم نحو الدكتور أيمن: «أنت سعيد!!»، ثم نحو حمدي: «أنت سعيد!». طبعاً يتجنب الإشارة لجمال لأن الأخير لن يجامله سيدخل معه في نقاش حامي الوطيس.

حمدي عرض عليه ذات مرة أن يعمل لديه في البقالة. أن يساعده. أحس «منار» أن العرض نابع من الشفقة. رفض وقال إنه لا يريد أن يرتبط في البلاد بأي شيء. إنه نفس السبب الذي رفض فيه كل رجاءات أمه لطيفة أن يتزوج، أو حتى أن يساعدها ويعمل في محل الملابس، أو أن يفتح بوتيكاً. قالت له إنها ستتكفل بكل شيء. تريده أن يبقى هنا، أن تفرح به قبل أن تموت. يرفض وبشدة ويقول لأمه إنها لن تموت، سترى أولاده ولكن بعد أن يهاجر ويتزوج. العمر يمضي وتحس لطيفة أن حياة ابنها مبنية على أحلام لا تجد لها بساطاً تطير عليه حتى.

حسن البحار أكثر الحضور صمتاً. معظم الوقت يلف سيجارته من علبة تبغ حديدية مليئة بالتبغ والأوراق. شاربه تكسوه الصفرة من الدخان. ذراعاه وأصابعه معرورقة من شدّ الشباك. لا جدال، فحسن وُلد لعائلة بحارة، ورث البحر من والده ومن جده

ومن جد جده، ويمكن له أن يتابع حتى يصل إلى يوم خلق الله يافا. لكنه لم يكن محظوظاً فهو لم يصد في بحر يافا. إذ إن العائلة هاجرت وهو طفل بالكاد بلغ السنوات الأربع. لكنه سيضحك وهو يتذكر كيف غسله أبوه في البحر في يافا وهو لم يبلغ السنة. عادة والده التي ورثها عن أجداده أن يغسل الطفل في البحر قبل أن يبلغ عامه الأول حتى يتعلق في البحر. وتعلق حسن في البحر لكنه لن يحظى بفرصة الصيد في بحر يافا.

بعد النكبة عمل حسن صياداً في بحر غزة. حتى تلك الأيام كانت أجمل كما يقول حسن. يتذكر حسن كيف تعلم الصيد في مركب والده الصغير الذي كان يشترك فيه مع صياد آخر. كانوا يبحرون حتى بورسعيد في مصر وفي مرات بجوار قبرص والإسكندرية. الآن بالكاد يبلغ حسن ورفاقه ثلاثة كيلومترات في البحر قبل أن يوقفهم الطراد الإسرائيلي، فمساحة الصيد المسموح بها فقط ثلاثة كيلومترات، وفي أحسن الأحوال قد تصل ستة أو ثمانية. في السنوات العشر الأخيرة لا يذكر حسن أنه تجاوز هذه المساحة. صديقه سلامة أغرق الطراد الإسرائيلي «حسكته» وقتله في قلب البحر لأنه اقترب من حدود الكيلومترات الثلاثة. كاد أن يتجاوزها. لم يفعل، لكنه كان بالقرب من نهايتها ونهايته.

في مرات عديدة تحاصر الطرادات والبوارج الحربية الإسرائيلية سفن الصيد. ويقفز الجنود يفتشون الصيادين ويفتشون الأسماك التي اصطادوها، ويعبثون فساداً في المراكب ويكّسرون لمبات الإنارة ويمزقون الشباك. وفي مرات أخرى قد يعتقلون بعضهم، وينهالون بالضرب على البعض الآخر. مسلسل رعب. صفية زوجته باتت

أكثر المطالبين بتركه لمهنة الصيد. لا تريد أن تخسره أو أن تخسر أحد أبنائها. شكت لكريستينا أكثر من مرة خوفها من شيء لا تعرفه.

لكن حسن متمسك بالبحر. فهو تربى فيه، وخيرات البحر هي من حمت العائلة من التسول، كما أنه وصية أبيه. إذا ترك البحر أين سيذهب. صحيح أن المهنة اختلفت، وأن المعيقات باتت قاتلة، لكن لا مكان آخر لحسن إلا البحر. في البحر متعة لا تُضاهى. نجح في زرع هذا الحب في قلوب أبنائه الذين غسلهم بالبحر وهم لم يبلغوا العام أيضاً مثلما فعل والده. كان أبوه كلما نزلت قدماه في الماء قال بحسرة: «هادا بحر وبحر يافا بحر». كل شيء جميل كان بالنسبة له في يافا. لا جمال خارجها. بعد احتلال إسرائيل لقطاع غزة عام 1967، قررت العائلة الذهاب لزيارة يافا. بعض أفراد العائلة ظلوا هناك في المدينة حيث لم تتمكن منهم يد التهجير. تمكنوا من الاختباء في بيارة للعائلة في حي النزهة. كان حسن وقتها يسوق سيارة البيجو 405 التي قطعت الطريق الساحلي من غزة شمالاً باتجاه يافا مروراً بالمجدل واسدود. وحين وصلت السيارة إلى «يازور»، وكان على حسن أن ينعطف غرباً ليدخل الشارع المفضي إلى يافا، أمسك والده مقود السيارة وقال له: «دير»، وطلب منه أن يرجع.

أراد أن يحتفظ بصورة يافا التي كان يعرفها. خاف على قلبه الصغير أن لا يحتمل الألم الذي سيراه، والخراب الذي لحق بالمدينة التي ولد وترعرع فيها. أراد أن تظل يافا كما اسمها جميلة لم تتغير. لم يرد أن يتغير شيء في ذاكرته. بكى في الطريق مثل طفل ترك للتو لعبته الأثيرة.

في الجلسة أمام بقالة حمدي، يظل حسن معظم الوقت صامتاً. فقط يتحدث حين يسأله أحدهم: «كيف البحر اليوم؟». طبعاً حسن

يشم رائحة البحر من بيته. يعرف تفاصيله ومواقيته ومواقيت الأسماك ومواسمها. يحفظ كل شيء يتعلق بالبحر، فهو يعرف إذا كان البحر عالياً أو هادئاً دون أن يقف على الشاطئ. فقط من خلال حركة الريح ودرجة صفاء السماء.

يسحب نفساً عميقاً من سيجارته ويُخرج سحباً من الدخان تنتشر بين شعرات شاربه الكث، فيما عيونه تحدق في السماء وريح الشمال تداعب الشعر على ذراعيه فيقول: «بكرا السردين كتير يا جماعة».

سامي معروف في الحارة بالصحفي. فقد عمل في الصحافة منذ كان شاباً صغيراً لم ينه تعليمه الجامعي. هواية التصوير هي من قادته إلى المهنة التي سيجد فيها متعة كبيرة. في البداية عمل مصوراً في وكالة «رامتان» ثم ما لبث بعد سنتين أن افتتح شركة إنتاج إعلامي صغيرة خاصة به، ستتوسع مع الوقت. لم يعد يركض خلف الأحداث يحمل كاميراته ليلتقط صورة لعلها ترضي مديره، أو يكتب تقريراً يحوز إعجاب المحرر في الوكالة، صار هو المدير والمحرر وصاحب الكلمة النهائية.

في الحقيقة فإن سامي هو ابن وداد الناظرة حيث وفرت له مُدّخرات والدته بعد التقاعد المبلغ الضروري من أجل فتح شركة خاصة به. وداد لم تختر نصيب ابنها. كانت ترغب أن تراه طبيباً مثلاً أو مهندساً حين تتنازل، لكنها لم تفهم كيف يكون الإنسان صحفياً. الصحافة خطرة كما تشتكي لكريستينا، فعشرات الصحفيين قتلوا خلال تغطيتهم للانتفاضة، منهم صديق سامي «فضل شناعة» الذي قصفت الطائرات سيارة وكالة رويترز حيث يعمل ونجا بأعجوبة، ثم أصيب في قصف لاحق وفارق الحياة. لم يكن سامي يبعد إلا

أمتاراً قليلة عن «فضل» حين أصيب. بكى يومها. قام هو ومجموعة من الصحفيين بوضع نصب تذكاري لـ«فضل» قرب مدخل برج الشروق أحد مراكز صناعة الأخبار وتصديرها في غزة.

في الحقيقة لم يكن سامي دائم التردد على مجلس الرجال. كان يمر بين فينة وأخرى. مرة في الأسبوع وربما كل أسبوعين. لكنه خلال وجوده يصبح نجم الجلسة حيث يملك الكثير من الأخبار غير المنشورة من كواليس الساسة وثرثرة البلد كما يسميها. ينهالون عليه بالأسئلة المختلفة من المفاوضات إلى المصالحة الوطنية إلى أزمة الكهرباء. في مثل تلك الجلسات يشعر سامي بالراحة، يقول كل ما يعرف، وهو يعرف الكثير. بعد انتهاء العدوان في يناير 2009 انطلق قطار الحوار الوطني في القاهرة في مارس من ذات العام. فرح الجميع وقالوا إن الانقسام سينتهي. ضحك سامي وهو يقول: «ليش هو الانقسام راح ينتهي من بعد ما راحت الحجة كريستينا، يعني هي اللي عملت الانقسام». فقط جمال فهم عليه فيما الآخرون سألوا: كيف يعني؟ الخلاصة التي اتفق مع جمال فيها إن الحوار الوطني سيصبح مثل عملية السلام حوارات ومفاوضات لا تنتهي، أما المصالحة فستظل بعيدة.

حمدي كما الآخرون يعجبون بمقدرته على قول الحقيقة على مرارتها. بالنسبة له الكل يزعم أنه يعمل للوطن أما الوطن فيشعر بالوحدة. لن تعرف كريستينا حين اختفت أن الفضل سيكون لسامي في تحويل قصة اختفائها تدريجياً من قصة تخص الحارة إلى قصة عامة يتحدث عنها جميع سكان قطاع غزة، ثم تلتقطها بعض وكالات الأنباء الإقليمية والعالمية وتتحدث عن المرأة العجوز التي اختفت في ثاني أسبوع للحرب.

الشيء الأكثر تنغيصاً على حياة وداد هو قصة حب ابنها المعلقة. فقد وقع الولد في حب فتاة فلسطينية من مخيم اليرموك في سوريا خلال ورشة عمل في بلجيكا شارك فيها الاثنان. اللقاء الذي استمر ثلاثة أسابيع تبعه لقاءات أخرى في عمان أيضاً. كان ذلك في صيف العام 2008. أخبر والدته عن «مشيرة» التي تعمل صحفية أيضاً، وعن خطط الزواج التي بدأ يرسمها في رأسه. فرحت وداد فالولد أخيراً سيتزوج. قالت لكريستينا: «بحب بدون حب المهم أنه يتزوج». حين رأته كريستينا سألته عن حبيبته. قال له سيجعلها تتحدث معها ذات يوم عبر الفايبر. مسحت الحاجة على رأسه وقالت له المهم تجيبها هون مش تطلع برا معها. ابتسم سامي وهو يخبر الحاجة بأن حلم «مشيرة» هو أن تأتي للعيش في فلسطين. وعدت كريستينا أن ترقص في عرس سامي. سأل الشاب بخبث: «بدك ترقصي أجنبي؟!». قرصته من أذنه وهو يهرول بعيداً.

تلك الجلسات المسائية على ندرتها كانت تذكّر الحارة بتلك الأيام الخوالي حين كانت على قلب رجل واحد، كلمتها واحدة وموقفها يعبر عنه رجل واحد هو مصدر ثقة الجميع. جلسات اجتماعية تتسرب لها شؤون الحارة بين الفينة والفينة، وتلونها تفاصيل الشارع من وقت لآخر، لكنها لا تحيد عن كونها جلسات أصدقاء يتجمعون بعد انقضاء النهار، ينفضون عن كاهلهم أعباء اليوم الطويل. مرهقون متعبون، بعضهم مزاجه معكر وبعضهم مزاجه رائق، لكنهم حين يجلسون أمام بقالة حمدي كأنهم يبدؤون نهاراً آخر. ينطلقون في حياة جديدة غير تلك التي خبروها خلال ساعات النهار السابقة. ودائماً ثمة إثارة ما تبدأ مع مغامرة من مغامرات الليل وبدايات الصباح يحملها حسن البحار في تلك

الجلسات التي يحضرها. مغامرة فيها ملاحقات داخل البحر، وإطلاق نار وصراخ وأسماك تفر من الشباك. أو قصة من قصص المحاكم يرويها نصري المحامي تكشف بعض المستور من عورات المجتمع. أو حكاية من حكايات الساسة يرويها سامي. قصص أشبه بالخيال.

الحاجة كريستينا تقول إن الخير في هؤلاء الرجال. مازالوا يحافظون على القليل الباقي من حال الحارة. على الأقل حين يجلسون يشعر الشبان والأطفال أن الحارة تجتمع وتناقش أمورها ولو صورياً. في الصباح في طريقها إلى السوق تجلس أمام البقالة مع حمدي «تتشمس» وتتجاذب معه الحديث. حمدي يتفنن في صنع القهوة للحاجة. تقول إن القهوة لا تتشابه؛ فكل مرة نغلي القهوة نغليها بطريقة مختلفة. كان يضحك ويقول لها: «بعرفك يا حجة زي الإنجليز بتحبيش القهوة بوجه». وتضحك وتقول: «الإنجليز بحبو الشاي». حمدي يحرك ركوة القهوة مليون مرة ويتركها تفور مليون مرة، ويقوم بحمل بعض من الرغوة وسكبها فوق الرغوة الباقية في الركوة. تظنه يداعب القهوة أو يتحاور معها. وكانت كريستينا تنادي عليه وتقول: «بكفي لعب بالقهوة، شو بتدلعها». يجلس ثم يبدأ بسرد قصص جلسة الرجال أمام بقالته الليلة الماضية. هذه واحدة من الأشياء التي لم يكن ينساها حمدي. أن يخبر الحاجة بكل القصص التي سمعها في الجلسة. وكانت تعليقاتها و«قفشاتها» تؤخذ على محمل الجد. ولا ينسى أن يقول في مرات كثيرة إنه شدد على حسن أن يحضر لها المرة القادمة «نص بكسة سمك محترمات». سيقول حمدي لحسن: «الحجة بتدلع حالها». يضحك الأخير قائلاً: «اللي بفهموا بحبوا السمك».

صغر مساحة الصيد جعلت الشباك تأتي بكل ما تستطيع من قلب البحر حتى أصغر الأسماك أو تلك حديثة الفقس. فكثيراً ما يمتلئ السوق بكميات مهولة من السردين الصغير الذي لا يتجاوز حجم الحبة الواحدة خنصر اليد. كريستينا تعاتب حسن وتقول «خلوها تكبر حرام». يضحك وهو يسحب نفساً من سيجارته التي لفها للتو ويرد «وشو نصيد يا حجة!!».

كريستينا تغفو الآن في الطائرة التي تحملها من عالم إلى عالم آخر، فيما هي تصر أن تظل في عالم ذكرياتها الرحب.

الحنين لا يجف على الطريق

ماتت سلطانة. باغتها مرض السرطان وقطف عمرها مبكراً. لم يمهلها الكثير حتى تتلقى العلاج. ذات نهار شعرت بوعكة في صدرها مثل أي وعكة يمكن أن نحسها. كابرت وعاندت وقالت لأنطون إن الأمر مجرد «برد». لكنه لم يكن كذلك. الفحوص المخبرية في المستشفى المعمداني ستثير شكوك الطبيب حول حقيقة المرض الذي يؤلم قصباتها الهوائية. تم اكتشاف المرض متأخراً. لم يترك السرطان الكثير من خلايا الرئتين إلا أجهز عليها.

أحست بدنو الأجل. بكت وهي تنظر بعينيها الباهتتين إلى كريستينا. قالت: «خلصت الرحلة يا فضة». وبكتا مثلما بكتا في ذلك اليوم الذي حرمتهما فيه معلمة الفصل روز اللهو بسبب ضحكهما المتواصل. قلبت ضحكهما بكاءً. قالت لهما: «بتمثلن». ولم يكن يمثلن، بل كن فعلاً يتمزقن ألماً أنهن حرمن من اللهو واللعب. الآن الحياة تقرر أنها ستغادر جسد سلطانة وستحمل روحها إلى ملكوت الرب.

في البيت كان كل شيء خافتاً. لم تشعل لمبة واحدة. فقط الضوء الباهت الذي يتسلل من الأزقة. شعرت كريستينا بظلمة

شديدة في روحها. الأحبة يرحلون واحداً تلو الآخر. لم يبق شخص من الماضي يربطها بالحاضر. حتى ابنها لم تسمع عنه خبر منذ غادر القطاع للتعليم. هكذا تأكل الحياة السعادة، وهكذا تدوس عربات القسوة في غزة على كل فرحة محتملة. فلا هي عاشت في كنف عائلتها التي فتكت بها الحرب خلال النكبة، ولا سعدت بعمر طويل مع الرجل الوحيد الذي عشقته واختارته زوجاً، حيث قطفت حرب 1967 زهرة شبابه، ولا هي نعمت بأن ترى أحفادها يلهون حولها مثل فراشات شقية. وها هي رفيقة دربها الوحيدة من زمن الطفولة تغادر.

قال الكاهن في كنيسة دير اللاتين: الرب أعطى، والرب أخذ، فليكن اسم الرب مباركاً.

نحيب يملأ قاعة الكنيسة.

قالت لسلطانة في لقائهما الأخير لماذا لا تنتظر حتى تموت هي ثم تموت. كانت كريستينا تريد لسلطانة أن تعيش حتى تموتان معاً. بكتا أكثر. الحسرة في عيني سلطانة على مفارقة الحياة. صمتت للحظات وأخذت تخبرها عن لحظة موت والدها ديب. يومها كان يُحدث ملك الرب وهو ينتزع روحه. كان يسأل بصوت مسموع: «هل ستأخذني هناك». ثم يصمت ويقول: «الرب هناك أيضاً، ملكوته في كل مكان».

مسحت دموعها والكاهن يواصل صلواته: نعيش من أجل المسيح وننتقل إلى أحضانه لنقوم معه ونحيا معه في ملكوته إلى دهر الدهور.

ظلت كريستينا بالنسبة لأولاد سلطانة «خالتو فضة». حتى أحفاد سلطانة سينادونها «جدتو فضة» فهي في مقام جدتهم سلطانة.

شعرت بالوحدة أكثر. قالت لصفية العمر يركض مثلما يطارده غول. تسمع وقع أقدامه على أسفلت الروح. تشم رائحة عرقه التي تنز من جسده مثل نبع ماء من صخر. يبذل جهداً من أجل أن يغادر. ترمق صورتها في المرآة، ترى أثره على وجهها. الوجه الجميل الفاتن الذي حلمت ذات مرة وهي طفلة أنه سيجعلها أجمل امرأة في يافا بل في فلسطين، ها هو الآن تغزوه التجاعيد. صفية ستضحك وتقول يا كريستينا من يراك يظن أنك لم تبلغِ الأربعين بعد. والحقيقة عند مقارنة كريستينا بالنسوة من عمرها ستبدو شابة صغيرة. وربما كان هذا أحد الأشياء التي ستضيف هالة أخرى على مجمل «كرامات» و«بركات» الحاجة ويجعلها أقرب إلى القديسين والأولياء منها إلى البشر.

أذهلها منطق منار الذي همس لها بأنه أخيراً وجد طريقة لأن يهاجر. «راح أسيب غزة للأبد». هي أكثر شخص في غزة يعرف أن من يغادر لا يعود، أو أن طبيعة الأحداث في البلاد تجعل عودته مستحيلة. قد تخرج للعلاج كما حدث معها ولا تعود، أو للتعليم فتندلع حرب كونية ولا تعود. أمسكت يده وفركتها برقة وهي تقول: ما في أحسن من البلاد.

منار انتهى منذ زمن من كل الصراع والنقاش والألم الذين اعترضوه في طريق حسمه لفكرة الهجرة. تمكن من الحصول على فيزا للسويد. هذه المرة لن يدفع فلساً حتى يغادر غزة. حدث معه أكثر من مرة أن دفع مبالغ طائلة، وحصل على الفيزا، وقام بشراء

تذكرة الطائرة، لكنه لم يتمكن من الخروج. يدُّخر كل فلس وجهد من أجل أن يتمكن من مواصلة حروبه ومعاركه للخروج من غزة.

تعرف أن هذا لم يكن القصد من وراء الهجرة. آلمها أن شاباً مثل منار لا يعرف شيئاً في الحياة إلا البحث عن الهجرة. كيف يمكن له أن يتأمل أكثر ويتعذب أكثر وينتقل من لاجئ في مكان إلى لاجئ في مكان آخر. أخرج جواز السفر من جيب سترته وفتح على الصفحة المدموغ عليها التأشيرة وقال لها: «الأمر حسم».

سألت: والمعبر؟

حكيت مع صاحب لي، أخوه بشتغل في الأمن هون. قالي راح يدبرك.

كيف راح يدبرك! الناس صارلها شهرين مسجلة للسفر والمعبر ما فتح من ثلاثة أشهر.

قال بدبرها يا حجة. خليها على الله.

معبر رفح البري الذي يربط غزة بمصر بالكاد يفتح لبضعة أيام، حيث سيذهب الناس بالآلاف يحاولون الخروج خلالها. الزحمة والتدافع والصراخ والبكاء والأحلام المكسرة والمواعيد التي لا تتحقق والخيبات. قلائل يتمكنون من العبور، وآلاف يعودون أدراجهم يستعدون لمحاولة أخرى. هذه المرة عليه أن يفعل جهده ويقوم بكل ما يستطيع. لا مجال للعودة خائباً.

لم يمض أسبوع حتى أعلن منار فشله مرة أخرى. صام عن الكلام يوماً كاملاً. لم يصدق هول الصدمة. وصل إلى البوابة. ختم جواز سفره في الصالة الفلسطينية. كل شيء كان على ما يرام. صديقه

صدق الوعد، فقد تمكن أخوه من أخذه بسيارة الأمن إلى داخل المعبر. نسي كل تلك اللحظات القاسية التي كان فيها محتجزاً عند الأمن بسبب «بوست» كتبه على الفيس. تذكر وجهه في التحقيق. ضحك الشاب وقال: «هاي كفارة عن اللي عملناه معك». المهم أنه سيخرج عما قليل. أخذ جوزاه وختمه له من صالة المغادرة. حمل حقيبته الصغيرة وسار بها باتجاه الباص الذي سيعبر الحدود باتجاه النقطة المصرية بعد قليل. لكن المعبر أُغلق فجأة ولم يعبر الباص الحدود.

عاد بخفي حُنين. حتى حُنين مل من كثرة ما عاد منار من الحدود بخفيه. من رآه في ذلك النهار يظن أنه لن يحاول مرة أخرى. قرصته الحاجة من أذنه وقالت: «ربنا ما بده ياك تطلع من غزة». لم يحرك ساكناً. الدمعة تكاد تقفز من عينيه. ضحك حمدي في المساء وقال له: «أنت منار، يعني منارة بتحرس غزة».

يريد أن يحقق أحلامه، أن يعرف كيف يبدو شكل العالم خارج غزة. قال لكريستينا إن غزة سجن كبير، ولا يفرق كثيراً حجم السجن سواء كان بحجم زنزانة أو بحجم «قطاع». السجن سجن لأننا لا نقدر أن نخرج منه لو قررنا ذلك، لا نستطيع عبوره. البحر أيضاً سلك شائك، هو خط حدودي يفصل غزة عن العالم ولا يربطها به. أنت لا تستطيع أن تعبر من البحر. كل شيء مغلق. سأل بحنق «شو إلنا بغزة؟!». ذكّرها أنها هي أيضاً لا يوجد لها شيء في غزة. كل أيامها في عقلها تعيش في يافا أو لندن أو في انتظار ابنها ياسر المفقود.

سار في الزقاق، وهو ينظر إلى الحاجة وقد تأثرت بكلماته الصادمة. عاد مرة أخرى ليعتذر، فلم يكن يقصد جرحها. بحلقت

في شجرة الكينيا ولم تعلق، كأنها تشكوه لها. جلس على الرمل وبكى كأنها المرة الأولى التي يبكي فيه في حياته. كأنه اكتشف أن ثمة دواء اسمه البكاء. تركته يبكي ودخلت تحضّر الشاي. جاءت ببراد الشاي، وضعته على الطاولة. كان يمسح دموعه ويتنهنه. قطفت عروق النعناع من الحوض، غسلتهم ثم وضعتهم فوق الشاي الساخن. شرب كأس شاي، تبعه بآخر، وهو يقول: «نعنعك لذيذ يا حجة». ابتسمت وهي تقول «هناك لن تجد مثل هذا النعنع». هل الحكاية هي النعناع؟ بالطبع هو لم يفهم قصد الحاجة من وراء الإشارة للنعناع. لا شيء يضاهي أن تشم رائحته هنا. النعناع إذا زرع بعيداً يفقد رائحته. اشتمت عرق نعناع قطفته من الحوض. مدته له وهي تطلب منه أن يشمه. لا شيء يُشبع الحنين إذا استبد بنا ونحن في الغربة.

الوقت!

هزت رأسها. الوقت يجعلنا نشعر أننا ننسى مثل الجائع الذي يظل يشرب ماء. لا يشبع. يظن أنه شبع. الحنين هو سر الألم الذي نشعر به حين نفتقد من نحب. لا دواء له إلا بلقائهم. اهتز جسدها وهي تشرح له عن كنه هذا الألم، فهي تحسه كل يوم، تشعر به كل مشرق شمس وكل مغربها. تتأمل الباب لعله يفتح ويدخل ابنها ياسر، تسرح وتتخيل لو أن عائلتها لم تمت وقت النكبة. لو أن يوسف لم يمت. تعيد تركيب الحكايات لعلها تخرج بحكاية تعيد للحياة توازنها. تهدم الماضي مثل طفل يلهو بلعبة «الليجو»، تعيد تشكيله وفقها تشتهي. لكن كل مرة تشعر بالحسرة أكثر، أن هذا لن يحدث، أو على الأقل لم يحدث حتى الآن.

قامت تقطف له ضمة نعناع وهي تقول: «فهمت!!».

من الصعب أن تستنتج من ابتسامته الشاحبة إذا كان فهم أم لا، وربما لن يُقّدر لها أن تعرف بعد ذلك، إذ إنه بعد اختفائها ستجري مياه كثيرة تحت النهر، يصعب علينا أن نجزم إن كانت ستعرف بها أم لا. لكنها بعد مغادرة الشاب شعرت بغصة أكبر حين لمست الألم الذي يسري في روحه حين تنهد وهو يخرج للزقاق. ألم الروح أشد وقعاً من كل ما قد يفتك بالجسد من آلام. تعرف كريستينا ذلك.

في بيت سلطانة حين ذهبت في عيد الميلاد وأخذت معها هدايا لأحفاد سلطانة، لمست الحرقة التي تمس قلب أنطون الذي بات أرملاً بعد عقود من العشرة والألفة. كان هذا أول عيد ميلاد بلا سلطانة. بدا كل شيء حزيناً. لم تنفع كل عبارات المواساة في تخفيف الأمر. فقط الأطفال لم يفهموا، حيث كانت تكفي عبارة جدهم بأن الجدة ذهبت عند الرب ليظنوا أن للرب بيت وحديقة، وهي ذهبت للاعتناء أو للاستمتاع بهما وستعود.

بدا أنطون مثل شجرة تذوي في الخريف وقد تساقطت أوراقها ويبست أغصانها ومال جذعها. مساء كئيب رغم شجرة الميلاد التي تضيء صدر البيت، ورغم أمنيات العام الجديد، ونِعم الرب التي تحلق فوق الأيقونات المعلقة على جدران البيت.

أيضاً أنطون يشكو من الهجرة المؤلمة التي تتفشى بين الشبان والعائلات مثل المرض. قال لكريستينا إن معظم المسيحين في غزة يهاجرون. قال إنه تشاجر مع ابن أخيه لأنه سيترك غزة ويذهب لإيطاليا. لم يبق من المسيحين إلا بضع مئات. تناقص عددهم بشكل

لافت في السنوات الأخيرة. الكل يترك غزة. بعد قليل ستصبح بلا مسيحين. لا أحد يتمسك بالمكان. كل عام يتناقصون. بكى وهو يقول: «الكل يترك أرض المسيح... يتركون الرب وحيداً على صليبه».

أنطون لم يتسن له الصلاة في كنيسة المهد أو كنيسة القيامة منذ أكثر من عشرين عاماً حيث ترفض السلطات الإسرائيلية إعطاءه التصريح اللازم لذلك. ناهز السبعين الآن ومازال يشكل خطراً على الأمن الإسرائيلي كما يقول قرار المنع. تنهد أنطون وهو يشكو لكريستينا أن أمنيته الأخيرة قبل أن يموت أن يزور مهد المسيح وقبره المقدس ويذهب للرملة للصلاة في الكنيسة هناك. حلم صغير سترتاح روحه للأبد إذا حققه. صمت ثم قال إنه سيذهب لكنيسة القديس بطرس في يافا ليضيء شمعة لروح سلطانة. نزلت الدمعة من عين كريستينا وهي تنظر إلى صورة سلطانة معلقة على الجدار. تبدو مثل قديسة. هالة من النور تشع من وجهها، بهاء شامل يلف جسدها. الكثير الكثير من الكلام ترسله نظراتها إلى رفيقة العمر كريستينا.

سأل أنطون: لماذا يتركون غزة؟

ليتها تعرف الإجابة. قال إنهم تركوا الرملة وأجبروا على اللجوء إلى غزة. تحولت حياتهم من النعيم إلى البؤس. الرب رعاهم بعد ذلك وهاهم يسكنون في بيت جميل، ولديه سيارة وتزوج، ولديه أطفال وأحفاد. هو لا ينكر نعم الرب. لكن لماذا الآخرون يفعلون؟ لماذا يصرون على هجره؟ كيف يتطاولون على ملكوته بتركه وحيداً في أرض ميلاده وصلبه؟ حتى راهب الكنيسة لم يملك الإجابة الشافية على تساؤلات أنطون. أمسك عصاته وهو يسير مع أنطون في ساحة الكنيسة وقال: الكل يبحث عن الإيمان يا أنطون. تخيلهم مثل آبائنا القديسين يهاجرون من أجل البحث عن نور المسيح.

ولكنه هنا. كل النور هنا.

ربما يريدون البحث عنه في مكان آخر.

إنهم يهربون يا أبونا.

إنه نفس الألم الذي يثيره حديث منار. الفرق أن منار يريد أن يبحث عن نور الحياة في أي مكان خارج غزة. وأنطون يشعر أن الناس لم تعد تطيق نور المسيح. الأطفال يلهون ويرددون ترانيم الميلاد. ابنة أنطون تحضّر طعام الميلاد في المطبخ حين انتبهت كريستينا إلا أنها يجب أن تساعدها. وقف الجميع وبدأت طقوس العائلة مثلما تحدث كل عام إلا من وجود سلطانة.

عادت كريستينا للبيت مغمومة حزينة. في مساء اليوم الثاني وحين تجلس النسوة حولها تحت شجرة الكينيا لن تتفوه بكلمة. شعرت بالأسى يعجن روحها. نبيلة تتحدث عن المكالمة الهاتفية التي تلقتها من السجن من ابنها، وتصف للنسوة كيف يقوم السجناء برشوة أحد السجانين ليهُرِّب لهم هاتف خلوي بعشرات أضعاف سعره. ويحتفظون به سراً ليقوموا بالاتصال بأهلهم. لم تصدق حين سمعت صوته. صرخت «يامااااااااااااااااا». السعادة تطفح على وجهها وهي تعيد القصة مرة وراء أخرى.

أما نادية فإنها تقول إنها قد تتطلق أخيرا. الأمر مجرد أسابيع. نصري المحامي أبلغها أن الجلسة القادمة ستكون الجلسة الأخيرة قبل أن ينطق المحامي بالحكم. زوجها الذي سيكون طليقها جن جنونه وأرسل ألف واسطة لها. الرجل غير مصدق أنها ستطلقه. قالت الوساطات إن الأمر يمس كرامته. ضربت تراب الأرض

بقدمها وهي تقول: «لما كان يضربني ما حس بكرامتي». ستصبح حرة بعد أسابيع.

سألت وداد: وراح تتزوجي؟

لا تستطيع أن تنكر فالقصة باتت معروفة في كل الحارة. حتى تهديدات زوجها لأيمن الذي ستتزوجه أيضاً باتت معروفة. ضحكت وهي تتلمس السعادة القادمة، وقالت بدلع: ليش لأ!

قبل اختفاء الحاجة وفي الجلسة الأخيرة التي تجلسها أمام البقالة، تحدث معها حمدي عن رغبة أيمن الأستاذ الجامعي أن يتزوج من نادية. كريستينا تعرف القصة لكن هذه ليست القصة الحقيقية كما سيوضح حمدي. فزوج نادية يصر أنه لن يسمح لها أن تتزوج بعد أن تطلقه. فهو لن يقبل أن يقال إنها طلقته من أجل أن تتزوج غيره. خطأ أيمن الوحيد أن القصة باتت معروفة في الشارع، وبات الناس يتناقلونها، ويقولون إن نادية ستطلق زوجها من أجل أن تتزوج أيمن. الاستنتاج الأمثل في مثل هذه الحالة إن نادية كانت تحب أيمن وهي على ذمة زوجها. بعبارة أخرى كما سيقول حمدي: «الناس بتقول هاي خيانة يا حجة، يعني نادية كانت تخون زوجها».

حمدي مثل كريستينا يعرف أن هذا الأمر لم يحدث، وأن الحديث عن قصة حب بين الاثنين ليست إلا من درب الخيال، والأمر لا يتعدى الميل والانجذاب، لكن الناس تعمل من الحبة قبة. الناس تعشق الانهماك بشؤون الآخرين، وبالثرثرة في كل شيء سواء كان يخصهم أو لا يخصهم. طبعاً حمدي سيقول إنه يعرف خطورة الموقف فهو سيمس نادية وسيمس أيمن وسيمس سمعة عائلتيهما.

صرخت كريستينا وقالت: «بس ما في شي بيناتهم».

يعرف ذلك، فأيمن أخبره بكل التفاصيل. لم يكن الأمر أكثر من لقائين، حدث أولهما صدفة في ورشة عمل حول حماية التراث الوطني تنظمها مؤسستها. بعد اللقاء، كان يقف بجوار الطاولة الموضوعة بجوار باب القاعة حيث كؤوس الشاي والقهوة والعصائر. وفيما كانت نادية تسير نحو الطاولة وقبل أن تصل إليه ابتسم وهو يحرك كأس الشاي وقال: «قديش بدك سكر على الشاي؟». هكذا بدون مقدمات كأن تلك الجلسة رقم مليون بينهما. لكن ما لم يقله أيمن لحمدي أن اللقاء الثاني لم يكن صدفة، بل كان لقاءً مدبراً. في نهاية الورشة وفيما كان أيمن يهم بالخروج ابتسمت نادية وقالت إن هناك ورشة أخرى بعد أسبوع في قاعة فندق الروتس الجديد على البحر، وسيسرها أن تراه. ثم عقبت بملاحظة مقصودة أنها لن تكون المتحدثة بل ستكون في صفوف المستمعين. في اقتراح مبطن أنه سيكون لديهما كل الوقت من أجل الحديث.

الحب يا جاهل، أجمل شيء في الدنيا.

هكذا علّقت كريستينا. ثم سرحت في حديث شفاف عن الحب والشوق. استجمعت فيه الكثير من ألم الماضي وهي تتذكر زوجها وتلك اللحظات الجميلة التي وخزها قلبها خلالها لما رأته، وكيف كانت تقف طوال النهار مثل الشجرة تنتظره أمام باب البيت. لم تكن تقدر على التفكير خلال غيابه. الوحيد من بين سكان الحارة الذي لم يكن يناديها كريستينا بل «فضة». كان نداؤه لها من خلف شباك البيت وهو قادم «يااااااااااااااااا فضة» يشلع قلبها، ينتشله من أحشائها ويرميه في بئر سحيق. تحسه ذهب ولن يعود. النداء الذي لم يفارقها طوال الحياة، تسمعه يتردد في أذنها كنغم موسيقي لا يمل عازفه عزف «يااااااااااااااااااااافضة»، وقد تمتد

هذه الياء ساعات ولا تنتهي. ولم تكن تريد لها أن تنتهي. في الليل، قالت لحمدي، تسمعه ينادي عليها كل ليلة. لم يكن هذا حلماً ولا كابوساً ولا خيالات، بل هي حقاً تسمعه كل ليلة. كأن صوته مسجل على كاسيت ويقوم أحدهم كل ليلة بتشغيله وهي نائمة فتسمعه. كثيراً ما تصحو فتذهب للباب تفتحه لعله يكون واقفاً هناك. الحب شيء لا يُضاهى كما قالت. الناس تستكثر على نادية التي عانت منذ أول يوم تزوجت فيه، أن تحب، أن يغمرها هذا الشعور الجميل.

القصة ليست قصة أن تحب أو أن تكره، بل قصة أن تحب وهي متزوجة. هكذا أوجز حمدي الأمر.

لا يمكن أن يقال إن نادية كانت متزوجة كما ستضحك كريستينا، وتملأ البقالة صخباً. فمنذ السنة الأولى لزواجها العاثر انقطعت أي علاقة جسدية بينها وبين زوجها. العنف الجسدي الذي حكم علاقتيهما كاد يودي بنادية إلى الانتحار. على الطلعة وعلى النزلة كان يضربها، بسبب أو بدون سبب. نظرة منها إليه قد تجعل يده تهوي على خدها أو قدمه تركل مؤخرتها أو ترفسها في بطنها. استغرقها الأمر سنتين حتى جمعت قوتها واستعادت توازنها لتصرخ بـ«لا» مدوية وتعلن أنها لن تقبل مثل هذه العلاقة. كان يمسكها رغماً عنها ويمارس معها الجنس. اغتصاب حقيقي كانت بعده تجلس ساعات تبكي في الحمام. فكرت ألف مرة أن تطعنه بسكين وتنهي الأمر، أو أن تسمم له الطعام. هربت من البيت. قررت أن تقول «لا». أوفد زوجها عشرات الجاهات والوساطات دون فائدة. «البنت بدها تتطلق». جن جنونه، ماذا يقولون عنه في

الحارة إن زوجته طلقته. أصر أنه لن يطلق وأنها ستظل على ذمته العمر كله. تنازلت له عن كل شيء، لكن دون فائدة.

بعد كل هذا يستكثر الناس عليها الحب. أنهت كريستينا شرب القهوة وقالت وهي تتذوق الخثر في قاع الكأس: لو تعرف الناس ما هو الحب لما لامتها، أو لو أنهم عاشوا العذاب الذي عاشته لعذروها. الكثير من النساء يتزوجن وفق منظومة سائدة من الزواج المرتب الذي لا يكون عادة فيه للفتاة أي دور في اختيار عريسها. في المقابل فإن الشاب كثيراً ما يكون له دور في اختيار الفتاة. قد يكون رآها في الشارع أو في طريقها للمدرسة أو في حفل زفاف قريب مشترك أو هي ابنة عمه أو خاله. أما الفتاة فعليها أن تقبل قرار العائلة بتزويجها من يقبل به أهلها.

حمدي تزوج ابنة عمه، وحيدة والدها الذي لم يشأ أن يجازف بائتمان رجل غريب عليها فقرر تزويجها لابن أخيه. على الأقل كما قال يضمن أن حمدي سيراعي أنها ابنة عمه ولن يعاملها بسوء. «يعني لو ما كانت بنت عمك الوحيدة كنت ضربتها وأهنتها». ينفي حمدي بالمطلق ويقول إنه يوصي أبناءه دائماً باحترام زوجاتهم.

عموماً سينتهي الحديث دون أن تنتبه كريستينا إلى غاية حمدي من ورائه. وفيما هي تخطو بعيداً عن البقالة باتجاه شارع السوق ستدرك ذلك. تلتفت للخلف، تهم أن تعود لحمدي، لكنه سيكون مشغولاً داخل البقالة يبيع الزبائن.

ظن حمدي أن كريستينا فهمت عليه لكنها لم ترد أن يأخذ النقاش المجرى الذي أراده. هو فقط قلق على أيمن. قلق أن يقوم زوج نادية بالاعتداء عليه. يعرفه جيداً، يده قبل لسانه، عقله صغير

يأخذ الأمور وفق ما يراه، لا يعرف النقاش ولا يعرف كيف يجادل الناس. حمدي مقتنع أن طلاق نادية منه أمر محتوم بل هو ضرورة بالنسبة لها. وأيمن لن يتزوج نادية قبل أن يطلقها زوجها. والأخير قال له إنه لن يطلقها حتى لو أعطته كنوز قارون. سيعذبها بأن يتركها معلقة انتقاماً من إهانتها له.

ما لم يعرفه وقتها إن إجراءات تطليق نادية منه باتت في مرحلتها الأخيرة، وأن القاضي بات مقتنعاً بأنها لا يمكن أن تظل على ذمته، فنادية ستعمل من قضية تطليقها قضية رأي عام وستصبح القضية موضوع حديث المستوى الحقوقي والقضائي والسياسي على مستوى القطاع. ولن يكون القاضي بمنأى عن التأثر بموجة التعاطف الكاسحة التي حصلت عليها القضية. فالمؤسسات النسوية التي رأت في نموذج نادية قصة نجاح، وقفت بكل قوة خلف طلبها. عموماً كل ذلك لن يعني بالنسبة لحمدي أن زوج نادية سيترك أيمن في حاله. فهو قد حاول التعرض أكثر من مرة لنادية في الشارع، ولولا شكاوى نادية عليه في مخفر الشرطة وأخذ الضابط لتعهدات عليه، لكان قد انهال عليها ضرباً في الشارع. أبعد من ذلك فإن نادية أوفدت مجموعة كبيرة من شبان العائلة للتعرض له في الشارع، وحدثت «طوشة» كبيرة انتهت بأن أخذت الشرطة تعهداً من كل طرف بعدم التعرض للطرف الآخر. نادية ستنفي طبعاً أن تكون قد طلبت من شباب العائلة فعل ذلك. لكنها ستهمس في أذن كريستينا أن «نخوة» الشباب قد أعجبتها. وبعد ضحكة خفيفة ستقول إنها لم تصدق أنهم سيسمعون كلامها. الآن الجميع ينادي نادية بـ«الأستاذة»، فهي سيدة مجتمع وناشطة معروفة في كل غزة خصوصاً حين قادت تلك المظاهرات الأسبوعية المنادية

بإنهاء الانقسام تحت عنوان «نساء ضد الانقسام». كانت كريستينا تذهب مرات معها إلى تلك المسيرات الاحتجاجية في ميدان الجندي المجهول قبالة المجلس التشريعي. الشرطي لم يكن يعجبه الأمر خاصة وهو ينظر إلى النسوة كاشفات الرؤوس بكثير من الازدراء وينعتهن بـ«الفاجرات». في الطريق وهن عائدات من التظاهرة تقول كريستينا لنادية: «قبل ما نطلب من الأحزاب إنهاء الانقسام خلينا نطلب من هالحارة تتوحد».

حدث ما لم يكن يرغبه حسن. أسوأ ما يمكن أن يتخيله في كوابيسه. قبل عدوان ديسمبر 2008 بشهر تقريباً، هاجمت وحدة كوماندوز إسرائيلية قاربه في عرض البحر. بلا سبب وبلا مقدمات. في البداية سلّطت الطرادات البحرية ضوء كثيف على القارب حتى ترنح، حيث لم يعد ابن حسن قادراً على السيطرة على دفة المركب. قفز الجنود داخله. فتشوا كل من عليه، قلبوا كل شيء فيه. استجوبوا الجميع.

صفع الضابط ابن حسن كفاً مدوياً لأنه رفض رفع يديه من أجل التفتيش. رد الشاب الكف بكف آخر. انهالوا عليه ضرباً وركلاً بالأرجل والهراوات. لا إرادياً رمى حسن جسده على ابنه لحمايته ليتلقى عنه بعض الضربات. حمل ثلاثة جنود حسن ورموه بالماء. كاد يغرق حين هوى عميقاً قبل أن يتمالك نفسه ويستعيد توازنه ويصعد إلى فوق ويأخذ نفساً عميقاً ثم يسبح باتجاه المركب. عندها كان أبناؤه يقفزون في الماء، ورذاذ الموج يتطاير في كل اتجاه.

الجنود أخذوا الولد الأكبر الذي رد للضابط الكف بكف، وقفزوا إلى بوارجهم. وأمروا الجميع بالقفز عن المركب والابتعاد عنه. أصر حسن في عتمة الليل على العودة للمركب. قال ابنه إنهم

سيغرقونه. لم يتخيل حسن أنه يمكن أن يترك مركبه حتى لو قُتل هناك. وصل أخيراً إلى المركب. مد يده يحاول أن يصعد عليه حين دوى الرصاص في كل جانب. المدفع الرشاش أغرق المركب بالرصاص. تمكّن أولاده من سحبه بعيداً عن المركب الذي بدأ يغرق من كثرة الثقوب فيه. في ساعات الصباح عاد الأولاد للبحر بمركب صديق لهم، وجروا المركب الغريق إلى الشاطئ.

لم يلتفت حسن للرصاصة التي أصابت كتفه إلا حين وصل إلى الشاطئ حيث كان الدم ينز منها وبدأ الألم ينهشه. رصاصة خدشت ذراع يده من جهة الكتف، لكنها لم تخترقه.

المركب يربض على الشاطئ كسيراً ينظر للبحر، متحسراً أنه لا يدخله. الصليب الأحمر أبلغ العائلة أن الابن الأكبر محتجز للتحقيق، وأن لا معلومات لديهم عن موعد الإفراج عنه. بعد خروجه من المستشفى شعر بانتكاسة. لم يصدق أن هذا يمكن أن يحدث معه، فقارب الصيد الذي عاش من ورائه طوال عمره، والمهنة التي ورثها من والده باتت مهددة حيث لا يملك ثمن إصلاح القارب. في الحقيقة بات القارب تقريباً غير صالح للصيد وهو بحاجة للكثير من عمليات الترميم في جسده من أجل أن يعود ليعانق الموج. حسن مثل بقية الصيادين يعيش يوماً بيوم. يعيش على ما يعطيه إياه البحر. من الصعب، مع محدودية مساحة الصيد وقلة ما يجود به البحر، أن يدّخر مبلغاً كبيراً. كلما ادّخر مبلغاً زوج فيه ولداً أو دفع أقساط الجامعة لأخر. الحياة أولاً بأول.

ذهب في أول يوم يخرج فيه من المستشفى بعد أربعة أيام من الحادثة إلى الشاطئ. بكى وهو يجلس فوق القارب. طاف العمر خفيفاً مثل ظل باهت أمام عينيه. سحبه ابنه بالقوة وعاد به للبيت.

آلمه حديث كريستينا يوم زارته في البيت. استغربت أن يتوقف عن مهنة والده وجده وجد جده. قالت: «المال بتّدبر يا حسن. المهم النية». تدخلت صفية قاطعة أي فرصة عليه من أجل أن يتأثر بكلام كريستينا: «بصراحة يا حجة تعب حسن من البحر». فهت كريستينا. تبادلتا النظرات بصمت لم يخترقه إلا صوت عود الثقاب الذي أشعل به حسن سيجارته. لم تتمالك كريستينا نفسها وهي تلتفت لحسن وتقول: «عارفة انه مش هاين عليك البحر». طبعاً لم يهن عليه ترك مهنته. لم يهن عليه أن يترك المركب الذي أمضى فيه أوقاتاً أكثر من أي مكان آخر بعد بيته. بل هو بيته الثاني، زوجته الثانية. لم يهن عليه أن ينظر إلى البحر مثل المتفرج. البحر الذي خبر أنّاته وآهاته وصوت موجه، وأنواع سمكه وحركة النجوم فوقه، وصخوره ومواضعها، ودواماته ومواقيتها.

إنه الحديث الذي سيدور أمام بقالة حمدي بعد أيام من خروجه من المستشفى. قال لأصدقائه إنه سيتوقف عن الصيد. «بكفي ستين سنة». حدثهم عن يومه الأول في الصيد مع والده حين لم يكن قد بلغ السابعة. قال أبوه يومها وهو ينظر إلى مهارة الولد في تعلم كل شيء عن المهنة التي سيرثها: «والله صحيح فرخ البط عوام». بل أعاد على مسامعهم كيف رمى به والده في البحر وهو لم يبلغ عامه الأول في يافا. يذكر أدق التفاصيل. ضحك أبوه وهو يرى الولد يحب البحر من صغره. لم يشأ أن يغادر البحر الذي لن يسبح فيه بعد ذلك. حتى حين ذهب حسن ليافا بعد احتلال إسرائيل لغزة عام 1967، وبات من الممكن وقتها التنقل خارج قطاع غزة باتجاه الشمال، وقف قبالة الشاطئ. بكى بكى بكى .. كأنه يغادر يافا لتوه. خلع قميصه. همّ أن يسبح. تجمدت يده على حزام

البنطال. لم يتخيل أنه يمكن أن يسبح هنا. أحكم الحزام ولبس القميص وظل يحدق في البحر، تمتزج دموعه مع الموج وهو يضرب قدميه، وصوت والده «هادا بحر وبحر يافا بحر». حكى لهم كل شيء وهو يلف سيجارة واحدة. ظل يلفها لأكثر من نصف ساعة.

سامي يواصل مطاردة أحلامه في تحقيق حلم حياته بالزواج من مشيرة. ووداد تواصل شكواها لكريستينا بأن «الولد راح يعنّس يا حجة». لم تفهم كيف يمكن له أن يجلب عروسته من اليرموك إلى غزة. تصمت وهي ترتشف الشاي بالنعناع:

ما أنت شايفة غزة محاصرة، النملة ما بتفوت من برا...

كريستينا تحس بألم وداد التي ترغب أن تفرح برؤية ابنها عريساً. لكنها في نفس الوقت لم تستطع أن تقف في وجه الحب. طالما كان يحب الفتاة، حتى لو كانت في آخر الدنيا «راح يجي يوم يجمعهم». عبارات تعتبرها وداد مجاملة لا تشفي غليلها. لكن رغم ذلك كانت كريستينا لا تضيق ذرعاً بشكواها، تسمعها إلى الآخر بلا تذمر. في نهاية الجلسة تقوم وداد وهي تشعر بثقل الألم في روحها. تُقّبل الحاجة وتقول: «عارفة إني ثقلت عليك يا حجة... بس مين إلنا غيرك نشكي له».

هذا عالم كريستينا الذي ترعرعت فيه وكبرت داخل قارورة أحلامه، ووجدت نفسها تدريجياً تصير جزءاً منه. كل له حكايته الخاصة، لكن تظل حكاية كريستينا هي الحكاية الأبرز بين تلك الحكايات. حكاية تحمل من الغرابة ما يدفع لعدم تصديقها. الفتاة التي حطت في العام 1958 بالكاد تتحدث العربية، ذات شعر كستنائي قصير يتسلل من تحت قبعة القش التي تغطي بها رأسها،

وثوبها القطني الضيق عند الخصر، يلف خصرها حزام عريض مصنوع من نفس قماش الثوب، كيف يمكن لها أن تكون ابنة عوني السعيد الذي اختفت آثاره خلال النكبة. ورغم أن أحداً لا يعرف ما في نفوس الناس، لذا لا يستطيع أن يقول إن كانت تلك الشكوك قد انتهت أم لا، فهي سرعان ما تعاود الظهور بين فترة وأخرى، كأنها تعاويذ تشعل حريق السحر كلما عجز الناس عن شرح ما يحدث، إلا أن الحقيقة أن الحاجة وجدت في هذا العالم حقلاً خصباً تنمو فيه حياتها.

لا أحد يعرف تحديداً كيف فجأة يأتي جيب لاندروفر تابع للصليب الأحمر مبعوث من الحكومة البريطانية ويحمل الحاجة كريستينا ويذهب بها بعيداً. هل حقاً اكتشفت الحكومة البريطانية أن لديها مواطنة في غزة اسمها كريستينا؟ أم أن الأمر مدبر؟ لماذا مثلاً لم تقم بحملها من غزة في الحروب الأكثر ضراوة مثل حرب إسرائيل لاحتلال قطاع غزة عام 1967، أو خلال الانتفاضة الأولى حين كان الجنود يداهمون البيوت ويكسّرون أطراف الناس، ويطلقون عليهم الغاز المسيل للدموع وتقوم طائرات الأباتشي بمهاجمة الناس بالرصاص وملاحقتهم في الأزقة. أو خلال الانتفاضة الثانية حين كانت الصواريخ تدك البيوت والمقرات العامة وتحول الكثير من البنايات إلى حطام. لا يمكن تصديق رواية أن بريطانيا العظمى فجأة اكتشفت أن ثمة مواطنة بريطانية في غزة اسمها كريستينا.

كيف يتم تذكر الأمر بعد مرور نصف قرن على وصول كريستينا لغزة. بعبارة أخرى كما يقترح النقاش، لابد أن أحدهم قد حرك الموضوع. السؤال اللصيق بذلك هل حقاً الحاجة كريستينا كانت طوال الخمسين عاماً على تواصل مع شخص ما هناك. مثلاً أحد أقرباء. هي قالت إن أخواته كن سيئات معها، وهن من أجبرنها

على الرحيل عن لندن. لكنها لم تذكر شيئاً عن إخوته. ربما كانت على تواصل مع الجيران!

هناك الكثير في حياة الحاجة ظل طي الكتمان، فلا هي تحدثت عنه ولا أهل الحارة عادوا يسألون بعد أن اندمجت في حياتهم وصارت جزءاً أصيلاً منها، وبات من الصعب تخيل أنها لا تنتمي لهم ولآلامهم. وهذا الكثير بدا الآن بعد اختفاء الحاجة مثل الثقوب الكبيرة في قطعة الجبن أو مثل تلك الثقوب في جدران المباني بعد الحروب. ثقوب غائرة في الروح تثير المزيد من القلق كلما أمعنا النظر فيها.

القصة ليست في كيفية تذّكر الحكومة البريطانية لمواطنتها الموجودة في غزة، بالنسبة للناس المقصد من وراء السؤال هو هل كانت كريستينا على تواصل مع بريطانيا. ضحك حمدي وهو يقول: «يا جماعة لا تكبروا الموضوع». حمدي يعرف من كريستينا أن جورج سجلها أنها ابنته. قال وقتها إنه تزوج من فتاة فلسطينية أنجبت الطفلة وماتت خلال الولادة. لم يصدقه موظف التسجيل، لكنه نجح في استخراج كل الأوراق اللازمة لتسجيل الفتاة باسمه. فكّر جورج ملياً وقال لكريستينا: فكري في اسم فتاة مسيحية عربية نسجلها على أنها أمك. قالت بلا تردد سلطانة. فكرت الفتاة وقتها أن الأمر مزحة، وأن جورج يلعب معها إحدى مزحاته المعروفة عنه. ظنت أن الأمر مضحك. وضحكت وهي تتخيل اسم أمها سلطانة. تذكرت ابتهالات سلطانة وهن داخلات إلى المدرسة حين لا تكون قد قامت بعمل واجباتها وهي تدعو: «يا مريم يا ممتلئة نعم».

إذاً فكريستينا مسجلة رسمياً أنها ابنة جورج. الحقيقة أن ورثة جورج حاولوا التصرف ببعض ممتلكاته مثل البيت الريفي

والمزرعة الضخمة التي يمتلكها في ريف «يوركشير» والبيت قرب ميدان «سلون» قرب محطة فيكتوريا، إلا أنهم اكتشفوا أن ثمة وريثاً شرعياً لكل هذه العقارات. إنها ابنة جورج، كريستينا. لم يكن لجورج أبناء ولا بنات سوى كريستينا. وبعد وفاة أخواته حاول أبناؤهن وبناتهن وراثة الخال، لذا فبعد تفقد كل العقارات المسجلة باسمه أرادوا أن يُتموا توزيع الميراث وتسجيل العقارات بأسمائهم، ليكتشفوا الحقيقة المُرة التي لن يصدقوها. فخالهم الحبيب الذي كان سيوّرثهم ثروة مهولة له ابنة لا يعرفون عنها شيئاً.

إذا كانت كل تلك المعلومات متوفرة، وإذا كنا نقول عنها إنها حقيقة أو حتى شك قائم على بعض الحقائق، فهل يمكن افتراض أن أحداً ما في الحارة ربما أو في المخيم أو في غزة على اتصال بعائلة كريستينا البريطانية؟ هل يمكن أن يكون هذا هو الجزء الناقص من الحكاية. الجزء الذي لا يعرفه أحد إلا ذلك الشخص الذي قد يكون يجلس بينهم، وقد يكون يشاركهم سخطهم أيضاً. لكن لماذا قد يخفي كل هذا عنهم؟ لماذا لا يقول ما يعرف ويريحهم من كل هذا العناء؟

وإذا لم يكن بينهم، وكان من خارج الحارة لماذا لا يأتي إلى الحارة ويقول ما لديه؟ أليس هذا ما يحدث عادة حين يموت شخص. (لا بأس فلا دليل أن الحاجة قد ماتت، اختفت على الأقل)، ألا يفعل الناس مثل هذه الأشياء، يأتون إلى أهل الغائب ويقولون كل ما لديهم! أليست هذه جزء من الأمانة والمسؤولية الملقاة على عاتقنا حين نعرف بعض الأسرار. أليست الأسرار مسؤولية وأمانة. هل يمكن الافتراض أن هذا ما حدث فعلاً. أي أن ثمة شخصاً ما على تواصل مع عائلة كريستينا البريطانية وهو من قام بترتيب موضوع الميراث، أو من قام بإشعار العائلة بأن ثمة وريثاً

لجورج في غزة، أو أنه هو، أو هي بالطبع، من قام بإبلاغ السلطات البريطانية عن مواطنتهم الفلسطينية الموجودة في غزة.

أيضاً هل يمكن الافتراض أن مثل هذا الشخص موجود في بريطانيا وليس في غزة؟

مثل أن يكون أحد أصدقاء كريستينا القدماء الذين عرفتهم أيام صباها في لندن وظلت على تواصل معهم. فالناس اعتادت أن تتواصل وأن تظل علاقاتها قائمة قبل عصر الفيس بوك والإعلام الاجتماعي. حيث يمكن من خلال الاحتفاظ برقم هاتف البيت أن تظل على تواصل مع شخص لعقود، حيث إن هاتف البيت عادة ما يكون ثابتاً لا يتغير إلا بتغير العنوان. أو أن تحتفظ بعنوان البريد العادي وتتواصل مع أصدقائك ومعارفك عبره. بعض الرسائل لا يصلنا عليها رد لكنها تكون قد وصلت، حتى لو استغرقها الأمر سنوات حتى يكتشف من أرسلناها له أنها وصلت. مثل أن يكون مسافراً إلى مكان قصي أو ترك العنوان الذي أرسلنا له الرسالة عليه لفترة من الزمن، ثم إذا عاد بعد سنوات وجد الرسالة ضمن عشرات الرسائل الأخرى. يحدث هذا في الحياة. ويحدث أن يأتينا الرد بعد عمر طويل، لكنه يأتي في نهاية المطاف. القصد أنه يمكن افتراض أن كريستينا على تواصل مع أحد من معارفها هناك في لندن، قد تكون صديقة أو صديق قديم أو أحد الجيران. ويكون هو من قام بالتواصل مع الورثة أو ربما أوقف عملية توزيع الميراث أو أبلغ الحكومة البريطانية. شيء من هذا القبيل قد يكون حدث، لكن أحداً في الحارة لم يعرف به، وربما كريستينا نفسها لم تعرف به حتى اللحظة التي حملها بها جيب اللاندروفر واتجه صوب الشمال حيث سيعبر بها حاجز إيرز إلى بناية قرب مطار اللد ثم إلى الطائرة.

هذه افتراضات لا يمكن الجزم بصحة أي منها، لكن يمكن التأكيد بأن شيئاً ما في هامش هذه الافتراضيات أو على تخومها قد حدث فعلاً، لكننا لا يمكن لنا الجزم بذلك. وعليه فإن قصة اختفاء كريستينا والسبب الحقيقي وراء كل ذلك ستتحول مع الوقت مثل مجمل تلك الألغاز التي تحفل بها حياة الطفلة التي غادرت يافا وهي بالكاد بلغت عامها الحادي عشر، وعاشت في لندن، وعادت إلي فلسطين لتجد نفسها تعيش بدلاً من بيت على شاطئ البحر في بيت على سوافي رمال غزة في مخيم للاجئين، ثم تتحول مع الوقت من امرأة مشكوك في حقيقة انتسابها للحارة إلى السيدة الأكثر احتراماً وإجلالاً في الحارة، وتصل إلى حد اليقين ببركاتها. ألغاز كثيرة تحفل بها حياة كريستينا وليس اختفاؤها وكل الأسئلة المتعلقة في مسببات هذا الاختفاء وتداعياته على حياة الحارة إلا جزءاً آخر من حياة كريستينا كما عرفها الناس. فلا يمكن لحياة بمثل هذا التناقض وبهذه الكمية من المفارقات أن تنتهي هكذا، مثل أن يموت خالد بن الوليد على فراش الموت وليس في ساحات الطعان.

لا أحد يعرف المفاجأة الحقيقية. فكريستينا لا تملك أي أوراق رسمية تقول إن اسمها فضة بالمطلق. فعند عودتها إلى غزة وبعد فترة من وصولها كان عليها أن تسجل لدى مقر الأحوال المدنية محاولة استخراج بطاقة تعريف فلسطينية. لم يكن هناك ما يثبت أنها ابنة عوني السعيد، حتى المختار الذي ذهب على مضض معها لإثبات التعريف لم ينجح في إقناع الضابط. الأخير قدم القهوة للمختار بنفسه وطلب منه أن يسامحه فهو لا يستطيع أن يعتمد إلا على وثائق. فمعظم سكان المخيم يشُكون في الرواية، كما أن المعلومات المتوفرة لديه أيضاً تقول إن المختار نفسه لا يصدقها.

عموماً ما اقترح الضابط أن يفعله هو أن يسجلها باسمها المثبت في جواز السفر البريطاني ويضيف عليه اسم عائلة والدها كما تدّعي. «هادا عشانك يا مختار، أنت عارف معزتك عنا». ضحك المختار وسأل: «كيف يعني؟». قال الضابط نسجلها وفق الأوراق الثبوتية التي دخلت فيها إلى غزة ونضيف فقط اسم والدها في الآخر. بحيث يصبح اسمها كريستينا عوني السعيد. وبذلك لا يوجد شيء في الأوراق الثبوتية باسم فضة.

وهكذا عاشت فضة باسم كريستينا بين الناس وفي الأوراق الثبوتية. من جانبها لم تحاول كريستينا تغيير الأمر. إذ إن الناس أحبوا اسم كريستينا أو أنهم ألفوه وظلوا ينادونها به. فقط زوجها وسلطانة كانا يناديانها «فضة»، وكان هذا يكفيها. أما في كل الأوراق الرسمية من عقد الزواج حتى بطاقة الهوية حتى شهادة ميلاد وحيدها ياسر، فإن اسمها ظل كريستينا. في مرات كثيرة يصبح القدر جزءاً من الواقع الذي سيبدو معاندته درباً من ضرب الرأس في الحائط. لذا تعلمت كريستينا أن ثمة عناداً لا واجب له طالما لا يغير شيئاً.

ومع الوقت باتت كريستينا جزءاً من حكاية كل واحدة وواحد منهم. في مكان ما خلال سرد حكايته لابد أن يأتي على كريستينا. صارت الناظم لكل تلك الحكايات، والنكهة المشتركة بينها إلى جانب قصة الخروج القهري الكبير من مدنهم وقراهم. كما سيقول لها حمدي بعد ذلك، فإنه لا يمكن تخيل الحارة بدونها. قد لا تكون نفس الحارة وقد لا تكون حارة أصلاً. فالغموض (إذا أحب أحدهم أن يسميه كذلك) الذي ميّز علاقة الحاجة بالحارة وقصة غيابها عن يافا عام 1947 وعودتها بعد إحدى عشرة سنة، وكل ما رافق ذلك من شك، أضاف للحكاية بعداً آخر. وربما سيكون من

العصي تخيل حياة كريستينا والحارة دون هذه التفاصيل التي خلقت طعماً مميزاً لشبكة علاقاتها مع الناس. فهي التي ترقي المكروب، وتصف الدواء للمريض، وتطرد النفس من المحسود، وتنصح المرأة إن تأخرت في الحمل كيف تُعجل به، وهي القابلة والناصحة والراشدة وصاحبة القول السديد. إلى جانب كل ذلك فهي أشجع نساء الحارة في مقارعة جنود الاحتلال خلال الانتفاضة الأولى حيث كانت تقف مع صفية ونبيلة وسهيلة يُعقن حركة الجنود وهم يلاحقون الفتية في الأزقة. كن يجمعن الحجارة للشبان ويكومنها حتى يلتقطها الشباب ويقذفوا بها الجنود، كما كن يوزعن رؤوس البصل المهروس على الشبان حتى يشمونه فيضيع مفعول قنابل الغاز المسيل للدموع. وكثيراً ما كانت كريستينا وبقية النسوة يمسكن بجرادل بلاستيكية، وما إن تنزل القنبلة المسيّلة للدموع حتى يغطينها بالجردل ليمنعن انتشار الغاز في الجو.

وجود كريستينا في الحارة كان يبعث الطمأنينة في نفوس سكانها. خلال الاجتياحات الإسرائيلية للمخيم من جهة الشرق أو الشمال، التي كانت تتم منذ بداية الانتفاضة الثانية وقبل ذلك خلال المواجهات مع الجيش في الانتفاضة الأولى وحتى خلال الأيام الأولى للعدوان على غزة في ديسمبر من العام 2008 قبل أن تختفي، كانت تجلس على طرف الزقاق الذي يربط بيتها بشارع الحارة . تضع كرسياً كبيراً تلبس تنورة فضفاضة قماشها سميك وتغطي رأسها بشاشة بيضاء. «الشاشة» صارت الزي الذي انتشر بين نساء المخيم حيث يلبسن الداير (وهو أشبه بالتنورة السوداء العريضة) الذي يغطي الجزء السفلي من فستان طويل يلبسنه وشاشة الرأس. زيٌّ بدأ ينحسر تدريجياً ليحل مكانه الجلباب والإشارب والخمار. كانت تبدو مثل

حارسة المعبد التي تجلس على بوابته تقيه من الشرور. يمكن تخيلها وصفاً ورد في تلك الكتب القديمة عن الأساطير . جلستها التي تملأ الكرسي الذي بدوره يملأ الزقاق، نظراتها الحادة في كل شيء تقع عليه عيناها، كأنها تتأكد أن أي حركة في شارع الحارة لن تمس أحداً بمكروه، تمتماتها بين الفينة والفينة، حركات يدها في الهواء، ردها لتحية المارة متبوع بأدعية وأمنيات معسولة، الهيبة التي يتركها حضورها في الشارع، كأنه يخفف القلق والخوف اللذين ينتشران بين الناس بسبب القتل والتدمير الذي يصحب كل عملية اجتياح أو تصعيد، يقتل التوتر الذي يتركه صوت الطائرة الزنانة وهي تحوم فوق رؤوسهم طوال النهار والليل، أو صوت البوارج تهدر في البحر تُخرج الحمم من فوهات مدافعها مثل فحيح الأفاعي.

في مرات كثيرة خلال الانتفاضة الأولى حين كان الجيش يلاحق الأطفال والفتية في الشارع ستقوم كريستينا بتخبئة أحدهم تحت تنورتها الفضفاضة. حدث ذلك مع منار قصير القامة رفيع البنية. كان وقتها فتى صغيراً لم يبلغ الثالثة عشر حين كان الجنود يطاردونه من زقاق لزقاق خلال المواجهات حامية الوطيس في المخيم في الشهر الأول للانتفاضة. وصل منار عند كريستينا وهي تجلس على الكرسي العريض، تنورتها تغطي الكرسي وتفيض. سحبته من يده. دسته تحت الكرسي وغطته بالتنورة. اختفى الفتى الصغير تحت التنورة. وصل الجنود إلى طرف الزقاق. أين اختفى الفتى؟ ارتبكوا. كأن الأرض انشقت وبلعته. أخذوا يبحثون بين الأزقة قبل أن يركبوا الجيب العسكري ويمضوا. خرج منار من تحت التنورة التي كانت مخبأه لربع ساعة من الزمن. ستظل قصة «التنورة المخبأ» أحد القصص كثيرة التردد في الحارة بعد ذلك،

خاصة حين تمسك الحاجة منار من أذنه وتقول له إنه لولا تنورتها لكان في السجن.

منظرها وهي تجلس في شارع الحارة مثل تمثال قديم يحرسه، خاصة وقت الأزمات والتصعيد، كأنها كانت بوجودها ترد الأذى والمكروه والموت. تقي الناس من الشرور القادمة. نبيلة ستقول لنساء الحارة إن الحاجة تشم الخطر، تستشعره، تتعرف عليه قبل وقوعه. لذا فهي ومنذ أول قصف مدفعي أو قصف طائرة أو بارجة ستجلس على كرسيها الواسع في هيئتها المعهودة تبعث الراحة في نفوس الناس. تمتص توترهم وخوفهم. تلك الجلسة التي لا يمكن تخيل الحارة بدونها.

بعد أن تغيب، عليهم أن يتعودوا على الحياة بدونها. أن يعيدوا تكييف حكاياتهم دون أن تكون هي جزءاً منها. لهم أن يعيدوا شكوكهم حول أصلها وفصلها كما يشاؤون، وأن يعودوا إلى ثرثرتهم حول وصولها المفاجئ إلى المخيم، وأن يستعيدوا كل تلك الحكايات التي توارثوها جيلاً بعد جيل عن الفتاة الإنجليزية التي تقول إنها ابنة عوني السعيد. لهم أن يقولوا ما يحلو لهم، لكنهم سيحسون بعد أيام بوقع المصاب وبالفراغ الكبير الذي تركته كريستينا في حياتهم. سيشعرون أن جزءاً منهم ضاع. حكايات الضياع الكثيرة التي تملأ كتاب عمرهم. وفيها سيواصلون اختلافهم حول رواية الاختفاء، كما اختلفوا حول رواية وصول كريستينا إلى الحارة، فإن الشيء المؤكد الوحيد هو هذا الشعور بالحنين للـ«حجة»، وللإيقاع الخاص الذي تُحدثه في حياتهم. ستتغير أحوال الحارة وستتبدل مصائر سكانها، كما هو ديدن الحياة، لكنهم سيظلون يسألون أنفسهم إذا كان كل هذا التغير مربوطاً بغياب الحاجة. هل غيابها المفاجئ لعنة حلت بهم.

في أتون هذا الحنين يحاولون إخفاء شكواهم بأن الحاجة خانتهم مرة أخرى وتركتهم وسط الحرب لتنجو بنفسها، حتى لو لم تترك المخيم برغبتها وكانت مرغمة على ذلك. يُخفون هذه الشكوى وربما الشكوك، وهم يطلقون العنان لريح الحنين تحملهم إلى تلك اللحظات الجميلة التي كانت فيها الحاجة تحرس حارتهم وجمعتهم، وتملأ عليهم الدنيا. وإذا ما تركوا الحنين رابضاً على شرفات النوافذ وأغصان الأشجار، فإنه يباغتهم مثل طير يخفق جناحيه فيثير زوبعة في قلوبهم لا تهدأ. ويقولون: «وينك يا حجة؟».

الركض في ممرات الماضي

من الممكن أن تكون الحاجة كريستينا قد استقرت في لندن، في البيت ذات الذي عاشت فيه طفولتها في منطقة فيكتوريا وسط المدينة، في أحد الشوارع بين محطة القطار الكبرى في فكتوريا وجسر «شلسي» فوق «التايمز». البيت الذي عاشت فيه أيامها اللندنية. لندن اختلفت عن ذي قبل. لندن ما بعد الحرب العالمية الثانية المنهكة من ماكينة الدمار ومن القصف الذي طال بعضها ومن شحبار الغارات ورعب الموت، صارت الآن بعد ستة عقود حيوية ونشطة ومزدهرة وسريعة الإيقاع، بالكاد يقف الناس إلا لانتظار إشارة المرور أو الحافلة.

نزلت الدمعات من عيني كريستينا وهي تتذكر أيامها في المكان. قد تكون لا تعرف حتى الآن من جاء بها إلى هنا. أو كيف وصلت إلى البيت. الرجل الأربعيني الذي رافقها من المطار إلى البيت لا ينطق إلا كلمات محددة، لا تجيب على أي سؤال تسأله كريستينا. فقط قد يقول «نعم»، أو «لا»، أو «لا تقلقي مدام». عبارات تظن كريستينا أنها مسجلة على شريط كاسيت يقوم بإعادتها كلما سمع سؤالاً أو تعليقاً. فتح الباب وقال: «تفضلي»، ثم خرج.

البيت مرتبٌ، كأن أحدهم قد انتهى من تنظيفه قبل لحظات. كل شيء في البيت يقول إنه كان مأهولاً قبل دقائق. حتى الثلاجة بدت مليئة بالفواكه والخضار الطازجة. صورتها القديمة مع جورج في «الهايد بارك» التي التقطت بعد شهرين من وصولها عام 1947، معلقة على الجدار كما كانت. الطين مازال عالقاً على بنطالها وبعض منه على يدها اليمنى، والابتسامة الكبيرة التي تتمدد على شفتيها مازالت تشع نفس بريق السعادة الذي حملته تلك اللحظة قبل أكثر من ستين سنة. صورة أخرى لجورج في البيت يمسك طرف غليونه بيد والمعطف الطويل يتدلى على ذراع يده الأخرى. ربطة العنق القصيرة. الطاقية الطويلة فوق رأسه مثل صندوق العجائب.

حاولت أكثر من مرة إعادة ترتيب ما حدث.

كان الهدوء الموحش في تلك الليلة يحمل الحاجة كريستينا إلى قاع القلق، تتحسس وجهها كأنها تمحو خطواته الباهتة عنه. دبيب أقدامه في قلبها. فحيح الصمت الموغل في الروح. الرعشة الخفيفة التي تسري في جسدها الهرم وهي تقف أمام النافذة تشتم رائحة الكينيا وطنين النحل يلعق العسل من زهراتها الصغيرة . شيء يتآكل داخلها. إحساسها بانزلاق الحياة في وحل العتمة التي تخاف، لذا لم تغلق النافذة طوال حياتها، كانت تتركها مشرعة للريح حتى حين يحمل الشتاء الأمطار أو الخريف الأتربة. تخاف لحظات العتمة تلك. تأكل هدوءها. الخوف الذي لا تفصح عنه. بحلقت في العتمة تحاول ترويضها، الاستئناس بروائح الأشجار، لكن بلا جدوى.

الرتابة التي تفتك ببحثها النهم عن النوم في تلك الليلة العاصفة.

أدركت أن غيمة المستقبل تحمل المزيد من هذا القلق، وأن عدم نومها سببه كارثة ستحدث. لم تتبصر الغيب ولم تحدق في قاع فنجان، ولم تمسك بتلابيب المجهول، إنه الإحساس الذي تدركه حين يرجف قلبها فجأة، ثم يهوي في تجاويف جسدها، ثم تحس أنها فقدته حين ينزلق من بين ساقيها ويغوص في الأرض. تعرف هذا الشعور، وتعرف كيف تكون خاتمته.

صوت الطائرة الزنانة تحوم مثل بعوضة تملأ النواحي بالترقب وتنشر الذعر بين الكبار والصغار سواء. ثم جاء جيب اللاندروفر في الصباح وحملها معه.

حين انطلق جيب اللاندروفر من الشارع كانت الانفجارات تهز المخيم. البيوت والأزقة تهرب خلف النافذة، ثم تختفي خلف غيمة السحاب التي تثيرها عجلات الجيب. السائق آثر المرور من الطرقات الطينية بين البيارات القليلة المتبقية شرق المخيم قبل أن يصل شارع صلاح الدين، ثم يتجه شمالاً نحو نقطة «إيرز» العسكرية. حين وصلت كريستينا إلى المخيم عام 1958 كانت بيارات الحمضيات الكثيفة، خاصة بيارات البرتقال، تمتد على مرمى البصر، تلف المخيم مثل «خاتم» أو أُسوارة سميكة على معصم نحيف. تدريجياً بدأت البيارات بالتآكل أمام زحف البنيان والعمارات والأحياء الجديدة، حتى تكاد تختفي. شعرت بثقل في رأسها وهي تدرك بأن الجيب يأخذها خارج غزة. رأت الجنود الإسرائيليين يتحدثون مع السائق، ثم تُفتح بوابة النقطة العسكرية وينطلق الجيب شمالاً. مرّ الجيب عن تلك القرى الجميلة الهادئة التي دمرتها النكبة، والتي تسمع قصصاً كثيرة عنها يومياً في المخيم. في الأفق قد ترى

بقايا بيت مهدم، أو آخر نوافذ مقهى قديم، أو أسوار مسجد صارت مرتعاً للأعشاب والطحالب. شيء من المكان يتمرد على النسيان.

عند وادي الحسى، مباشرة بعد النقطة العسكرية، حيث تمتد قرية دمرة شرقاً وقرية هربيا غربيا ومن ثم دير سنيد، أطلت برأسها من النافذة للمرة الأولى كأنها تريد أن تخرج. السائق أوقف الجيب بهدوء، وطلب منها أن لا تُخرج أي جزء من جسدها خارج النافذة. حتى هذه اللحظة لم تتبادل الكثير من الكلمات مع الرجلين الغربيين اللذين أخذاها من بيتها في الحارة. الرجل المحلي الذي كان يرافقهما، تركهما قرب النقطة العسكرية حيث أخذته سيارة أخرى وعادت به إلى غزة.

واصل الجيب اللاندروفر شق طريقه وسط القرى المهجّرة .. برير بيت جرجيا، بربرة، الجية، نعليا، بيت طيما، قبل أن يصل إلى المجدل. قرى مازالت تحمل أسماءها الكنعانية القديمة ورائحة القهوة على الكوانين.

سألت الرجل الذي يجلس بجوار السائق عن جهتهم التي يقصدونها. ابتسم وهو يقول إن بإمكانها التدخين. أعادت السؤال مرة أخرى. رد دون أن يزيل الابتسامة عن شفتيه: نحن ذاهبون للوطن. أشارت بيدها للطريق كأنها تقول هنا الوطن. نظر هذه المرة في وجهها وطلب منها أن لا تقلق. أكثر شيء يجب أن يقلقك في الحياة هو حين يُطلب منك أن لا تقلق، لأن من يطلب منك ذلك يعرف أن هناك مليون سبب كي تقلق، وهو يصر على نفيها كلها.

الوطن؟! سألت باستغراب.

اكتفى الرجل هذه المرة بهزة رأس دون أن يدير وجهه نحوها.

السؤال الذي لم تعرف يوماً كيف تستقر على إجابة له. بعض الأسئلة تكون كبيرة ونعتقد أنها تتطلب إجابات كبيرة أيضاً، لذا نظل نبحث كثيراً عن إجابة بحجم السؤال، وكأنه كلما كبرت علامة الاستفهام في نهاية السؤال، توقعنا إجابة أكبر. لكننا نكتشف في مرات كثيرة أن العكس ربما هو الصحيح. بعض الأسئلة ليست بحاجة لإجابات. منذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها قدماها محطة القطار في غزة في عام 1958، ظهرت علامة الاستفهام الكبرى في وجهها. كيف تكون فتاة بريطانية وتصل لغزة تبحث عن عائلتها، دون أن تعرف شيئاً عن هذه العائلة، ولا حتى أين تسكن؟ إنها علامة الاستفهام ذاتها التي رفعتها موظفة وكالة الغوث حين رأتها قرب بئر المياه في المخيم وظنت أنها صحفية. لماذا لم تظن أنها يمكن أن تكون فلسطينية. سألت نفسها في تلك الليلة هل يمكن لهوياتنا أن تفرض علينا نمطاً معيناً من التصرف؟ أو هل يجب أن نتخذ هيئة وشكلاً محددين يتناسبان مع هويتنا؟ موظفة الأونروا بدت متأكدة أن كريستينا لا بد أن تكون أجنبية، لا يمكن أن تكون من «هنا». هناك صورة راسخة عن من يمكن له أن يكون من هنا. إنها نفس النظرات التي ظلت تراها في عيون الناس خاصة في سنواتها الأولى في المخيم. رغم أن كريستينا وحين تقف أمام المرآة لن تجد الكثير من الفوارق في الشكل ولون البشرة والعينين والشعر بينها وبين رفيقاتها في المخيم. فهي لم تكن شقراء البشرة، كما لم تكن عيونها خضراء أو زرقاء ولا شعرها أشقر، ولا شيء من ذلك. رغم أن الكثير من نسوة المخيم ورجاله عيونهم خضراء وبشرتهم بيضاء وشعورهم شقراء. مر الغزاة كثيراً من هنا، وعادة الغزاة أنهم يتركون بعضاً منهم من خلال التزاوج والاختلاط، كما أن بعضهم يستطيب

المكوث فيبقى في البلاد بعد أن ترحل دولته. لذا ليس من الغريب أن تجد نساء ورجالاً ملوني البشرة والشعر والعينين. رغم ذلك لم تكن كريستينا منهم.

حتى بعد أن تقدم بها السن، ولم تعد تلبس البنطال والقميص، وصار لبسها يشبه لبس بقية نساء المخيم، ظل فيها شيء يشير إلى هذا الجزء الملتبس من هويتها. كريستينا تعرف أن مثل هذا النقاش بدأ مبكراً في داخلها. ربما يوم وقفت عائلتها في يافا تلوح لها فيما الباخرة تشق طريقها وسط موج بحر يافا الهادئ. في لندن شعرت بغربة قاتلة حين وصلت. لا تعرف شيئاً. حتى الكلمات الإنجليزية التي تعلمتها في المدرسة هربت من ذاكرتها. فقط كانت تستمتع بالنظر للمباني التي رأتها في صور كتبها المدرسية. صيف عام 1947 سيظل واحداً من أجمل فصول الصيف التي مرت على لندن خلال سنوات كثيرة بعد الحرب العالمية الثانية، خاصة درجة الحرارة العالية بالنسبة لمدينة مثل لندن. قال جورج وهو يساعدها على ترتيب ملابسها في الخزانة: هذا فأل خير. لندن تستقبلك بشمس وحرارة مثل تلك التي في يافا. صمت ثم أضاف:شيء يشبه الوطن.

ثاني يوم لوصولها إلى لندن وقفت على جسر لندن تتأمل حركة السفن في الميناء. شيء يشدها إلى هناك. قالت لنفسها: «أيام وبرجع». سيمضي العمر وهي تعد تلك الأيام. أخوات جورج تسألن أخاهن بين وقت لآخر عن الوقت الذي ستعود فيه الفتاة إلى «بيتها». رغم الترحيب الشكلي الذي قابلتها به عائلة جورج، إلا أن الكيمياء المفقودة أو ربما التفاعل الخاطئ حكم طبيعة هذه العلاقة. أن تعود الفتاة إلى «بيتها» فهذا هو الأمر الذي تتمناه العائلة.

بعض الأشياء نفهمها لاحقاً، لكن حين نفهمها نشعر بعجزنا الحقيقي عن استيعابها. كريستينا أو «فضة» أو «الحجة» لم تفهم يوماً ماذا يعني كل شخص حين يقول كلمة وطن. فجورج يعرف أن الوطن بالنسبة لفتاة عربية من يافا مرغمة على العيش في لندن ليس هنا، لكنه يريد له أن يكون «هنا». حين كان يقول «يشبه»، كان يرمي دائماً إلى أنه عاجلاً أم آجلاً سيصبح هذا الشيء هو الوطن. جورج، الذي فقد الأمل في عودة الفتاة إلى أهلها، يريد لها أن تتقبل وطنها الجديد.

كما تظن كريستينا أن والدتها «حياة»، التي لم تعرف أنها فارقت الحياة بعد أقل من عام على رحيلها إلى لندن، ظلت مثلها تواظب على عد الأيام التي تُقّرب ابنتها من «الوطن». وصديقاتها اللندنيات في المدرسة يسألهن عن الحياة «هناك»، مستخدمات الكثير من الصور النمطية والكلاشيهات عن الشرق المتبوعة بضحكات، شعرت كريستينا معها بالكثير من الألم. وحده جورج كان يعرف كيف يطّيّب خاطرها ويقول لها العبارات التي تشفي النار التي تضطرم في صدرها. مع الوقت ستنسى صديقاتها تلك الدعابات وهن يتعاملن معها كبريطانية. أما أخوات جورج فلم يقتنعن، رغم مرور زمن على وصول الفتاة إلى لندن، أنها يمكن أن تكون واحدة من العائلة. العائلة التي يرين فيها شيئاً مقدساً، لا يمكن لغريبة أن تكون جزءاً منها. عليها أن تعود إلى عائلتها. عائلتها التي لم تعد موجودة فعلياً. حتى حين تعود إلى غزة ولا تجد العائلة سيرفض الناس في المخيم فكرة أن تكون واحدة منهم. وفي أكثر اللحظات حميمية ودفئاً وحين ينسون وصولها المفاجئ إلى المخيم وتشكيكهم بنسبها، قد يعرجون على حياتها اللندنية إما بقصد الفكاهة أو لدفعها للحديث عن أيامها الماضية.

الرجل بجوار سائق الجيب اللاندروفر يقول جازماً لها إنهم ذاهبون إلى الوطن. الأمر بالنسبة له لا جدل فيه. كل له صورته عن الوطن، وكل يمتلك إشاراته العاطفية التي تفوح من الكلمة حين ينطق بها. فوالد حسن لم يستطع أن يرى يافا بعد أن أُرغم على الخروج منها خلال النكبة، لأنه لم يرد أن يرى شيئاً غير يافا التي يعرف. لأننا عادة نرسم صوراً ذهنية جامدة للشيء الذي نحب. نقاوم أي محاولة لتغيير هذه الصور. إنه الشيء ذاته الذي فعلته كريستينا حين لم تذهب لزيارة يافا بعد عام 1967 واحتلال إسرائيل لغزة، لأن يافا تعني لها وجود عائلتها وصديقاتها. لم يعد شيء من هذا موجوداً، لذا فضّلت أن تظل يافا التي تعرف في بالها.

بعد لقاء صغير في مقهى «إل فينو El vino» في شارع «فلييت» مع صديق قديم له يعمل محرراً في صحيفة كبيرة، وجد جورج عملاً جديداً. صديق جورج نظر في عيني الفتاة التي تجلس بجواره وسأل: بالطبع لم تتزوج هناك؟!

ضحك جورج وهو يمج مبسم غليونه: ليس تماماً.

أمسك يد «فضة» وهما يتجهان صوب كاثدرائية القديس بولص أعلى مبنى في لندن عند وصول «فضة» هناك عام 1947، لم تكن العمارات الشاهقة ولا ناطحات السحاب قد عرفت طريقها إلى سماء لندن. قال: «يظنون أنك ابنتي». أمضيا اليوم يتجولان في لندن يتنقلان عبر «المترو» من مكان لآخر. يسيران مسافات طويلة قبل أن يشعرا بالتعب فيرتاحان في مقهى أو مطعم. في سوق «سميث فيلد» اشترى بعض الخضار والفاكهة. نظر إلى «فضة» وقال: «لا شيء يشبه رائحة البرتقال هناك». الروائح أكثر الأشياء

نفاذاً إلى ذاكرتنا. تعيدنا إلى لحظة انبعاث الرائحة. أجراس تقرع دفعة واحدة. لكن على الحنين أن يخبو، أن يجلس القرفصاء في زاوية قصية من الذاكرة، خاصة حين وجدت «فضة» أن عليها أن تعيش حياتها «هنا» مرغمةً، حتى يُتاح لها أن تجد طريقها إلى أهلها.

لم يمض وقت طويل حتى تأقلمت مع الحياة في لندن.

تأقلمت!

كلمة غريبة. كيف للمرء أن يتأقلم؟

صارت تتحدث الإنجليزية بطلاقة. كوّنت صداقات كثيرة، وباتت تذهب لزيارة صديقاتها وتخرج معهن. بعض أفراد عائلة جورج، خاصة صغار السن منهم، بدؤوا أكثر تقبلاً لها. الكثيرون نسوا أصلها وباتوا يتعاملون معها على أنها واحدة منهم. لندن لم تعد مكاناً غريباً بالنسبة لها. تعرف كيف تقضي وقتها في المدينة. تحب المطر كثيراً وتبحث عن الشمس كلما رأتها تشق طريقها بين الغيم. حتى يوم أمطرت السماء خلال حفل تتويج الملكة إليزابيث في حزيران عام 1952، وعادت كريستينا من الشارع مبللة، لم تشعر بالضجر أو الغضب، ظلت تشدو الأغاني وتدندن الألحان التي كانت تصدح بها لندن في ذلك اليوم الصاخب.

عشقت الذهاب للسينما وللمسرح. مازالت بعد أكثر من ستين عاماً تذكر كل أسماء الأفلام والمسرحيات التي حضرتها برفقة أصدقائها.. الرجل الثالث.. الحذاء الأحمر.. الرجل ذو البدلة البيضاء.. قاتل السيدات.. انظر للخلف بغضب.. مازالت الكثير من المشاهد والحوارات راسخة في عقلها. ليس صحيحاً أن «الماضي بلاد غريبة حيث يتصرفون بطريقة مختلفة هناك»، كما قرأت في رواية

«ليزلي بولز هارتلي» «الوسيط». فأيضاً في الماضي ثمة أناس يعيشون معنا. للصدفة فإن أول رواية تقرأها كاملة باللغة الإنجليزية كان الماضي فكرتها الطاغية.

يعود الآن في عقلها شريط حياتها في لندن بعد نصف قرن. تقفز بين اللحظات والمشاهد والمواقف. الزمن لا يمر. نحن فقط نبتعد عنه. كل شيء يعود طازجاً في الوقت المناسب. تتداخل الذكريات وتتقاطع المشاهد والأصوات.

اجتاز الجيب المجدل، وواصل طريقه شمالاً. تقترب منها يافا. كأنها تركض نحوها. مثل طفلين يمدان أيديهم في الهواء مثل رسمة الخلق لمايكل أنجلو. لحظة العناق المرتقبة. مثل تلك العناقات التي كانت تشتهيها. صخب حفلة عيد ميلادها الأخير في يافا ينتشر حولها. صوت والدتها «حياة» وهي تدعو الجميع لتناول الحلوى، ضحكات سلطانة ومريم وفريال، لعبهن «الغميضة» في البيت وفي الحديقة، روائح الأشجار، مدرسة «ترسنتا»، الميناء، السوق، الشاحنات تحمل صناديق البرتقال، القطار يخرج من المدينة، أضواء سينما الحمرا، السرايا الحكومية، الأزقة المقوسة، رمال البحر تدغدغ قدميها.

اجري يا فضة.

تركض الفتيات خلف الحنطور يحاولن أن يمسكن به. وقع حوافر الحصان على الإسفلت.

اجري يا فضة.

تضحك سلطانة وهي تمسك طرف ثوبها حتى لا يتسخ. يُنهكهن التعب. الحصان يواصل حفر الطريق بحوافره، تقفن عند محل لبيع المثلجات، يشربن عصير برتقال مثلّج.

اجري يا فضة.

ثم يبدأ لهوهن في الركض خلف أي شيء يمر في الشارع. «فضة» تخاف الركض خلف السيارات. مر القطار. أخذن يلّوحن للركاب. من شارع لآخر حتى وصلن الشاطئ. صخب البحر، ضجيج المصطافين، جرس الكنيسة، صوت الباعة الجوالة. تسابيح المسجد. دورية بريطانية تفتش مجموعة من الرجال.

اجري يا فضة.

يرتمين بعد جولة جديدة من الركض على الرمال. يحلقن في السماء الصافية تغزوها بعض الغيوم. أصوات الناس تتجمع فوق رؤوسهن. الأصوات تقتحم عقولهن من كل اتجاه. تطوف عيونهن في السماء، ضحكة صاخبة من امرأة على الشاطئ. ترتخي الجفون وتغفى العيون. النوم العميق الذي يدخلك فجأة وبلا مقدمات في عالم الأحلام. تسافر حيث تشاء، وتتنقل بين الأماكن التي تحب.

الفتيات الأربع يضعن أيديهن أسفل رؤوسهن. الشمس تغطس في البحر مثل كرة لهب خافتة. تتبلل أطرافها، لكنها تمعن في الاقتراب منه مثل فراشة تعشق ضوء المصباح. يتردد صدى الصوت «اجري يا فضة». لكنهن لا يقوين على القيام عن الرمل. العيون المنهكة من التعب تفتح وتغمض ثم تفتح وتغمض. رائحة شواء تفوح من موقد مجاور. السمك المشوي أكلة «فضة» المفضلة. لكن من يعرف إذا كانت هذه الرائحة جزءاً من حلمها الآن وهي تغفو على الشاطئ أم إنها فعلاً رائحة تفوح من موقد مجاور.

يصعب الجزم إذا ما كانت كريستينا تحلم الآن وهي تغفو في الطريق أم إنها تتذكر. فما إن انتهى الحوار القصير مع الرجل الذي

يجلس بجوار سائق الجيب، حتى بدأت رائحة يافا تهب بعنف عليها. كل شيء يقول إن يافا هناك، تقف على أطراف أصابعها، شاخصة نحو الأفق تنتظر وصولها. العناق الذي تنتظره. وجوه رجال ونساء الحارة تركض معها نحو العناق المنتظر. الرجل يشعل سيجارة وهو يطلب منها المعذرة لاضطراره فعل ذلك.

بعد عودتها من لندن عام 1958 لم تجتز حدود قطاع غزة. لم تذهب مثل معظم نسوة الحارة ورجالها لزيارة يافا والوقوف أمام بيوتهم التي بات يسكنها غرباء، يذرفون الدموع على عتباتها. حمدي كاد يقنعها ذات نهار بأن يأخذها معه. قال لها: «لسه فيه شوية يافا من يافا».

بس ما فيها فضة.

حتى المخيم ما فيه فضة يا حجة.

أدرك حمدي أن عبارته الأخيرة ضايقت كريستينا فأضاف بتردد:

قصدي إنه الدنيا هيك.

كريستينا أكثر شخص يمكن له أن يُسلم بقسوة القدر وبقدرته على أن يفرض علينا ما كتبَ لنا.

هذا الحنين الذي يخنق الروح شعرت به والجيب يشق الطريق شمالاً.

قد تكون كل تلك الأحداث مجرد احتمال يفسر مصير كريستينا بعد أن أخذها جيب اللاندروفر من بيتها في المخيم واختفى، بينما الحرب تفتك بجيرانها. والحقيقة أن ثمة احتمالات كثيرة يمكن لها أن تكون قد حدثت. مثل أن تكون كريستينا قد

عادت إلى لندن بمزاجها وبتنسيق مع أحد معارفها الذين ظلت على تواصل معهم، وأنها أرادت أن ترقد بسلام وتعيش بطمأنينة بعد أن بلغت من العمر عتياً.

كان يمكن لها أن تعود أدراجها إلى لندن بعد أن اكتشفت موت عائلتها، لكنها قررت أن تظل! كان يمكن لكل هذا أن ينتهي مبكراً. لماذا كان عليها أن تجرب طوال واحد وخمسين عاماً طريقاً ربما أحست بنهايته في لحظة ما! كان يمكن لها أن تحتج، أن ترفض، أن تقف بصلافة وعناد في وجه الأمر. صحيح أنها كانت مرغمة أن ترحل إلى غزة بعد موت السيد «جورج»، لكنها قررت أن تواصل رغم ذلك. كانت مرغمة في البداية لكنها واصلت بمزاجها. لماذا لم ترحل من غزة فور وصولها. لماذا لم تعد بعد أن اكتشفت أن عائلتها قتلت كلها خلال عملية التهجير القسري خلال النكبة؟ اختارت أن تبقى. حتى على افتراض أنها كانت مرغمة في البداية، كان يمكن لها أن تختار نهاية أخرى، مثل أن تعود إلى لندن حتى لو لم تكن عائلة «جورج» راغبة في الاحتفاظ بها بعد موته. كان يمكن لها أن تعيش حياتها بعيدة عن عائلتها الإنجليزية. احتمالات كثيرة، لكن هناك طريق إجباري حين يفرشه القدر أمامنا لا نرى غيره. حتى إن رأينا غيره نختلق ألف سبب حتى لا نسلكه.

أسهل شيء أن نحاكم الماضي بوقائع الحاضر، أن نحكم عليه بمعطيات سنوات لاحقة. فقط لأنه مضى يمكن لنا أن نتعلم منه، أما أن نقوم بتغيره فهذا مستحيل. فتاة تدخل الصبا وردة تتفتح وتفوح روائحها في النواحي، وما إن يكتمل نضوجها حتى تجد نفسها تسلك طريقاً أخرى لم تفكر فيها يوماً. لم تهرب يوماً لكنها لم تظن أن قطار الحياة يمر بهذه السرعة. كأنها تعلمت أن علينا أن نقبل

دائماً بالواقع الذي نعيشه. لا فائدة تُرجى من مقاومته. ولا قوس نصر تمر من تحته عربات المنتصرين في آخر الطريق، ولا أطواق ياسمين تزين صدورهم وهم يعبرون إلى فتوحاتهم المكية.

أيضاً من الممكن تخيل السيناريو التالي وهو يستند إلى بعض الحقائق بالمناسبة. ابن أخ جورج الأصغر الذي بات عضواً في البرلمان الإنجليزي عرف من أوراق العائلة بأن ثمة قريبة له تعيش في غزة. وأنه استطاع عبر شبكة علاقاته الكثيرة أن يعرف أين تعيش. وخلال السنوات الأخيرة منذ اكتشافه للمعلومة حاول أكثر من مرة أن يتواصل معها أو يصل إليها، لكن كل محاولاته باءت بالفشل. فقط قبل عدوان إسرائيل على غزة في ديسمبر من العام 2008، أبلغه صديق له يعمل في القنصلية البريطانية في القدس أنه استطاع الوصول إلى قريبته. عرف عنها صدفة من خلال حوار جمعه مع صحفي فلسطيني ذكر أمامه أن هناك سيدة بريطانية تعيش في المخيم. الحوار جاء صدفة ولم يكن مقصوداً. الدبلوماسي قال عبر الهاتف: «من المؤكد أن المقصود قريبتك». وهكذا تم ترتيب الأمر.

لكنها حتى الآن لم ترَ هذا القريب الذي خالف بالطبع تعليمات العائلة وبحث عنها. ما الذي يمكن أن يدفعه لذلك؟ فقد مر على الأمر أكثر من نصف قرن، وصارت كريستينا بحكم الميتة، حتى لو كانت مسجلة ابنةً لجورج، واضطروا في لحظة معينة أن يتقاسموا ثروته، فبإمكانهم فعل ذلك دون الحاجة للبحث عن الابنة المفقودة. يمكن الادعاء بحزن أن العائلة استنفذت كل طاقتها في البحث عنها ولم تجدها.

فور وصولها مطار «هيثرو» اصطحبها رجل أمن في سيارة خاصة إلى المنزل الذي عاشت فيه أول شبابها في منطقة فكتوريا

قرب ميدان «سلون». في الطريق دار حديث قصير معه، قال فيه إن مهمته هي أخذها للبيت حتى ترتاح هناك. سألت: من كلفك بذلك؟ رد باقتضاب: «هذه مهمتي». لم تفهم. تحاول كل مرة أن تفهم الوتيرة التي سارت بها الأحداث، لكنها تجد نفسها عاجزة عن فهمها. حين غادر رجل الأمن البيت، قال إنهم سيتصلون بها. فرحت إذ إنه يشير إلى أن أحدهم سيتصل بها. سألت: «من؟ متى؟». ابتسم لأول مرة، وطلب منها أن لا تقلق، ستعرف.

هل يمكن في مثل هذا السيناريو افتراض أن هذا القريب قد هاتف الحاجة ونسق معها عملية خروجها! ربما ولكن المؤكد أن الأمر تم بينه وبين صديقه الدبلوماسي بوصفه عملية إنقاذ لمواطنة بريطانية. لكن هذا القريب حتى لم يظهر بعد ذلك، وبقيت وفق هذا السيناريو كريستينا وحيدة في البيت. كانت بداية كل أسبوع تصحو من النوم تجد ظرفاً فيه تعليمات ومبلغ وفير من المال حتى تتدبر أمورها. ثم بعد ذلك وجدت بطاقة ائتمانية لم تعرف، في البداية، كيف تستخدمها. من الواضح أن ثمة من يتدبر كل شيء لكريستينا. لكنه -أي من يتدبر كل شيء لها- شخص غير معلوم. لا يريد أن يراها. وهكذا ظل الأمر أحجية غامضة بالنسبة لها.

يمكن أن تكون كريستينا قد ظنت أن هناك من يريد لها أن تقضي آخر أيامها هنا. فكرت كيف يمكن له أن يدبر كل ذلك دون أن تتمكن من رؤيته. تذكرت أن لجورج أخاً أصغر منه. رأته أكثر من مرة. لكنها غادرت لندن وهذا الأخ يدير أعماله التجارية في الهند. لا تذكر غير ذلك. بالطبع استبعدت أن تكون إحدى أخوات جورج التي طردتها ورتبت عودتها لغزة هي من أعادت بعث قصة وجود الفتاة الفلسطينية في العائلة. فقسوة الأخوات وازدراؤهن لها

لا توصفان، ولا يمكن تخيل أن ضمير إحداهن قد صحا فجأة. هكذا خمنت كريستينا. نحن نحكم على الأشياء من المسافة العاطفية التي تفصلنا عنها، كما من خبراتنا المتعلقة بها.

أيضاً هذا سيناريو يصلح لتفسير ما حدث. لكن من المؤكد أننا لا نستطيع الجزم بحدوثه. الكثير من التفاصيل قد تنتقل من كونها تخميناً إلى وقوعها فعلاً، لكننا لا نعرف، ولم يقابل أحد كريستينا، حتى الآن، حتى يعرف منها ما الذي حدث تحديداً.

كيف يمكن لسيدة عجوز أن تختفي من بين أهلها فجأة هكذا. صفية قالت ذات مرة لرجال الحارة: «العيب فيكم لو كنتم رجال ما أخذوها». ضحك زوجها حسن الصياد وقال: يا صفية كنا راح نوقفلهم على شارع الحارة! لم ترق السخرية في عبارات حسن لصفية التي ردت بعنف: ليش ما عملت هيك. هي كريستينا قليلة عنا! حسن أحس بأن النقاش سيصبح أكثر حدة، رد بلا مبالاة: «ما همي أخذوها قبل هيك في يافا وما احتج أهل الحارة». لكن المؤكد أن هذا النقاش لا يفيد ولا ينفع في الكشف عن حقيقة ما حدث. لغو جميل وثرثرة في غير محلها. نظر حمدي لصفية وقال: « الحجة عزيزة علينا كلنا».

مع الوقت لم يعد الموضوع يثير الكثير من النقاش، كما أنه بات مملاً الإتيان على الأمر، مع العلم أن كل المواقف والآراء لن تغير شيئاً. لم يتمكن أحد في الحارة تخيل كيف تسير حياة كريستينا هناك حيث سكنت بعد أن اختفت. هم أصلاً لا يعرفون ما الذي حدث معها في ذلك اليوم، لذا سيصعب عليهم تخيل أين انتهى بها المطاف. وحدها صفية حين ترى النسوة الأخريات في الحارة قد

تتأوه وهي تقول: «ابصر شو بتسوي كريستينا هلأ». الدمعة تكاد تقفز من عينيها وقتها.

ماذا تراها تفعل كريستينا الآن؟

سؤال يعكس ليس القلق على كريستينا ولكن أيضاً الحاجة لمعرفة شيء ما عنها. بعض المعلومات حتى لو كانت شحيحة أو صادمة تخفف بعضاً من القلق وتطفئ نار الانتظار، أفضل من أن نظل مثل حبة كستناء على جمرة، لا تنضج أبداً، فقط تحترق.

تتذكر الصمت الذي لفها وهم يأخذونها من المخيم عبر حاجز «إيرز» ثم إلى بناية قرب مطار اللد ثم الطائرة تحملها إلى لندن برفقة الشخص ذاته، الذي يبدو أن نقلها إلى لندن مهمته التي جاء من أجلها كما قال لها بعد ذلك. لا معلومات، لا شيء. فقط عليها أن تحمل نفسها على الصبر. إنها ذات الطريقة التي سارت عليها طوال حياتها. فيوم خرجت من يافا إلى لندن للعلاج لم يكن الأمر اختياراً تقوم به، ولا احتمالاً تبحث عنه. قررت العائلة بعد نصيحة الأطباء أن لا علاج لها في يافا وأن على العائلة البحث عن العلاج خارج البلاد. النتيجة أنها وجدت نفسها في مدينة غريبة. حتى بقاؤها هناك وترعرعها فيها كان بفعل وقوع النكبة وتدهور الأوضاع. كما أن عودتها إلى غزة للبحث عن عائلتها، التي لم تجدها، لم يكن بقرارها الذاتي، بل كان عليها أن تنفذ رغبة أخوات جورج. لم تكن تملك خياراً آخر. وحين عادت إلى غزة ولم تجد عائلتها التي اختفت شعرت بأن هناك أقداراً قاتلة تفتك بها. لم تعد قادرة على التفكير. فهي لا تستطيع أن تعود إلى لندن حيث مات من تعرفه هناك، كما أن أهلها هنا في غزة قد ضاعوا في رحلة النكبة. هكذا

قبلت بقدرها قبل أن يفتك بها، وظلت في غزة. وها هي بعد واحد وخمسين عاماً تجد نفسها مرغمة، ليس برضاها أيضاً، على ترك غزة والعودة إلى لندن. دولاب القدر الذي يصعد ويهبط يحملها مكبلة في رحلته الشقية القاسية إلى عوالمه الغريبة. لا تعرف متى يصعد ومتى يهبط، ولا أين يأخذها، ولا كيف تتحلل من ثقله.

تماماً مثل تعويذة الغياب التي تضرب العائلة فلا تنتهي، بل تعود للتكرار من وقت لآخر. فمن غياب والديها وعائلتها خلال النكبة إلى غياب زوجها عند حرب 1967 وبعد ذلك غياب وحيدها ياسر في بداية الثمانينات، والآن غيابها عن الحارة. كأن الغياب لعنة مقصودة في العائلة. على أفراد العائلة أن يغيبوا في دهاليز حكايات مختلفة، ولا يعودون. تعرف كريستينا أن الذي يغيب لا يعود. تعرف أن الحكاية الشخصية لا تكتمل إلا بغياب الجميع، أن الألم الفردي ليس إلا الصورة الأقسى عن الألم الجمعي. فالحياة عصارة حزن مكثفة، شربت مرارتها أكثر من مرة، وفي كل مرة تعزي نفسها أن ثمة شهداً في قاع الكأس. حتى قاع الكأس لا تصله. مكتوبٌ عليها أن تظل تشرب المرارة التي لا تنتهي.

غياب كريستينا كما غياب «فضة» قبل ذلك جزء من الغياب الجمعي الذي تزخر به الحكاية. أما بالنسبة لها فإن الحارة كلها غابت كما غابت يافا قبل ذلك وغابت لندن بعد أن تركتها. كانت تقول لصفية أن أكثر شيء يؤلمها في غياب أحبائها هو الانتظار وليس الغياب. انتظار من نحب أكثر ألماً وقسوة من غيابهم ذاته. بل إن هذا الغياب ليس إلا الفراغ الذي نحسه ونحن ننتظرهم.

ظلت في البيت في لندن ثلاثة أيام لم تخرج. حبست نفسها فيه. لم تفعل شيئاً أكثر من تأمل جدرانه. تجلس لساعات تناجي

نفسها، تحاول أن تفهم ما يحدث. لكن بلا فائدة. الغموض جزء من الحكاية التي تعيشها. آلمها أن الحارة كانت تشتعل والنيران تأكل بعض بيوت المخيم جراء القصف حين غادرت. لم تتخيل نفسها تترك الحارة في تلك الأوقات العصيبة. حتى إنها لم تحمل معها شيئاً حتى حقيبتيها اللتين وصلت بهما إلى المخيم قبل واحد وخمسين عاماً. تركتهما في الغرفة تنتظران عودتها، أو كأنهما تواصلان حضورها. ومع فارق السن بين الفتاة الناهدة التي وصلت محطة القطار في ذلك النهار من شهر شباط من العام 1958 وبين هذه المرأة العجوز التي غادرت المخيم بجيب لاندروفر والطائرات تلتهم طمأنينة المخيم والناس في أحد صباحات يناير من العام 2009، فإن الحقيبتين ظلتا تشيران دائماً، إلى القلق الذي كان يلتهم صاحبتهما في الحالتين.

مضت الأشهر الأولى لوجودها في لندن، لا تفعل شيئاً أكثر من المشي في الشوارع. مازالت تحفظ الشوارع التي كانت تسير فيها خلال فترة إقامتها في لندن في أربعينات وخمسينات القرن الماضي. صحيح أن الكثير من المباني تغيرت وتوسعت محطة القطار، لكن وسط لندن حافظ على الكثير من معالمه. أكثر أوقاتها تقضيها في متنزهات «الهايد بارك» و «ساينت جيمس» و «جروسفينور»، وكلها تصلها مشياً على الأقدام. فلاشات سريعة من حياتها السابقة في لندن قد تلمع في ذاكراتها، فتتداخل عليها المشاهد وتضيع منها اللحظة في أتون الماضي، فلا تعود للحظات قادرة على التمييز بين الماضي والحاضر.

مع الوقت بدأت الأحاجي بالتساقط عن شجرة الغموض، وبات كل شيء أكثر وضوحاً.

ففي أول عيد ميلاد بعد وصولها إلى لندن، جاء الرجل الذي رافقها من المطار إلى البيت، مصطحباً معه جمع كبير من أفراد العائلة. جلهم من جيل الأحفاد. قدمها لهم: «العمة كريستينا»، ثم عرّفها على أسمائهم وصلات قربهم من جورج. خلال الحفلة الكبيرة التي نظمتها العائلة باتت كريستينا تعرف كل أفراد العائلة، باستثناء ابن أخ جورج الذي صار عضواً في البرلمان، حيث لم يظهر بالمطلق. مع الوقت بدأت تجد ألفة وهي تلاعب الأطفال، وتتجاذب الحديث مع الشبان والشابات منهم وهي تبحلق في النار تأكل الحطب في المدفأة.

وجدت بعض العزاء في العائلة الجديدة. على الأقل تستطيع التواصل معهم، وتستطيع أن تجد أحداً تكلمه في لحظات وحدتها.

في البداية كان الأمر صعباً على كريستينا.

أصعب شيء بالنسبة لكريستينا هو سرد قصة حياتها الغريبة، حين يتفاجأ مستمعوها بأنها فلسطينية تتحدث الإنجليزية بطلاقة، أو أنها بريطانية عاشت في فلسطين جل عمرها. في كل مرة عليها أن تواجه موقفاً شبيهاً بذلك. في كل مرة يّتوقع منها أن تشرح وتفسر وتسرد رحلة العمر، أن تشفي فضول السائل. لكنها كانت دائماً تُؤثر الصمت، وتحاول أن لا تدخل كثيراً في التفاصيل. الخصوصية التي تُفضل الحفاظ عليها كي لا تفتح الجرح مرة أخرى. تجيب السائل بعبارات كبيرة لا تحمل الكثير من التفاصيل.

لم يسمع أحد القصة كاملة منها. لكنها مع الوقت باتت أكثر جرأة على التفكير في الحكاية، ومحاولة سبر أغوارها، وفكفكة مفاصلها. كثيراً ما نحتاج أن نروي لشخص غريب حكايتنا حتى

نفهمهما. فخلال السرد نكتشف الكثير من بواطن الغموض الذي كنا لا نفهمه قبل ذلك. بدت الحكاية بالنسبة لعائلتها الجديدة قصة فيلم جميل، ممتعة لكنها لا تخلو من غرابة.

أفراد عائلة جورج، باتوا أكثر تردداً عليها. يزورونها بين يوم وآخر. ينادونها «العمة كريستينا» أو «العمة الكبيرة». في البداية تعامل معها الجميع بتردد، ثم سرعان ما وجدوا فيها جسراً يسير بهم إلى ماضي العائلة. صغار السن منهم، مع الوقت، باتوا يجدون فيها عمةً صالحة تروي لهم قصص العم الأكبر أدموند في فلسطين وموته على تخوم غزة وهو يبحث عن أمجاد الإمبراطورية، وقبره الذي كانت تواظب على زيارته ووضع الورود عليه، ثم عن العم جورج وحياته في يافا. وأيضاً عن الجد الكبير الذي جاء خلال رحلة تبشيرية إلى فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر، وما شاع عن قصة حب وزواج ربطته بفتاة فلسطينية مسيحية من الناصرة.

كأن الأبناء عليهم في مراحل معينة أن يتجاوزا بعض الخطوط العريضة لرواية آبائهم عن الماضي، أن يتجاهلوا بعض التفاصيل، أن يقفوا صامتين أمام الصراخ الذي يتخلل السرد. عليهم أن يقتنعوا أن بعض الرواية يمكن التعامل معها، أما البعض الآخر فلابد أن يظل من الماضي؛ لا علاقة له بالحاضر. هكذا وجد الشبان والشابات من أفراد العائلة في العمة كريستينا جزءاً مفقوداً من العائلة. لم يهمهم كثيراً بعض التفاصيل عن سبب تبني جورج لها، أو عن سبب عودتها من لندن إلى غزة. تفاصيل حياتها في غزة مثيرة بشكل كبير، تحوي الكثير من المشاهد المدهشة بالنسبة لهم. الحياة في المخيم، الشوارع التي لا يزيد عرض بعضها عن نصف متر، المجاري التي تمر في قنوات صغيرة بين الأزقة وفي الشوارع. الحروب التي لا

تنتهي. إنها مثل الجد الأكبر، ومثل العم أدموند والعم جورج، عاشت هناك.

وفيما تروي كل هذه التفاصيل، فإن كريستينا تستعيد بحنين مؤلم تفاصيل حياتها هناك في الحارة. تعيد رسم كل شخصية من نساء ومن رجال الحارة بشغف. ثم فجأة وخلال قيامها بذلك تقفز داخل الحكاية مرة أخرى. فلا يستطيع مستمعها أن يميز بين ما ترويه عن حيوات الآخرين وبين ما ترويه عن حياتها. تصبح هي صفية، وتصير سهيلة، وقد تتبدل حياتها مع حياة نادية. ويمكن لحمدي أن يصير بحاراً، ولحسن أن يصبح تاجراً، ومنار صحفياً وسامي باحثاً عن حياته خلف ستارة البحر الزرقاء. أما حديثها عن يوسف فتلك قصة ينتفض لها القلب. يدق كأنه يدق للمرة الأولى. تحس ذات الرجفة حين قال لها: «كيفيك يا كريستينا؟». وتعيد على مستمعيها بنفس الدلال إجابتها له وارتباكها وقتها «واااااااااو». تعيد سرد المشهد كأنها تقول للزمن «ارجع يا زمن». ولكن الزمن لا يرجع. وحده الألم يبقى، أما الزمن فيذهب.

بقيت العمة كريستينا الشيء الوحيد من ماضي العائلة. الشيء الذي يمكن له أن يغوص عميقاً في جوف بحر الماضي، يلتقط حكايات من الأيام الغابرة. حتى تلك اللحظات التي لم تعشها في ذلك التاريخ، فإنها الوحيدة التي تملك التفاصيل التي تمت بها ممن عاشوها.

لكن كل هذا لم يقنع كريستينا. قلبها ظل معلقاً هناك. سألها شاب من العائلة إذا ما كانت تفكر في العودة إلى هناك. ابتسمت ولم تجب. رد بثقة إنه سيرغب في أن يذهب هناك لزيارة قبر العم إدموند. ارتشفت الشاي وهي تقول: «يجب أن تفعل». قام الشاب من الكرسي وخرج بهمة كأنه فعلاً سيذهب الآن.

قلبها المعلق هناك دفعها للبحث عن حياتها هنا من أجل أن تكتشف كيف يمكن لها أن تجد الطريق إلى هناك. هكذا هي الحياة. قفز بين ما نعرف وما لا نعرف، رحلة بين نقطتين، واحدة نعرفها والثانية نجهلها. أما المسير في هذه الرحلة فهو حكايتنا بامتياز.

رجعات لم تتحقق

في المخيم الحياة تستمر مثلما استمرت قبل ذلك. لا شيء يوقفها، لا الحروب ولا الشظف والفقر. لا يوجد للناس خيار آخر إلا أن يواصلوا دربهم المضني في البحث عن شعاع النور. العتمة الحالكة، والطرق المقفرة، وعواء الخوف في كل النواحي، والكوابيس الغامقة السواد، وآهات الماضي، وقليل من نكهة الغد الذي لا يعرفونه. كما استمرت الحياة قبل ذلك، ها هي تستمر الآن. الناس لا تنسى، لكن قسوة الواقع تفرض عليهم أن يتعاملوا مع أحزانهم على أنها خيط رفيع في ثوب الحياة. قد يكون الخيط الأبرز، لكن عليهم أن ينظروا إليه مثلما ينظرون إلى أي خيط آخر. في الثوب المليء بالخيوط لا نستطيع تمييز خيط عن آخر. لكن المؤكد أن ثمة خيوطاً كثيرة مثل الجرح الغائر ترقد بطمأنينة وصمت، لكنها كبركان نائم.

نجح زوج نادية في تأجيل قضية الطلاق أشهراً طوالاً، حتى ظنت نادية أنها لن تتطلق منه أبداً. نصري المحامي قال لها بتوتر إنه من الواضح أن زوجها استخدم أحد معارفه في الأمن من أجل الضغط على القاضي لتأجيل القضية. كلما ذهب نصري لأخذ الحكم فوجئ بالقاضي يؤجل النظر في القضية لأشهر قادمة. «في الأمر

إنّ»، قال نصري. نظر للجالسين على باب البقالة وقال: «أطول قضية طلاق وعزوبة في التاريخ».

فهم أيمن الغمز من قناته. رشف آخر ما تبقى في فنجان القهوة وهو يقول: «واضح راح أظل طول عمري أعزب».

لم يفهم أحد كيف نجح زوج نادية في قلب كفة الأمور لصالحه. كانوا قد ظنوا أن الأمر مجرد جلسة أو اثنتين وينطق القاضي بالحكم. لكن ها هي الأمور تسير للوراء. محاميه نجح في الطعن في حق نادية في طلب الطلاق بل إنه قدم صوراً لها عن صفحات التواصل الاجتماعي وهي في نشاطات عامة تلقي المحاضرات، وقال للقاضي بحسرة مفتعلة إذا كان يقبل أن نساءنا يتطلقن منا من أجل أن يتبرجن ويلبسن البنطال الجينز ويخطبن في الرجال! وكادت الدمعة تفر من عينيه وهو يبكي على أحوال نساء المسلمين، كما قال. بل إنه ذكر تفاصيل عن حياة نادية اعترض عليها القاضي نفسه وقال هذه شؤون خاصة لا يمكن مناقشتها في قاعة المحكمة. قبل الجلسة بأسابيع، أطلق زوج نادية لحيته، وظل طوال الجلسة يمسد شعرها بكف يده في ورع زائد.

نظرت نادية بشحوب إلى صفية وندبت حظها الأسود وقالت: «من يوم ما راحت الحجة كل شيء رجع لورا، كان وجودها معنا بركة». المزيد من هذا الحديث سيدر الدمع في مقل العيون. صفية تمالكت نفسها. أمسكت يد نادية وضغطت عليها. تلاقت نظراتهن وتشابكت في حزن يحاول أن يخرج، أن يصرخ، أن ينفجر. ثم رمت نادية جسدها الذي بدا هزيلاً شاحباً على جسد صفية وأخذت تبكي بحرقة. غصنا شجرة منهكان من قسوة الخريف.

في اللقاء التالي لها مع أيمن تبادلا النظرات. كل منهما يحبس مارداً في داخله. المتحدث يخبر الحضور حول ضرورة مواكبة الأدب للقضايا التي تهم المجتمع وتحديداً القضية الوطنية. انسلا خارج القاعة.

واضح أنه مصيرنا نظل هيك.

شو يئست؟!

ما يئست بس هاي غزة.

لم تعرف ماذا تقول فها هي تكابد الحياة رغم كل صعابها، وتتزعم الدفاع عن حقوق المرأة في غزة، لكنها لا تفلح في انتزاع أبسط حقوقها: أن تتطلق وتتزوج الرجل الذي تحب. بعد سنوات قليلة سيتقاعد أيمن من الجامعة، وسيكون لديه الكثير من الوقت ليقضيه في كتابة بعض الأبحاث العلمية. أما الشيء الوحيد الذي يتمنى أن يقضي سني عمره فيه فلن يحدث كما يبدو.

كانت تقف قرب شباك القاعة، تنظر إلى مبني السرايا الحكومي بعد أن أتى القصف الجديد خلال عام 2012على الكثير من مرافقه، حين قالت فجأة:

إذا بدك تستسلم أنت حر...

لم يرد أن يستسلم، لكنه بات مؤمناً بسوء حظه في الحياة، بعثرات العمر. تذكر كيف وقفت الدنيا ضد ارتباطه بحبيبته حين كان مُدّرساً في بيرزيت. وهذه المرة أيضاً يبدو أن العالم يأتلف حتى يمنع حدوث زواجه. قال لها كيف يتحسر في كل مرة يراها فيها تسير في شارع الحارة في الطريق إلى العمل وحين تعود منه. كان

يجب أن يكون أول من يراها حين تفتح عينيها، وتكون أول ما تقع عليه عيناه. يموت قهراً وهو يتخيل لحظات الدفء التي لا تتحقق. وإذا ما التقت عيناهما، يمضي النهار سارحاً لا يعرف التركيز. أسعدها الحديث وهي تتخيل وجهها يلمع داخل لهب سيجارته وهو يبثها لواعجه وقلقه.

نصري المحامي اعتبر أن قضية طلاق نادية هي مباراة الاعتزال بالنسبة له. قال لجمال: «بصراحة القضاء مش لازم يكون هيك». ضحك جمال وهو يسأل إذا ما كان نصري قد عرف أن القضاء غير عادل الآن فقط، وهل كان عادلاً في السابق! أشعل نصري غليونه وهو يقول: «بس فيه ظلم، وفيه ظُلمات». نصري الذي ترافع في آلاف القضايا يقف الآن عاجزاً عن إيجاد لغز لقضية نادية. قال للقاضي وهما يسيران خارج المحكمة إن القضية صار لها قرابة ثلاثين عاماً. أي حين كان عمر القاضي عشر سنوات ربما. ابتسم القاضي، وقال: القانون قانون. نصري أكثر شخص يعرف القانون، ويعرف أن القانون ليس قانوناً على الجميع.

قضية نادية ظلت القضية الوحيدة التي عليه أن ينجزها قبل أن يتوقف عن الذهاب للمكتب إطلاقاً. كانت كريستينا تضحك كلما قال لها، قبل اختفائها، عن رغبته في التقاعد الطوعي وتقول: بتقدرش، بتظل مطرقة القاضي ترن في ذانك. تعرف كريستينا سر الحارة التي جبلت على هذا البحث عن الاستقرار الذي افتقدته منذ نشأت من ركام ذكريات سكانها بعد أن هُجّروا من مدنهم وقراهم وجاؤوا إلى المخيم. استقرار يجمع بين الرغبة في تغير الواقع والخوف من أي واقع جديد.

الوحيد الذي لا يتغير عليه شيء حمدي. بعض الناس ولدت في الحارة وكبرت وتزوجت وصار لديها أبناء وبنات وحمدي يجلس على باب دكانته. فقط الزمن ينشر البياض في شعره ويأخذ بعضه ليترك صلعة في مقدمة الرأس. ما عدا ذلك لا شيء يتغير. أضاف للدكانة بعض الرفوف وثلاجات للعرض تمشياً مع تطور احتياجات الناس، وقام بتوسيعها بضم غرفة أخرى لها من البيت بعد أن قام ببناء طابق ثانٍ حين كبر أولاده. لكن بشكل عام لم يختلف شيء. من الصعب أن تلحظ الاختلاف، إذ إن التغيرات والإضافات كانت تتم ببطء وعلى مدار سنوات متباعدة، حتى باتت تلك التغيرات جزءاً من سكون الحال.

مع بداية الحصار على غزة وازدهار تجارة الأنفاق عرض عليه قريب له أن يشاركه في حفر نفق. لم تكن تجارة الأنفاق رائجة وقتذاك، وكل من عمل فيها في البداية جنى ثروة هائلة. فكر حمدي في الأمر ثم رفض. قال إن ما يأتيه من الدكان يكفيه. ضحك قريبه وهو يشير إلى أن الأمر لا علاقة له بماذا يكفيه وبماذا لا يكفيه. «راح تصير مليوووووووووونير».

والناس ليش بتصير مليونيرات؟

عشان يصير عندها مصاري.

بس أنا عندي مصاري. بس مش هيك. الناس بتصير ميلونيرات عشان تعيش صح. وأنا عايش صح.

كل الناس عايشة يا حمدي. بس السؤال: كيف عايشة؟

أنا عايش لوز. ما ناقصني شي.

بعد سنتين سيعاتب منار حمدي وهو يشير إلى قريبه الذي بات من أكثر رجالات غزة ثراءً بعد أن «زبطت» أموره، والنفق فتح أنفاقاً أخرى سواء تحت الأرض أو فوقها من علاقات وامتيازات وشراكات وشركات. الآن بات شخصية سياسية مرموقة يفتي في كل شاردة وواردة في الموضوع الوطني. وطُرح اسمه أكثر من مرة خلال جلسات الحوار الوطني ليكون وزيراً في حكومة الوحدة الوطنية.

ضحك حمدي وقال: وبآخر النهار شو بسوي؟

لم يفهم منار ولم يفهم أحد من الرجال. استطرد: برجع على بيته وبتعشى مع مرته وولاده وبنام.

يعني!

وأنا بعمل زيه كمان. بآخر النهار برجع على بيتي وبتعشى مع مرتي وولادي وبنام.

تظن مرات أن حمدي لا يتأثر بما يجري حوله. وفي مرات تظن أنه الشيء الوحيد الذي يواصل تذكيرك بالحياة كما كانت سابقاً، فالزمن يتوقف عنده. أو كأنه لا يحب التغير. حتى أنه محظوظ في أبنائه، فهم لم يعترضوا على فكرة مواصلة البيع في البقالة. يساعدونه دائماً حيث باتوا منذ كانوا فتياناً يقفون في الدكانة لمساعدته في البيع. وها هم يدخلون الجامعات ويتخرجون منها ولم يناقشوه في مستقبل الدكانة فهم يريدونها أنْ تظلَّ دكانة الحارة، رغم أنهم قد لا يرغبون في بقائها كذلك بعده. «هم أحرار في النهاية». لابد أن تكون تلك نعمة من السماء، فأبناؤنا عادة يسعون لشق طريق مختلف عنا، وفي مرات نجد أنفسنا بلا وعي نقف في وجوههم، ونعتقد أننا بذلك نرشدهم إلى الطريق الأصح. حمدي لم يحتج أن يدخل هذه التجربة.

ربما نجح بطريقته في جعل أبنائه يسيرون في الطريق التي رسمها لهم دون أن يشعروا.

منار كثيراً ما يقول: «حمدي عنده مناعة ضد التغير».

كريستينا وحدها كانت تفهمه. تقول إنه مثل الخيل العربي الأصيل لا يتغير. وتضحك وهي تقول للنسوة: لماذا يتغير؟ كل شيء يتغير في الحارة وفي المخيم وفي غزة وفي فلسطين، على الأقل حمدي يظل كما هو. هي أيضاً تفهمت عدم رغبته في الدخول شريكاً لقريبه في تجارة الأنفاق. أعجبتها قناعته. نبيلة غمزت بعينها وهي تقول لكريستينا: «بس أكيد حمدي مش فقير». صمتت تنتظر تعليقاً ما، ثم واصلت بعناد: «ليش يصير مليونير، ما هو عنده مصاري خير الله».

في صباح تموزي قائظ اقترح حمدي على حسن أن يذهبا للبحر. منذ الحادثة المشؤومة التي خسر فيها قاربه لم يذهب حسن للبحر. حرّمه على نفسه. ضحك حمدي وهو يطلب منه أن يركب في السيارة حيث سيقضيان، مع بقية الأصحاب، يوماً بأكمله. غمز حمدي بعينيه وهو يقول: «ويمكن تأخذنا جوات البحر بلنشك». حرك فيه لواعج وذكريات آلمته. لم يعلق. لم يشأ حسن حقاً أن يذهب للبحر. مزاجه معكر ونفسيته مازالت متعبة خاصة بعد الأخبار التي تلقاها من الصليب الأحمر بأن الجيش حكم على ابنه الكبير بالسجن عشر سنوات بتهمة الاعتداء على الضابط. كما أن كل محاولات العائلة لزيارة الولد فشلت، فبقرار من مدير مصلحة السجون تم حرمانه من زيارة الأهل. بكت صفية حين أبلغها بالخبر الذي تلقاه خلال زيارته الأسبوعية لمقر الصليب الأحمر.

أخيراً بدا أن موظف الصليب لديه ما يقوله له. حتى لو كانت أخباراً غير سارة، لكنها في نهاية المطاف أخبار. في مرات كثيرة الخبر السيئ أفضل من الانتظار لأننا في نهاية المطاف نستقر على شيء، نعرف قدراً من المجهول الذي يظل ينهش استقرارنا. فلأشهر لم يتلق أي خبر عن الولد. فقط لو يقولون له شيئاً يطمئن قلبه. مثل أنه على قيد الحياة، أنه مازال يتنفس. أي شيء. المهم أن يعرف أنه موجود، وأنه سيخرج حتى لو بعد سنوات. في كل مرة يترجى موظف الصليب أن ينطق بكلمة، أن يقول شيئاً، أن يخبره طرف خبر. وفي كل مرة يعود للمنزل خالي الوفاض وهو يفكر ماذا سيقول لصفية التي دائماً لم تصدق. تظن أن ثمة مكروهاً أصاب الولد لكن حسن يخفيه عنها، لا يريد أن يخبرها به. تسأل ألف مرة هل يخفي عنها شيئاً. نظرات عيونه الحائرة، شفتاه المترددة، أسنانه التي تصك من الألم، كل شيء يزيد قلقها. وما يزيده أكثر قسمه بالله وبكل الأنبياء أنه لا يخفي شيئاً. لا تصدق. يمضيان النهار بين الاستحلاف والنفي، ولا تهدأ إلا في اليوم التالي حين تفيق من النوم وقد آمنت بأن «وجه الله كبير»، وأن الولد مصيره سيخرج من السجن.

أخبر موظف الصليب الأحمر حسن أن الجيش حكم ابنه عشر سنوات.

عاد حسن هذه المرة إلى البيت وهو يضحك. نصف الخبر جيد ونصفه الآخر سيء. فعلى الأقل الولد سيخرج. قال لصفية تخيلي أنه حكموا عليه مؤبد أو مؤبدين. صرخت: «على شو هو ناسف الكبانية». وكانت تلك عبارة تقال أيام الحكم البريطاني لفلسطين لمن ينسف كبينية الموقع الإنجليزي، في تصوير لهول الفعل وكبر وقعه. هز حسن رأسه: «المهم راح يطلع».

والأمل وحده يجعل الحياة ممكنة حتى لو كنا فقدنا الأمل في الأمل ذاته. إنه يساعدنا على التفكير في شيء إيجابي قد يحدث رغم كل قسوة الواقع حولنا، يجعلنا نفكر أن تغيير الواقع ممكن حتى لو كان يحتاج لقوى خارقة.

مزاجه معكر اليوم. فرغم كل شيء فقد أحس بأنه يشتاق للولد. لم يفهم إصرار حمدي على الذهاب للبحر. قال بعد أن بدأ يلوك الفكرة: «لن أسبح». ضحك حمدي وقال: «لا تسبح». سأل: أين الجميع؟ من الواضح أنهم سيلحقون بها بعد قليل. حيث سيجهزون الطعام من أجل حفلة شواء. يشترون السمك ويتبلونه ويُحضّرون السلطات. لا يذكر حسن أنه أكل سمكاً لم يصطده. حتى بعد حادثة المركب لم يضعه في فمه. فقط قَبِلَ «بكسة» سمك أحضرها له رفيق دربه في البحر «سهيل». رفض في البداية لكنه تحت أيمان وطلاقات «سهيل» قبِل. لكنه لم يأكل منها رغم ذلك. نظفتها صفية وتبلتها وشوتها في الفرن. ورغم رجاءاتها ورجاءات أولاده لم يضعها في فمه.

هذه المرة سيأكل مع أصدقائه. سيفعل. لن يصدق نفسه.

لم تكن تلك حفلة بلا سبب، ولم تكن نزهة بلا ترتيب وبلا فرحة تتخللها.

نزلا من السيارة وهبطا باتجاه الشاطئ. حسن لم يرد أن يقترب من الموضع الذي يرسو فيه قاربه. اقترح على حمدي أن يذهبا في الاتجاه الآخر. شده حمدي من يده وقال ألا تريد أن ترى قاربك. ابتسم حسن وقال إنه لم يعد قارباً. هنا كانت القصة الحقيقية لتلك الزيارة. شده حمدي وطلب منه أن ينظر جيداً نحو القارب. سقطت

السيجارة من يده وهو يرى القارب وقد انتصب كاملاً بلا ثقوب وبلا كسور وقد اكتست كل جوانبه، وتم طلاؤه من جديد، وتم تثبيت الماتور فيه وشده بشكل ثابت. فرك عينيه. فاجأته الإجابة من حمدي: «نعم هذا قاربك». ركض حسن تجاه القارب وأخذ يحسس عليه مثل من يتفقد جسد ابنه أو ابنته وقد أفاقا من الموت. قبّل جوانب القارب غير مصدق. قفز بخفة إلى داخله، تفقده زاوية زاوية وتلمست أصابعه كل جزء فيه. هبط إلى قاعه حيث اعتاد أن ينام ليرتاح في عرض البحر أو يحضّر الشاي. كل شيء بدا على ما يرام. أغمض عينيه لأن أسوأ الأحلام تلك التي نفيق منها على واقع مناف لها. ثم فتحهما. كل شيء كان واقعاً وليس حلماً أو خيالاً. خرج إلى سطح المركب حيث يجلس حمدي في انتظاره.

قال حمدي: «شو ما راح توخذنا نطش جوا الميه».

لم يفهم حسن ما حدث. مليون سؤال وسؤال يتسابقون في رأسه.

لم يقتنع الناس في الحارة بأن حسن سيتوقف عن البحر بسبب الحادثة التي تعرض لها في شهر نوفمبر الماضي. «هادا كلام فاضي»، قالت كريستينا وهي تقف أمام البقالة مع حمدي وهو يحرك القهوة في الركوة مثل عادته. جمال احتج على هذا الموقف الانهزامي كما أسماه وقال إنهم فعلوا ذلك ، يقصد الجيش الإسرائيلي، من أجل أن يتوقف الناس عن الصيد وعن ركوب البحر. لذلك، والموقف له، يجب الإصرار والعناد ومواصلة مهنة الصيد التي تكاد أن تنقرض. لم يقترح أي حل عملي، فقط قال يجب أن نقول لحسن عليك أن تقاوم وتصمد رغم كل شيء. لم تكن المشكلة في حسن فلابد أن ثمة

مشكلة أكبر منه، مشكلة قاهرة. كريستينا وحدها تحسست أطراف الألم. سألت حمدي إذا كان حسن أصلاً يملك ثمن إصلاح القارب. طلبت منه أن يتقصى بنفسه عن الأمر. بعد أيام أكد حمدي شكوكها.

كريستينا حين علمت بالأمر تبرعت بثلاثة آلاف دولار لإصلاح القارب. لكنها طلبت بأن لا يعرف حسن بالأمر، وأن يقال إنه تم جمعها من سكان الحارة. لكن الآن وقد اختفت الحاجة ولم تعد موجودة بينهم، فقد بات من حقها أن يعرف حسن بالأمر. ها هو القارب الآن بشحمه ولحمه يقف على الرمل ينتظر أن يدفعه الرجال إلى داخل الماء. يهتز من الريح مشتاقاً للبحر الذي لم يلمسه منذ زمن. تظنه سيركض نحوه عما قليل ويقفز فيه. نزلت الدمعة من عيني حسن وهو يتذكر كيف أساء الناس الظن بالحاجة، وكيف ابتدعوا القصص وأعادوا كل الحكايات عن سبب وجودها في الحارة واختفائها فجأة. كانت تفكر في كل واحد منهم، تقلق على قلقهم، تُعمل عقلها وقلبها كيف تساعدهم.

ذهب حسن. ترك حمدي واقفاً أمام القارب. لم ينتظر أن يسأله. قال إنه سيعود بعد دقيقة. عاد بعد برهة حاملاً علبة دهان وفرشاة صغيرة. جلس على الأرض قرب القارب وأخذ يخط اسم «فضة» على جدار المركب. ثم جلس في الجهة المقابلة وخط اسم «كريستينا» بالإنجليزية. نفض التراب عن ملابسه. وسأل بحرارة: «شو الرجال ما اجو بشوف... يلاه بدنا نفوت ع الميه».

كان اسما «فضة» و «كريستينا» يلمعان على جدار القارب فيما بقايا ماء البحر تسح عنه نحو رمال الشاطئ، والرجال يلتهمون السمك المشوي والسلطات ويشربون العصائر. صوت ضحكاتهم

يقول إنهم لم يضحكوا منذ عصور، وأن هذه هي تجربتهم الأولى في الفرح منذ زمن.

في الطريق أمسك حسن بيد حمدي وهو يقول: «وقتيش يطلع الولد يا حمدي خلينا نفرح». كانت الحارة غافية والنسمات الخفيفة تداعب أجسادهم وهي تتهادى بخفة في الشارع.

منار لم يترك حلمه بالسفر. هذه المرة لن يعرف أحد شيئاً عن خطته القادمة. لطيفة يئست من محاولة إقناعه بالبقاء. أتعبها الأمر. استسلمت، لكن عميقاً في قلبها كانت لا تكف عن الرجاء والأمل. لكنه هذا النوع من الرجاء وذاك النوع من الأمل اللذين سيظلان مجرد رجاء وأمل ولن يتحققا. لم يعد يفكر منار في كيفية الخروج من غزة بالطريقة المعتادة: أن يحصل على فيزا وينتظر «معبر رفح» البري أن يفتح ليخرج من هناك إلى القاهرة ثم تقله الطائرة إلى مبتغاه.

أحد أصدقائه اقترح عليه أن يتركا غزة عبر البحر. ضحك منار وسأل: كيف يعني؟ نصنع سفينة ونركب فيها؟

حين كان طفلاً كان كثيراً ما يقوم بعمل السفن من الورق ويرمي بها فوق الموج، ويتخيل نفسه يركبها ويبحر بعيداً. لكن هذه أحلام الأطفال، أما الواقع فهو بحاجة لمليون حلم حتى يبدو بهيجاً.

صديقه، الذي بان مستعداً لكل سؤال رد: السفينة جاهزة.

الآن يجلسان في مقهى على البحر حين أشار صديقه إلى سفن الصيادين تمخر عباب الموج قبل المغيب بقليل. قال إن هذه السفن الصغيرة كافية لتحقيق حلمهم الأزلي. ستحملهم إحدى هذه السفن إلى الإسكندرية. ومن هناك ستحملهم سفينة أخرى باتجاه

الشواطئ الإيطالية. عملية لا تكلف أكثر من ألفي دولار. ابتسم صديقه وهو يقول إن كثيراً من معارفه جربوها وها هم الآن في مخيمات استقبال اللاجئين، وبعضهم شق طريقه نحو شمال أوروبا.

بعد أيام، جاء صديقه بالمزيد من المعلومات حول الرحلة المرتقبة. كل شيء جاهز، فقط قرار منار المتردد هو ما يعيق الانطلاق. ستمر أشهر قبل أن يستقر رأي منار على محاولة طريقة صديقه. لم يسبق له أن ركب البحر باستثناء تلك الرحلات الترفيهية التي كانت العائلة تقوم خلالها بالركوب في أحد لنشات الصيد لنصف ساعة مقابل شواقل قليلة، حيث يقوم بعض الصيادين بتأجير لنشاتهم في الصيف للناس. منار لا يعرف كيف يبدو البحر عميقاً. كيف يمكن للمرء أن يسافر خارج غزة عبر البحر. في الحقيقة فإن غزة المدينة الساحلية بلا ميناء. ورغم وجود بقايا واحد من أقدم موانئ العالم في غزة في منطقة البلاخية قبالة مخيم الشاطئ، الميناء الفينيقي، فإن غزة لا تطلق السفن للعالم الخارجي ولا تستقبلها.

عام 2010 وصلت مجموعة من السفن إلى شاطئ غزة اعترضتها الطرادات الإسرائيلية وقتلت بعضهم واعتقلت البعض الآخر عن ظهر سفينة «مرمرة» التركية. لكن رغم ذلك وصل البعض إلى غزة واستقبلهم الناس بالاحتفالات والعناقات.

قبل ذلك كانت آخر مرة وصلت سفينة من العالم إلى غزة في السبعينات حيث غرقت سفينة محملة بالمواد التموينية على شاطئ غزة. مازالت آثارها في قاع البحر. وحتى الآن يمكن مشاهدة أجزاء منها فوق الماء حيث ذوى معظم هيكلها تحته بشكل كامل. كان منار وخلال زيارته لبيت عمته في مخيم الشاطئ يقف فوق هيكلها مثل بقية الأطفال ثم يغطس في جوف الماء.

الآن عليه أن يقرر أن يركب البحر ويغادر ليرى العالم. في لحظة ما علينا أن ننهي النقاش ونتخذ القرار ونقفز عن ترددنا. وقف على الشاطئ. الفتية يقفزون في الماء. الشابات تقصدرن حافيات الأقدام على الرمال، المنقذ في الكابينة العالية ينادي على الفتية حتى لا يذهبوا بعيداً. رائحة شواء السمك تفوح من الكوانين التي يشوي بها المصطافون. وروائح كثيرة تتخلل جسده وهو يفتح ذراعيه للبحر، يرى مستقبله الجديد أمام عينه، ويرى كيف أن الحياة تعطينا رغم كل ما تأخذه منا.

أما سامي فسيظل يبحث عن قصة حبه التي لا تنتهي. وداد لم تعد تتوسل له أن يتزوج فتاة من غزة حتى تفرح بآخر أطفالها. مع الوقت كان عليها أن تعيش مع أحلام ابنها. قالت له إنها ستسعد لو نجح في إحضار مشيرة لغزة. ومع الوقت أيضاً باتت مشيرة صديقة لوداد، تتواصلان عبر الفيس بوك. نعم فوداد عملت حساباً على الفيس وأخذت تتسلى على الإنترنت خاصة بعد أن انفض مجلس كريستينا. مشيرة صارت فرداً من العائلة. بل إن وداد باتت تهاتف والدة مشيرة عبر «السكاي بي». تطورت الخطط التي تسعى لجلب مشيرة إلى غزة، لكن الحصار المفروض على القطاع وقلة الحركة منه وإليه، أحالا كل هذه الخطط إلى أحلام وردية.

انقطعت السبل بمشيرة بعد اندلاع الحرب في سوريا وتدمير مخيم اليرموك. في بداية المواجهات على أطراف المخيم، قالت إن الوضع بات صعباً وإن القصف يصل إلى وسط المخيم. الحواجز على المداخل، والموت مجاني. لا تعرف ماذا ستفعل هي وعائلتها. مرت أشهر بعد ذلك، دون أن يتمكن سامي من الوصول إلى مشيرة. اليرموك الذي كان أكبر مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في سوريا،

تعرض لعملية تدمير وتهجير شاملتين، واضطر جل أهله، الذين هم لاجئون في الأساس، أن يتركوا المخيم ويبحثوا عن مخيم جديد بعد أكثر من ستين عاماً من لجوئهم الأول. فشلت كل محاولات سامي في العثور على طرف خيط يدله على مشيرة. هل قُتلت؟ هل تركت المخيم؟ في أي مخيم من تلك المخيمات التي أقيمت في الأردن ولبنان وتركيا تقيم؟ أم تراها عبرت البحر مثل الآلاف باتجاه أوروبا؟ حسابها على الفيس مغلق. هاتف بيتها وجوالها معطلان.

ندبت وداد حظها، فبعد أن آمنت أن ابنها يمكن له أن يتزوج مشيرة، ها هي مشيرة تتبخر. ما أصعب الشك بعد الإيمان. قالت لصفية: «شكله الولد ما راح يتزوج طول عمره!». لم تمض شهور على مأساة الغياب الجديدة، حتى بدأت وداد طلبها من سامي أن يتزوج أي فتاة من غزة. ففي النهاية لابد أن يتزوج. ها هو الحب لم ينجح. هذه المرة تشعر وداد بألم ابنها وهي ترى الدمع في عينيه. تعرف أنه من الصعب إقناعه، لكنها لا تمل من المحاولة. صارت تتابع أخبار سوريا وأخبار الفلسطينيين في سوريا أكثر من أي شيء في العالم، تريد أن تساعد ابنها في العثور على ضالته. وبين أسبوع وآخر تعاود مناقشة أمر الزواج معه.

أما سامي الذي تطور عمله بشكل كبير، شعر بألم كبير أن القدر يصر على معاندته. لم يستوعب الأمر. كأن حياته ملعونة بالاختفاءات. فها هي مشيرة تختفي، ولا ينجح في الإمساك بخيط رفيع عنها، مثلما اختفت كريستينا ولم تنجح كل محاولات الحارة في إيجاد إجابة صغيرة عن اختفائها. في قرارة نفسه يعترف أن موقع «وين الحجة» كان سبباً كبيراً خلف الكثير من نجاحاته الصحفية. الموقع الذي بات واحداً من أهم المواقع الإخبارية عن غزة، صار يجتذب بعض

الدعايات والإعلانات، مما شكل له مصدراً جديداً للدخل. وداد قالت بحنق: خلص اعملك موقع جديد «وين مشيرة».

شعرت بقسوة وقع تعليقها على ابنها.

قصدي يعني الحياة مش موقع انترنت. الحياة لازم تعيشها. قالت وهي تستجمع بعضاً من ألمها.

عموماً، كل النقاشات والسجالات لن تعيد مشيرة، كما لم تُعد كل اجتماعات الحارة كريستينا. حين يذهب من نحب يظل الحب عالقاً مثل رائحة لا تذهب. رغم ذلك فإن سامي وضع خبراً على صفحة «وين الحجة» حول اختفاء عائلة فلسطينية تعيش في اليرموك. وضع صورة لمشيرة التقطها لها على جواله خلال برنامج التدريب الذي قابلها فيه للمرة الأولى في ألمانيا. لم يتلق معلومة مفيدة عن مشيرة. رغم ذلك ظل قلبه يخفق بالحب مثل عصفور صغير يشعر بالبرد.

يشبه جمال حمدي كثيراً في مقاربته للواقع. الدنيا تتغير وهو لا يغير شيئاً من أفكاره. رغم معارضته الشديدة ووقوفه على ضفة الرفض المتشددة، ورفضه العمل في السلطة لأنها نتاج أوسلو، إلا أنه بكى مثل الطفل يوم استشهد عرفات. في الحقيقة فإن صورة عرفات لم تفارق غرفة نومه مطلقاً. بعد حدوث الانقسام والصراع المسلح على السلطة، قال لحمدي إننا نتقاتل من يحرس بوابة السجن لإسرائيل.

اقترح على حمدي أن يقوموا بتحويل بيت الحاجة كريستينا إلى مكتبة عامة في المخيم، لم يكن هناك ورثة للحاجة، ولم يقم أحد بالمطالبة بالبيت. الشيخ محسن أصر على بناء مسجد في البيت. أشار

جمال إلى مئذنة المسجد التي لا تبعد إلا عشرات الأمتار عن بيت كريستينا وقال: «الحارة فيها جامع يا شيخ».

أتبخل على الله ببيت آخر له!

مش قصة بخل. قصة كيف نستخدم البيت لصالح الحارة كلها. للي بصلوا وللي بصلوش.

يا سيدي نجهّز المسجد بمكتبة.

ما انت عارف مكتبة الجامع ما بنحط فيها كل الكتب.

هز الشيخ محسن مسبحته، وقال: يا أخي أنت لا تصلي، فلا تحرم الناس من متعة الصلاة والعبادة.

المهم أن الرأي استقر على تحويل المنزل إلى مكتبة. جمال وأيمن اعتبرا هذا تحقيقاً لحلم حياتهما. لكن الأمور لم تسر بسلاسة. إذ إن الشيخ محسن تدخل فعلاً لدى السلطات وأوقف خطط الحارة لتحويل البيت لمكتبة. ضابط الشرطة قال إن البيت موضع خلاف وبالتالي ليس من حق أحد تحويله إلى شيء. فقط يمكن تحويله إلى مسجد لأن المساجد لله. نظر جمال إلى نصري وسأل عن القانون. مج نصري غليونه وهو يقول: دائماً هناك من هو أعلى من القانون. لم تفلح الوجاهات ولا الوساطات لدى قائد الشرطة ولا وزير الداخلية ولا أعضاء التشريعي بتحريك الأمر.

لم يكن لكريستينا ورثة حتى يطالبوا بالبيت، وبالتالي كان يمكن للحكومة أن تضع يدها على البيت لأنه في هذه الحالة يؤول إلى الملكية العامة. كأن حمدي اكتشف فجأة صلة القرابة بين والدة كريستينا وبين والدته، فهما ابنتا خالة. في الحقيقة لا يوجد لدى حمدي ما يثبت ذلك سوى شهادات رجال الحارة.

فرك نصري فروة رأسه وقال: «هاي قضية جديدة».

مر زمن على اختفاء الحاجة. مر الزمن ثقيلاً يجر أحماله وهمومه ويرمي بآلامه طحيناً مسحوقاً فوق رؤوس الناس، فيلف أجسادهم وينزل عليهم مثل طير أبابيل. صارت «رجعة» الحاجة المرجوة، إحدى الأمنيات الأخرى التي يزخرفون بها وجع أيامهم، مثل القول «برجعة البلاد»، أو «برجعة الأهل من برا»، أو «برجعة السجين»، أو «برجعة المريض من المستشفى». الآن باتت رجعة الحاجة دعاءً أثيراً في الحارة. يقولون بألم: «برجعة الحجة».

لم ينسوها رغم كل شيء، لأن اختفاءها ضرب استقرارهم في مقتل.

قديسة في قارب

حياة كريستينا مليئة بالمفاجآت. سلسلة مدهشة من الأحداث غير المتوقعة. والمدهش أكثر كيف تحتمل كريستينا كل ذلك. لم يبدُ عليها يوماً الألم. في حالات نادرة ربما تبوح ببعض منه لنسوة الحارة في جلساتها المسائية، لكنها تحتفظ بالكثير منه لنفسها. تبقيه حبيساً في صدرها. رغم ذلك فإن حياتها لم تخلُ من الفرح والضحك. السعادة ليست مواطناً غريباً في جمهورية حياتها، بل مواطناً أليفاً، له الكثير من الذكريات والأصدقاء. والألم كذلك كان مواطناً دائم الحضور والتردد في جمهوريتها تلك. كل ما في الأمر أن كريستينا كانت تُفضل مواطناً على آخر في تلك الجمهورية. تفضل السعادة على الألم. لذا كانت تفضل أن تخبر عن تلك اللحظات الجميلة عن الإخبار عن اللحظات الحزينة. على الأقل تُدخل السعادة على قلوب مستمعيها. سماع الفرح يُفرح، وسماع الحزن يغُم ويجلب النكد. وإذا كان ألمنا شيئاً شخصياً لماذا نرمي به كحجر ثقيل على رؤوس الناس.

استقرت حياتها في لندن على إيقاع جديد. أفراد عائلتها الجديدة يزورونها من وقت لآخر. مر قرابة عامين على وصولها إلى لندن، ولم تر ابن أخ جورج المزعوم. كان الكل يتحدث عنه دون أن

يبرر أحدهم لماذا لم يقم حتى الآن بالترحيب بالعمة الكبيرة. لا يمضي أسبوع حتى يزورها أحد أفرد العائلة. تمضي أيامها وفق روتين باتت تحفظه عن ظهر قلب.

تصحو في الصباح. تتناول إفطاراً خفيفاً ثم تشرب القهوة وهي تقرأ الصحيفة. تخرج عند الضحى للتمشي في حديقة «جروسفينور». تجلس على أحد الكراسي تتأمل حركة الناس المندفعة باتجاه محطة القطارات والباصات. تمثال الجنرال الفرنسي يعطي ظهره للحديقة ولروادها، وتمثال الأسد يلحق بوعل فزع من النهاية المحققة. ثم تعود عند الظهر للبيت. عند العصر تجلس في مقهى بجوار البيت تشرب القهوة لساعة ونيف، ثم تواصل سيرها باتجاه منتزه «ساينت جيمس» حيث تزجي بعضاً من الوقت قبل أن تعود للبيت. وفي أيام أخرى تتمشى في متنزه «الهايد بارك». لا شيء تفعله غير ذلك إلا حين يزورها أحد أفراد العائلة حيث تخرج معه أو معها إلى مكان ما لتناول الغذاء أو العشاء والتمشي قليلاً.

هذا يعني أن كريستينا لم تزر أحداً من العائلة! في الحقيقة لم تقم بزيارة أي من أفراد العائلة.طبيعة العلاقة تم تحديدها دون اتفاق، لكن مع الوقت باتت هذه الطبيعة متفقاً عليها. يصعب القول رغم ذلك أن كريستينا كانت مرتاحة لذلك، أو قلقة منه.

بيت وحيد للعائلة سألت عنه كريستينا وطلبت الذهاب إليه. بيت جورج الريفي في جنوب غرب اسكتلندا. البيت الذي اعتادت أن تمضي مع جورج فيه أوقاتاً طويلة خاصة في الصيف حيث تسبح في المحيط وتتمشى في الغابة، وينشغل جورج بصيد الطيور، خاصة «الفيزانت»، والحيوانات، خاصة الأرانب البرية.

ذهبت للبيت الريفي كي تنقطع عن العالم. الخضار اللامنتهي، مثل علبة ألوان مائية خضراء سُكبت على ورقة، فانداح الأخضر في كل مكان. تجلس أياماً طوالاً لا تفعل شيئاً إلا التحديق في الطبيعة. المزرعة الصغيرة خلف البيت مهملة منذ زمن. النباتات منتشرة بشكل كثيف، تتشابك أطرافها مثل غابة صغيرة. البيت الزجاجي حيث كانت تساعد جورج في زراعة البندورة وبعض الخضروات أيضاً تغطيه الأتربة وأغصان الأشجار.

خرجت لتتمشى بين الحقول حيث قطعان الخراف والأبقار ترعى بهدوء. زخات المطر تنزل خفيفة ثم تبدأ بالهطول بقوة. تواصل سيرها غير مكترثة. ربما يمكن لعابر سبيل أن يظن أن كريستينا قطعة قماش مبللة تشح منها المياه من كل جانب. دخلت أول حانة قابلتها. الحانة الوحيدة في القرية الصغيرة التي يقع فيها البيت الريفي. لم تر أحداً ممن اعتادت أن تراهم.

الشابة الشقراء خلف بار الحانة تنظر إليها وهي تسألها ماذا تشرب، ثم تعلق: «منذ زمن لم يأت أحد إلى البيت». عرفت أنها تقصد البيت الريفي. لم تكن الفتاة مولودة يوم غادرت كريستينا البيت للمرة الأخيرة في الصيف الأخير من حياة جورج. واصلت الفتاة التي وجدت في حضور كريستينا كسراً لرتابة المساء وقتامة الجو في الخارج: «ربما منذ خمس سنوات لم يصل أحد إلى هنا». مدت كأس العصير لها وهي تسأل: «لابد أنه بحاجة للكثير من العمل من أجل أن يصبح جاهزاً للسكن». ردت كريستينا وهي ترتشف العصير: «لن أسكن هنا. فقط بضعة أيام». ابتسمت الفتاة وهي تقول: تسكنين في لندن؟ لم تعرف كريستينا ماذا تقول إلا أن تهز رأسها بالإيجاب.

الحياة صاخبة هناك. ضجيج كثير. مملة.

نوعاً ما.

دخل رجل عجوز نحيف، تجاعيد خفيفة تنتشر على وجهه. سلسلة فضية تتدلى من عنقه. طلب كأساً من البيرة. أخذه بصمت وجلس على طاولة في طرف الحانة. قد يخيل لكريستينا أنها رأت مجسماً يشبه شكل حنظلة في طرف السلسلة الفضية. قالت لنفسها الأمر مجرد خيالات تحدث حين يستبد بنا الحين. الفتاة التي باتت أكثر انشغالاً الآن بعد دخول عدد من الزبائن إلى الحانة، سألت وهي تسكب لأحدهم كأساً من النبيذ: «لابد أنك من العائلة؟» تقصد العائلة مالكة البيت. هزت كريستينا رأسها. تابعت الفتاة: «لكني لم أركِ بالمطلق قبل ذلك».

كنت أعيش في الخارج.

أين؟

فلسطين.

الفتاة كانت وقتها تدير ظهرها لتتناول بعض الزجاجات من فوق أحد الرفوف. استدارت وقالت: أين قلتِ؟

قالت كريستينا وهي ترتشف آخر ما تبقى من كأس العصير: «فلسطين».

أشارت الفتاة للرجل الذي دخل قبل قليل، وجلس في زاوية الحانة. «لقد كان في فلسطين العام الماضي». لم يكن الأمر تهيؤات إذاً، فالرجل قد يكون يرتدي قلادة تنتهي بحنظلة.

هل حدث هذا فعلاً؟

الرجل سيخبر كريستينا بقصة حنظلة الذي يعلقه في رقبته. لم يعرف الرجل شيئاً عن فلسطين قبل ذلك إلا ما تتناقله وكالات الأنباء. أمضى قرابة خمسة عشر عاماً في السجن. مازال يتذكر تلك اللحظات التي شاهد فيها التلفاز في العام 1981 حيث خلال نشرة الأخبار تم عرض مسيرة لشبان فلسطينيين يلبسون قمصاناً عليها صور لصديقه ورفيق دربه «بوبي ساندز». كان الشبان يحتجون على موت بوبي خلال إضرابه الشهير عن الطعام الذي بدأه في مارس 1981 وانتهى بعد قرابة 66 يوماً من الامتناع عن تناول الطعام. بكى يومها وهو يرى صور صديقه يهتف باسمه شبان في الطرف الآخر من الكون. لم يصدق أن هؤلاء الشبان الذين يعانون من الاحتلال الذي يطلق النار عليهم في الأزقة ويحرمهم من السفر والتنقل وينكل بهم وبعائلاتهم، يخرجون رغم كل مشاكلهم وآلامهم ليتضامنوا مع بوبي. قال لها أنا متأكد أن بوبي كان سعيداً بذلك. انتهى ذلك الإضراب بموت عشرة سجناء. ضحك الرجل وقال: مازال المعتقلون في فلسطين يضربون عن الطعام إلى اليوم.

لابد أن الفكرة لمعت في عقلها من هذا النقاش. أو أن هذا النقاش عزز الفكرة في رأسها. قال الرجل وهو يسألها إذا كانت تريد أن تشرب شيئاً، إنه بعد خروجه من السجن أول شيء فكر فيه أن يذهب إلى هناك للتضامن مع هؤلاء الذين رفعوا صورة بوبي. «تخيلي أنهم يهتمون لشأن بوبي، يحبونه هناك!»

هل انتهى هذا النقاش هنا؟ ربما.

لكن ما ستذكره كريستينا كلما بحلقت في الأشجار الكثيفة خلف نافذة الحانة، هو صوت الرجل وهو يروي لها قصص حياته

هناك، زياراته المتكررة إلى المخيمات في الضفة الغربية وغزة وقطفه للزيتون مع المزارعين في قباطية ويعبد في جنين. في المرات الأخيرة بات الجنود الإسرائيليون يوقفونه للتحقيق الذي قد يمتد لعشر ساعات. آخر خمس سنوات منعوه من الدخول. حاول عبر جسر أريحا (يسميه الإسرائيليون باسم الجنرال اللنبي الذي احتل القدس، ليمنحهم إياها) بعد التحقيق رفضوا دخوله. بعد سنة حاول من خلال جسر الشيخ حسين في الشمال قرب بيسان وكانت النتيجة أكثر قسوة حيث تم إيقافه طوال الليل بدون تحقيق قبل أن يطلبوا منه العودة. قبل عامين حاول العبور من خلال مطار اللد. بعد أن هبطت الطائرة وقبل أن يخرج منها كل الركاب، اقترب ضابط أمن منه، وهو مازال يهبط درجات سلم الطائرة، وطلب منه أن يعود معه إلى داخل الطائرة. لم يسمح له بمغادرة الطائرة. قال له: ستعود إلى لندن بعد خمس ساعات على متن نفس الطائرة. ستعود بها إلى هناك. نظر إليه مهدداً: «لا تفتعل مشاكل، أنت شخص غير مرغوب بك هنا. من حقنا أن نمنعك أن تدخل بلادنا». ضحك وقال: ولكنها ليست بلادكم. اقترب الضابط منه وقال: «طلبت منك ألا تفتعل مشاكل». وخرج.

ضحك الرجل وقال: لقد عدت.

كيف؟

عبر البحر..

في الطريق إلى البيت الريفي، الطفل الصغير في البيت المجاوز يلهو بالكرة مع كلبه الأسود مع بعض الرتوش البيضاء على جلده من فصيلة «بوردر كولي»، يرمي الكرة فيقفز الكلب ليلتقطها في

فمه، ثم يسرع نحو الطفل يقفز عالياً وهو يلهث يناوله الكرة في يده. يقوم الطفل بركلها عالياً بعيداً، حيث سيقفز الكلب فرحاً ليلتقطها بين أسنانه ويعود بها له.

همس وهو يصر أنهم لم يستطيعوا منعه. حيث ذهب عبر القوارب التي تبحر لفك الحصار عن غزة. سمع من صديق له أنهم ينظمون رحلة تنطلق من قبرص. قال والحماسة تملأ وجهه «سأذهب.. سيفرح بوبي». كان ذلك في مايو من العام 2010 حيث شارك الرجل فيما عرف بأسطول الحرية المتجه نحو غزة. هجمت البوارج البحرية الإسرائيلية على بعض السفن وقتلت بعض المشاركين، لكن الكثيرين منهم تمكنوا من الوصول إلى هناك.

خرج الرجل والسعادة تطفح على وجهه. فكرت كريستينا كيف رمى بالفكرة أمامها، وكيف بدت مقنعةً؟ ابتسمت وهي تتذكر صورة «بوبي ساندز» التي يعلقها جمال اليساري في محل بيع القرطاسية. أول مرة شاهدت البوستر الكبير ظنته بنتاً لشعره الطويل وابتسامته الساحرة. جمال خاض إضراباً آخر كبيراً في سجن نفحة أيضاً في تموز من العام 1980 واستشهد خلاله صديقاه راسم حلاوة وعلي الجعفري. شارك جمال بالإضراب حتى نهايته، وتم نقله إلى المستشفى، لكنه رفض كسر الإضراب حتى تحقيق مطالب الحركة الأسيرة بتحسين شروط حياتهم السيئة ووقف الإهانات بحقهم التي تمارسها إدارة السجون. وتذكر كريستينا عبد القادر أبو الفحم ابن المخيم الذي قاتل ببسالة حتى اعتقل جريحاً وشارك في إضراب سجن عسقلان في مايو 1970 واستشهد.

قطعان الخراف والبقر ترعى في الحقول الخضراء، والأفكار تركض في علقها. أيضاً هي تريد أن تعود. لا تعرف لماذا عليها أن

تموت هنا. كيف يمكن لها أن تُنهي حياتها وسط كل هذه الكآبة التي تعيشها. العدوان على غزة انتهى. لم تعرف كيف تتواصل مع أحد هناك في الحارة. لا تحفظ رقم هاتف أي من أصدقائها هناك. كل الأرقام مسجلة في دفتر صغير تبحث فيه عن الرقم الذي تريد أن تتصل به. لو أنها أحضرت دفتر الهاتف معها!

في الطريق إلى لندن حيث قررت البحث عن طريقة تعود بها إلى هناك، القطار يبتلع المسافة كأنه يقربها من هناك.أذرع طواحين الهواء العالية البيضاء تظهر من خلف صف أشجار الصنوبر الباسقة مثل أيدي غريق تجدف فوق الماء. الأذرع البيضاء تخرج من خلف أشجار الصنوبر ثم تختفي ثم يخرج ذراع آخر. الأذرع تسحب بثقل معها الأحلام قبل أن تختفي خلف أشجار الصنوبر التي بدأت تصعد تلة صغيرة مشكّلة غابة كثيفة، حيث ستختفي خلفها طواحين الهواء والأيدي الباحثة عن النجاة، ثم يمضي القطار مندفعاً إلى داخل المدينة المزدحمة قبل أن يتوقف في محطة «هيوستن». ستجد طريقها للعودة إلى هناك!!، كما تقول لنفسها.

نجحت كريستينا في التعرف على مجموعة من النشطاء المناصرين للقضية الفلسطينية في لندن. شاركت معهم في وقفات شهرية أمام البرلمان وأمام بيت رئيس الوزراء احتجاجاً على دعم الحكومة لإسرائيل. وجدت في تلك النشاطات متنفساً ورابطاً يجعلها على تماس مع الأهل هناك في المخيم. كانت تنتقل من مكان لآخر ومن تظاهرة لأخرى، تحمل اليافطات وتهتف. ثم بعد انتهاء المظاهرة تجلس في مقهى قريب، تشرب القهوة قبل أن تعود إلى البيت مترعة بالحنين.

خرجت في المسيرة الغاضبة التي انطلقت احتجاجاً على العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة في شهر نوفمبر عام 2012. تعرضت غزة لقصف مكثف طال البشر والشجر. تابعت على التلفاز المشاهد الحية عن الأماكن المستهدفة، والناس التي يرغمها القصف على ترك بيوتها بحثاً عن مأمن، والأطفال الذين يفتشون بين ركام بيوتهم المهدمة عن كتابهم المدرسي أو دميتهم التي يلهون معها. قفز قلبها على الأرض رعباً وهي ترى شارع الحارة والناس تفر من البيوت بعد تعرض أحد بيوته للقصف والتدمير الكامل. لمحت جمال وسامي ومنار وشباب الحارة يساعدون في انتشال الأحياء من تحت الركام. بكت وهي ترى سيارات الإسعاف تنطلق من الشارع حاملة بعض الإصابات.

انتهى العدوان الذي استمر ثمانية أيام باستشهاد 178 مواطناً وإصابة أكثر من ألف آخرين. لم تعرف ما الذي حل بالحارة خلاله. من خطفته رياح الحرب وذهبت به، ومن أدمت قلبه. أسئلة قاتلة، وقلق لا ينتهي. طفح الكيل. ذهبت لقضاء إجازة عيد الميلاد في البيت الريفي. باتت بعد زيارتين سابقتين وجهاً مألوفاً في الحانة الهادئة في القرية التي يقع على تخومها البيت. رحبت بها الفتاة التي تعمل في الحانة. جلست قرب النافذة. قطرات المطر تنقر على الزجاج مثل فكرة تائهة تنقر جمجمتها. نادت عليها الفتاة من خلف البار الخشبي الطويل الذي تقف خلفها:

هل أحضر لك شيئاً يا كريستينا؟

لأول مرة تناديها الفتاة باسمها. هزت رأسها. جاءت لها بكأس عصير كبير. مسحت الطاولة وقالت وهي تضعه:تذكرين الرجل الإيرلندي؟

نظرت في عينيها وواصلت الحديث: إنه هناك.

صمت.. كريستينا تبحلق في النافذة. تحس قطرات المطر المتساقطة تتسلل بخفة إليها. الفتاة تقول وهي تسير باتجاه الزبائن الآخرين:

تعرفينه الرجل الإيرلندي، صديق بوبي ساندرز.

قبل عدوان 2012 ذهب الرجل إلى غزة. لا أحد يعرف كيف وصل إلى هناك. الفتاة قالت لها إنه تحدث عن سفينة صغيرة ستحمله إلى غزة من جزيرة كريت، وقال إذا فشل الأمر فسيتهرب عبر الأنفاق التي تربط غزة بمصر. انقطعت أخباره أربعة أشهر أو أكثر. ابتسمت الفتاة وهي تقول إنه وصل إلى هناك ويعمل الآن في مركز للأطفال في أحد مخيمات اللاجئين.

كريستينا واصلت تحديقها في المطر المنهمر بشدة على زجاج النافذة. أخرجت الفتاة هاتفها الجوال من جيب بنطالها. أرت كريستينا بعض الصور المعروضة على صفحة الرجل على الفيس بوك. صورة له على شاطئ بحر غزة وخلفه السفن الصغيرة ترقد في ميناء الصيد. في الأفق ثمة طراد إسرائيلي كبير يراقب كل شيء. صورة أخرى في ميدان فلسطين حيث تمثال العنقاء غافياً في دفء ما تبقى من الشمس قبل المغيب، في الصورة يمكن مشاهدة مبني البلدية القديم على طرف التلة قبل أن ينحدر شارع عمر المختار نحو سوق «فراس». وصورة ثالثة لمركز الشرطة في قلب المخيم الذي عاشت فيه كريستينا جل عمرها. ورابعة للرجل أمام سينما السامر حيث تعرفت عليها سلطانة ونادتها باسمها الحقيقي «فضة». مسحت دمعة تسللت من عينيها وهي تهم بالخروج.

في الطريق كانت أذرع طواحين الهواء خلف الأشجار الباسقة تبدو مثل أيدي غريق يحاول النجاة. القطار يركض جنوباً، تسافر خلفه الأشجار وخلفها تختبئ الأذرع الغريقة وصوت الفتاة وهي تقول لكريستينا: تشتاقين لأصدقائك هناك.

تهز رأسها وهي تنقدها ثمن العصير.

الحياة قاسية رغم ذلك. هل شاهدتِ الأخبار خلال القتال الأخير! الناس تموت جماعات جماعات.

صمتت الفتاة ثم واصلت: أعرف لا تريدين التحدث. لكن أتمنى أن يكون أصدقاؤك سالمين هناك.

أمنية لا تعرف كريستينا كيف لها أن تتحقق منها. هل مازالوا سالمين. معرفة كريستينا بالإنترنت ضعيفة بل شبه معدومة. فقط خلال الحرب تعلمت كيف تتصفح مواقع الأخبار. اهتدت على بعض المواقع الفلسطينية التي باتت تتابعها يومياً. الشيء الوحيد الذي لم تتمكن من العثور عليه هو طريقة التواصل مع أحد أفراد الحارة.

القطار يقضم الطريق، وهي شاردة يلتهمها القلق. عليها أن تعود. لا يمكن لها أن تُنهي حياتها هنا. على جانب مسار القطار مئات الغربان تملأ الحقل الفسيح، كأنها تنعى لحظات قادمة، وأذرع طواحين الهواء جاهدة تحاول النجاة مثل غريق، وكريستينا تحاول إعادة رسم مسار حياتها لو عادت إلى المخيم. الرجعات المعلقة في رحم اللحظات القادمة.

لابد أن تكون كريستينا قد وصلت بيتها في لندن وجلست تستعيد شريط اليوم الطويل وحديثها مع الرجل الإيرلندي عن

بوبيساندز وصورته التي حملها الشبان الفلسطينيين. الشيء الوحيد الذي عرفته من الفتاة الشقراء في الحانة أن أختا جورج ماتتا قبل عشر سنين.

صحيح أنها لا تشعر بمتعة وهي تجلس طوال الوقت وحيدة في البيت. الشيء الوحيد الذي قد يسري عنها هو أن تشاهد نشرات الأخبار تبحث عن خبر من غزة، لعلها تلتقط وجه أحدهم أو تعرف شاردة أو شذرة عن شيء حدث هناك. بدت غزة مثل عالم الماوراء، شيء لا يدرك ولا يلمس لكنها دائمة التفكير به.

لابد أن ثمة طريقة ما للرجوع إلى هناك. يمكن لها أن تحمل جواز سفرها وتذهب للمطار وتعود. لكن مهلاً الرجل قال لها إن الدخول إلى غزة صعب فهي أيضاً رغم أنها مواطنة إنجليزية بحاجة إلى تصريح دخول. مثلاً أن تقوم مؤسسة خيرية دولية مسجلة لدى السلطات الإسرائيلية بطلب تصريح لها. وليس بالضرورة أن تقبل السلطات الإسرائيلية التصريح. ومعبر رفح بات مغلقاً معظم الوقت. يمكن توقع أن حديث الرجل كان يقترح أن الحل الوحيد هو الحل الذي وجده هو، في الذهاب عبر البحر.

بعد أن تعود من البيت الريفي إلى لندن ستأتي لها الصدف بشيء من الحارة؛ لكن ليس عبر الإنترنت، بل في أحد مقاهي لندن.

علينا أن نصدق ما لم تصدقه كريستينا حين سمعته، أن نبلع ريقنا دهشة ونؤمن بعد ذلك بأن المعجزات قد تحدث. فالحرب في سوريا حملت مشيرة إلى لندن بعد رحلة مريرة من الهرب والتنقل عبر الحدود التركية كادت تودي بحياتها. العائلة كلها نزحت إلى

أحد المخيمات جنوب تركيا. مشيرة أفلتت ووجدت طريقها إلى اسطنبول حيث ستنجح في الحصول على فيزا لدخول بريطانيا.

في البداية كان اللقاء طبيعياً بين فتاة لم تبلغ الثلاثين وبين سيدة تجاوزت السبعين. انتهت التظاهرة التي تطالب بوقف الحرب في سوريا عند زاوية «الهايبد بارك»، حيث وجدت كريستينا نفسها تقف قبالة فندق «هيلتون لندن» وتقف بجوارها فتاة تضع الكوفية حول عنقها. تبادلتا الابتسام قبل أن تسأل كريستينا الفتاة: «فلسطينية؟!». ردت الفتاة بنعم. حتى بعد دخولهما أحد مقاهي منطقة «نوتنج هيل» فإن مشيرة ستعتقد أن السيدة بريطانية. وللمفارقة فإنها ستسألها سؤالاً سألتها إياه، بطريقة مختلفة، موظفة وكالة الغوث في المخيم عام 1958 قرب بئر المياه. سألت مشيرة بود: لماذا امرأة بريطانية تقوم بالخروج ضد الحرب في سوريا والمذابح في اليرموك وترفع علم فلسطين؟ كأن كريستينا اعتادت مثل تلك الأسئلة. واصلت مداعبة حواف كأس الشاي بيدها، وقالت: ببساطة لأنني من هناك.

سردت على مسامع مشيرة قصتها بإيجاز يقول إنها عاشت جل حياتها في غزة. لم تشرح كثيراً تعقيدات حكايتها التي تبدأ في يافا ثم لندن ثم غزة ثم لندن. اكتفت بالقول إنها عاشت جل حياتها في المخيم في غزة ثم جاءت إلى هنا. لم تقل إنها لا تعرف كيف جاءت، كثيراً ما نتجنب إرباك من يسمعنا بالتفاصيل الكثيرة.

طفا القلق على وجه مشيرة وهي تستذكر سامي الذي لم تفلح خلال سنة كاملة في التواصل معه، فقد عاشت في المخيم قرب الحدود التركية لقرابة عام، ثم في إسطنبول لستة أشهر دون أن تتمكن من

التواصل مع أحد عبر الإنترنت. لم يغب عن بالها، خاصة حين سمعت بالعدوان الجديد على غزة عام 2012، لكن قسوة الحياة ووقع الحرب والتهجير والبحث عن الأمان خدروا الحب وجمدوه في القلب، حتى تسطع عليه الشمس فيستيقظ. شعرت بتأنيب الضمير أنها لم تقم بالجهد الكافي للتواصل معه. لكن في حقيقة الأمر فإنها لم تعرف الاستقرار إلا قبل أسبوعين حيث نجحت في العثور على فرصة عمل في أحد المقاهي. «اتبهدلت» كما قالت لكريستينا. لكن الأخيرة لم يخطر ببالها حتى انتهت مشيرة من سرد قصة رحلتها الخطرة ومجازفتها مع عائلتها بحثاً عن الأمن، بعد أن تم تدمير أجزاء كبيرة من مخيم اليرموك، إن هذه الصبية هي نفس الصبية التي قال سامي وداد إنه قابلها في ورشة تدريبية في برلين وأنه أحبها. تذكرت شكوى وداد أن ابنها يبحث عن المستحيل، فهو لن يستطيع جلب حبيبته إلى غزة في ظل الحصار المفروض على القطاع.

مشيرة هي من فتحت الموضوع. صمتت بعد أن انتهت من سرد قصة خروجها من اليرموك باتجاه تركيا ومن ثم بحثها عن الوصول إلى لندن، وسعيها وراء حياة كريمة. عائلتها أخيراً نجحت في الوصول إلى اسطنبول حيث تعيش هناك منتظرة فرصة للوصول إلى أوروبا. حتى هذه اللحظة لم تأت مشيرة على أي شيء له علاقة بسامي. في الحقيقة فإن كريستينا لم تكن تعرف اسم الفتاة من اليرموك التي يحبها سامي، لذا لم يخطر ببالها أن تكون نفس الفتاة. كما أن الأخيرة لم يخطر ببالها أن تكون كريستينا جارة الشاب الذي تتمنى أن تقضي بقية عمرها معه. الشاب الذي قابلته صدفة في ورشة تدريبية انتهت فترتها التي امتدت أسبوعين بكلمات الحب ووعود اللقاء.

فجأة سالت مشيرة عن الحياة في غزة وفي المخيم تحديداً. تحدثت كريستينا كثيراً عن المخيم والحارة. كأنها وجدت في استماع مشيرة لها فرصة في أن تغترف من الحنين الذي يطفح به قلبها وتسكبه على طاولة الحديث. شيء بسيط لفت انتباه كريستينا هو انتباه مشيرة للتفاصيل. كانت تنصت باهتمام. يخفق قلبها حين تنطق كريستينا بجملة أو بعبارة تأتي فيها على تفاصيل الحياة هناك، كأنها تنتظر فجأة أن تأتي محدثتها على ذكر سامي. لم تعرف كيف يمكن لاسم حبيبها أن يرد في حوار في لندن بين سيدتين فلسطينيتين. صحيح أن كريستينا تتحدث عن المخيم الذي يعيش فيه هذا الحبيب، لكن الأمر يحتاج لأكثر من مجرد صدفة لأن تكون كريستينا تعرفه.

قررت مشيرة أن «تبط الدمل». قالت إنها تعرف صحفياً من المخيم. بتلقائية سألت كريستينا:سامي؟!

بتعرفيه؟!

جاري. ابن وداد.

بتعرفي وداد؟!

صاحبتي.

رفعت كريستينا عينيها. بدا السؤال على حاجبيها قبل أن تسأله شفتيها. قالت مشيرة قبل أن تسمع السؤال: نعم أنا.

سحت الدموع من العيون. في الطريق بدأت كريستينا سرد قصة حياتها مرة أخرى. ذكرت التفاصيل التي أغفلتها أو لم تقرر أن تتحدث عنها. قبل أن تفترقا قالت إنها سترجع إلى هناك. تواصلت

اللقاءات بينهما في استعادة مختلفة للشيء المشترك الذي اكتشفاه في حكايتيهما. الشيء الذي سيخفف من عبء الحياة عليهما.

وفرت كل منهما للأخرى مُتّنفساً تستذكر فيه ومضات من بريق الماضي. فأجمل لحظات مشيرة ستكون تلك الجمل الأثيرة التي تتحدث فيها كريستينا عن حب سامي لها. تروي لها كيف كان يأتي ليجلس معها تحت شجرة الكينيا، يبثها لواعج قلبه واختلاجات روحه. «لم يكن الأمر سهلاً على وداد أن تقبل تزويج ابنها فتاة من خارج غزة!»

يا ريت نتزوج يا حجة.

كلمة «حجة»، التي باتت مشيرة تنادي بها كريستينا، علامة دامغة على أن الأولى باتت من سكان الحارة بالنسبة لها. فقط أهل الحارة ينادونها بالحجة. لكن تلك اللحظات الكئيبة التي تروي خلالها مشيرة معاناة عائلتها خلال الحرب على مخيم اليرموك وهروب العائلة شمالاً صوب تركيا، وقسوة حياة المخيم خاصة حين هطلت الثلوج، وتجمدت الأطراف، وانقطع الأمل، ظلت غصة في القلب. القلق الذي لم يغادر عينيها منذ وصولها إلى لندن. أخبرت كريستينا كيف يؤلمها أنها فكرت بخلاصها الفردي. لم تفكر في العائلة. وجدت طريقة تنجو بجلدها. لم تنس عائلتها، لكن كان عصياً عليها أن تتدبر الفيزا ومصاريف السفر لكل العائلة. آخر ما وصلها عن عائلتها أنها تبحث عن طريقة في الوصول إلى ألمانيا عن طريق التهريب، ومن هناك ستركب السفن من قرب مدينة «روستوك» لعبور بحر البلطيق صوب السويد. حكاية اللجوء المريرة التي يعيشها كل من ترك سوريا بحثاً عن حياة أفضل. ثم ينقضي النهار

وهما تتمشيان في الشوارع قبل أن تفترقا على موعد للقاء. تلك الجلسات التي باتت يومية تذّكر كريستينا بمجلسها في الحارة. الألم ذاته الذي كانت تحسه خلف قصص وحكايات نسوة الحارة، تحسه في حكاية مشيرة عن عائلتها.

لكن مشيرة رغم «خلاصها» الفردي ظلت تفكر في سبل تحقيق خلاص العائلة الجماعي. قالت كريستينا: رغم ذلك فإن الخلاص الفردي جزء من خلاص الجماعة. تذكرت كيف عاب عليها سكان الحارة تركها لهم قبل النكبة بعام حين ذهبت للندن مع جورج. لم يستوعبوا أنها كانت وقتها فتاة بالكاد بلغت الحادية عشرة، وأنها لم تكن تفهم ما يجري حولها. روت لمشيرة النقاش الذي دار في الحارة بعد عودتها من لندن. الكل كان يتوقع منها شيئاً مختلفاً. فالكل يريد منا أن نقوم بالدور الذي يتوقعه منا. وعادة ما يكون هذا الدور لا علاقة له بنا، بل بما يتخيله عنا وعن الفراغ الذي يمكن لنا أن نشغله. على أي حال فإن مشيرة رغم ذلك لن تتوقف عن الشعور بالندم والألم. فقط حكايات كريستينا عن سامي وحبه لها، وانتظاره لها وتحديه لعائلته من أجل أن يتزوجها، كانت ترسل ابتسامات خفيفة على شفتيها، وتجعل قلبها يرقص مثل طفل يرى قوس قزح.

في لقاء آخر أبلغت مشيرة كريستينا أنها ستحاول العثور على سامي من خلال الفيس بوك. فهي الآن وقد استقرت ووجدت منحة دراسية بفضل تدّخل أحد أفراد عائلة جورج، باتت أكثر مقدرة على التفكير والتركيز. نعم تحدثت كريستينا مع أحد أفراد العائلة أن يتدخل لمساعدة فتاة فلسطينية وصفتها له بأنها «قريبتها». لا تعرف كريستينا التفاصيل كثيراً، لكن الرجل عاد بعد أسبوع

وقال إنه سيساعد الفتاة في العمل في محل لبيع الكتب قرب ميدان «راسل»، حتى يبدأ الفصل الأول وتلتحق بمقاعد الدراسة.

مشيرة ستبدأ رحلة البحث عن الحب الضائع، وعن طريقة للم شمل العائلة المشتتة. أما كريستينا فإنها ستبدأ جدياً التفكير في طريقة للعودة إلى الديار. إنها الفرصة التي ستأتي لها أيضاً قريباً.

سيكون من المدهش أن نعرف أن مشيرة هي حفيدة فريال صديقة كريستينا أو «فضة» في يافا، حيث حملتها رياح النكبة شمالاً إلى سوريا، وسيظل في علم الغيب إذا ما كانت كريستينا ستعرف بهذه المصادفة أم لا، لكن المؤكد أن الفتاة المرهقة من السفر القسري جاءت أكثر من مرة على سيرة جدتها -دون أن تذكر اسمها- التي كانت تحلم وهي طفلة بالسفر. وقد تهب نسائم الذاكرة فتداعب حنين كريستينا للهوها في شوارع يافا مع صديقاتها الثلاثة ...

اجري يا فضة

اجري يا فضة

لكن الزمن يجري وفضة تظل تعيش في دوامته لا تبرح تفاصيله الدقيقة. حلم مشيرة الآن وصول عائلتها سالمة، وأن تعثر على سامي، مطمئنة الآن أن ثمة من يشاركها بعضاً من ذاكرتها.

لم تمض أيام على حديث مشيرة عن لم شمل العائلة والحبيب الضائع، حتى جاءت الفرصة لكريستينا. فقد اقترح صحفي تعرفت عليه في أحد المظاهرات أن تعطي محاضرة عن الحياة في غزة. رفضت. قال إن الأمر سيساهم في تسليط الضوء على معاناة الناس. أمام رفضها اقترح بفضول أكبر أن تكتب مذكراتها عن الحياة هناك.

ردت: ولكني لم أكن غريبة. أنا من هناك. ابتسم وهو يقول ولكنك أيضاً من هنا.

أريد أن أعود.

إلى غزة؟

طبعاً.

كيف؟

عبر البحر....

قالت ذلك وهي لا تعرف كيف يمكن لها أن تعود عبر البحر. لا تعرف التفاصيل. فبعد خروجها من الحانة في جنوب غرب أسكتلندا لم تغب عن بالها صورة الرجل الإيرلندي الذي قال لها إنه سيعود عبر البحر. فقط أشعل النار في عقلها، وأضاء الطريق للفكرة أن تنمو. غادرته دون أن تسأل عن التفاصيل. وها هو يعود كما أخبرتها الفتاة في الحانة، ويعيش هناك. الآن عليها أن تواصل مهمة البحث عن ترجمة كل ذلك إلى واقع.

في المظاهرة التالية سيبحث عنها الصحفي بين جموع المحتشدين دون فائدة، حيث ستكون كريستينا تغيبت قهراً بسبب وعكة صحية ألّمت بها. في المرة الثانية سينجح في العثور عليها. سيعرض عليها أن يشربا قهوة سوية بعد انتهاء المظاهرة. في مقهي في «هامرسميث» سيهمس لها بأنه عرف طريقة الوصول إلى السفن المتجهة إلى غزة. أخبرها عن نية بعض النشطاء تسيير مجموعة سفن لفك الحصار عن غزة. سألت هل ستذهب؟ للأسف، كما قال، سيكون عليه أن يُعد تقريراً للصحيفة التي يعمل بها، وسيضطر

للطيران إلى المكسيك من أجل ذلك. على أي حال، يعرف مجموعة من المشاركين في الرحلة سيهتمون بها إذا أرادت المشاركة.

هزت رأسها: «طبعاً طبعاً».

تخيلت نفسها تقفز من السفينة إلى الشاطئ في غزة. أهل الحارة في انتظارها. العناقات والتهاليل والزغاريد. نحن لا نفكر إلا بلحظات الوصول، أما مشقة الرحلة فتضيع أمام لذة النهاية. لدقائق وجدت نفسها في الحارة.

هل تطلقت نادية وتزوجت أيمن؟

لعل أحد أبناء نبيلة خرج من السجن.

صفية!!!

تشتاق لصفية. مسكينة لابد أنها تموت قهراً بعد حبس ابنها. تشعر كريستينا بتأنيب الضمير أنها كانت تعارض صفية حين كانت تحاول نهي حسن عن مهنة الصيد.

لطيفة المسكينة تصحو كل يوم تدعو الله أن لا يحقق حلم ابنها منار بالسفر. «إذا سافر ما راح يرجع يا حجة».

أمنيات كثيرة تنتظر المعجزات.

أما هي فستحمل الأخبار الجيدة عن مشيرة.

كأن شيئاً لم يتغير في حياة كريستينا، فهي تعيش في عالمين منذ ولدت، وتقفز حياتها بين لحظتين، وتمسك بكلتا يديها بصور مختلفة، وتسير كل قدم من قدميها في درب مختلف.

مرت أكثر من أربعة أعوام الآن على وجودها في لندن. لم يبقَ في العمر الكثير من الأعوام. روائح الأشجار على جانب الطريق بين

بيتها في فيكتوريا وجسر «شلسي»، تعيد سرد سنوات عمرها التي تجاوزت نصف عقدها الثامن. تركيب الحكايات والقصص، إعادة لمس الشخوص، صياغة إجابات أكثر إقناعاً للأسئلة الكبيرة التي تعصف برأسها، مهام قاسية تقوم بها وهي تخطو فوق الجسر. الرجل الذي قابلته في الحانة جنوب غرب أسكتلندا، عاد إلى هناك بسبب أنه رأى الفتيان يلبسون قمصاناً عليها صور صديقه «بوبي». في التظاهرات التي تسير فيها، تتخيل نفسها تسير في المخيم وسط الجماهير العريضة الغاضبة، خاصة حين يحملون جثمان أحد الشهداء.

تقف على الجسر. الريح الخفيفة تتخلل شعرها. تغمض عينيها. في كل مرة تشعر أن عالماً آخر يهرب منها. تحاول أن تلقي القبض عليه. يفر منها كما ينسل الماء من بين أصابع اليد.

هذه المرة ستتخذ قرارها بيدها، لن تترك القدر يقرر نيابة عنها، لن تدع دواليبه تحملها إلى حيث يشتهي. عليها أن تحمل القلم للمرة الأولى وتخط كلمتها على ورقة القدر. الأمر ليس مستحيلاً ولا صعباً. هناك أوقات نشعر فيها بقوتنا الداخلية تدفعنا، دون أن ندرك، إلى عبور الصعاب. حتى إننا لا نعود نراها صعاباً. سرت قشعريرة في جسد كريستينا وهي تنظر إلى «بيت هادسون» الموضوع في حديقة البيت منذ الحرب العالمية الثانية. مازال المصباح الصغير معلقاً في جوف البيت الخشبي بسقفه الحديدي المغطى بالأتربة. تجولت في الحديقة تنظر إلى بعض الأزهار التي تبحث عن ضوء الشمس الخافت تمتد منه عصارة الحياة. مازال صوت الرجل الإيرلندي ينهش استقرارها وهو يروي حكايات عودته هناك. الرجل كان يرد الجميل للشبان الذين رفعوا صورة صديقه «بوبي»، شعر بواجب تجاه ذكرى صديقه. دائماً للأموات علينا دين يجب أن

نسده. أن نكون أوفياء ليست منّة منا بل التزاماً. إلى اليوم بعد أكثر من ثلاثين عاماً، مازال الرجل يشعر بنفس السعادة كلما تذكّر صورة «بوبي» على قمصان الشبان الفلسطينيين.

في لحظات الحنين والشوق للحارة تتذكر تلك الجلسات الطويلة التي كانت تجلسها أمام البيت تحت شجرة الكينيا مع نسوة الحارة. تواسي نفسها بأن الحياة لم تكن سيئة كما يمكن تخليها تحت وقع اللحظة الحالية. نظرة إلى سني العمر تكشف الكثير من الفرح والسعادة والرضا. صحيح أن طعم الفراق والحزن على من رحلوا ظل مثل العلقم لا يفارق الفم، لكن أيضاً ثمة حياة جميلة عاشتها في الحارة. هناك كانت مهيبة الجناح، ينظرون لها باحترام وتقدير، وكانت عندهم مسموعة الرأي. ابتسمت وهي تتذكر تعليق صفية: «في الحارة بعدوكي راجل مثلهم». وفعلاً كانت تبث في أمور الحارة وتفتي أكثر من الرجال. رأيها قد يكون الفاصل القاطع في الكثير من الخلافات والاجتهادات. لابد أنهم يذكرونها الآن في الحارة ولابد أنهم يشتاقون لها. أهم شيء في الحياة أن لا نرحل، أن يظل هناك من يتذكرنا، من يبتسم وهو يستعيد لحظة عشناها معه، أن يتجول طيفنا فوق رموش أحبتنا بخفة ووضاء، أن يظل صوتنا يهمس مداعباً الحنين في روح من نحب بعد أن نرحل. هكذا يكون للحياة كما للرحيل معنى مختلف. لابد أن النسوة في الحارة تتذكرنها، تتبادلن قصصاً من عشرة العمر الطويلة التي قضتها معهم.

بينهم انصهر عمرها وانقضت أحلى أيامه. في طرقات الحارة تساقطت زهرات شبابها ومضت على عربة الشيخوخة دون أن تشعر يوماً أنها وحيدة. حتى حين لم يكونوا يصدّقون أنها ابنة عوني السعيد لأن العائلة كلها ماتت في الطريق، وجدت هناك من يقول

أنا أصدقها، وجدت من يعتني بها. صحيح أنها مرت بلحظات قاسية من الشك الذي كانت تراه في عيونهم، وبعد ذلك الغيرة حين تزوجت بيوسف، إلا أنها لحظات وانقضت بعد ذلك، حيث باتوا يعدونها جزءاً أصيلاً من الحارة. قالت نادية ذات مرة: «ما ممكن نتخيل الحارة بدونك يا حجة». عبارة سمعتها من كثيرين أيضاً، حتى باتت مثل قول مأثور. وذهبت نادية إلى القول بأننا يجب أن نشكر أخوات جورج أنهن أعدنها إلى غزة. فلولا عدم حبهن لكريستينا لما نعمت الحارة بوجودها معهم، ثم تسأل بتودد:

- شو اسم أخت جورج اللي رتبت رحلتك لغزة؟

- جين.

- والله إنها بتفهم.

نعم لا حارة بدون كريستينا ولا مخيم بدونها. كأن صورة المخيم لم تكن لتكتمل وتكوينه وانتقاله من خيام منتشرة على الرمال الملتهبة إلى بيوت موزعة بطريقة عشوائية، قبل أن تنضبط مع الزمن وتأخذ أشكالاً وتكوينات أكثر ترتيباً وتبدأ في الارتفاع طابقاً فآخر، كل ذلك لم يكن لولا وجود كريستينا. حكاية المخيم لم تكن لتكتمل بدون كريستينا، ولم يكن يمكن تخيل الحكاية دون نزولها من السماء فجأة حين وطئت قدماها أرض محطة القطار في مدينة غزة.

لكن أيضاً من الواضح أن الحكاية لا تكتمل دون اختفاء، دون غياب، دون أن تعود إلى سيرتها الأولى المُؤَسَسَة على عدم الاكتمال. لكنها لا تكتمل دون عودة.

عودة كريستينا

جرت مياه كثيرة تحت الجسر.

انتهت حكاية الشبح الذي يظهر في البحر في صيف العام 2014 عندما تعرضت غزة لعدوان جديد استمر واحداً وخمسين عاماً. انشغل الناس بالبحث عن النجاة، فالطائرات والبوارج والدبابات كانت تلتهم كل شيء حي في غزة. يمكن الافتراض أنّ الشبح قُتل أيضاً في عرض البحر، أو أنه قرر الرحيل عن غزة، أو أنه نجح في الوصول إليها. لكن في النهاية، توارت قصته خلف كثافة الأخبار الجديدة التي يخبزها فرن الحرب على غزة.

استُشهد كثيرون، وجُرح أكثر منهم. شُرّدَ عشرات الآلاف من بيوتهم، ولجؤوا إلى المدارس ليحتموا من الموت المحقق. لكن الموت ظل يقظاً يجز عنق الحياة وقتما استطاع. لم يفلت أيمن من مقصلة الحرب. قُتل صدفة مثل كل ضحايا الحرب. لم يقصد أن يموت. في مساءات أحد أيام الحرب خرج لبقالة حمدي ليشتري بعض الطعام، حينها هوى عليه صاروخ من طائرة زنانة، أحاله كومة من لهب.

تجمعت الحارة في بيته، بعد أن واروه التراب. بكى الرجال وبكت النساء. قسوة الموت خدّرت الحزن في القلوب. وكثرة

الشهداء وعنف المأساة وزعوا جهد الحارة، حيث لم يمض يومان حتى كان على رجالها ونسائها أن يذرفوا الدموع على شاب آخر منهم. فغم رحيل أيمن قلب نادية، ونهش استقرار روحها.

وضعت الحرب أوزارها، لكنها لم تنته. ظل الدمار والخراب ورائحة الموت والحزن والدموع ، وظلت حكايات الحنين والشوق واستذكار من رحلوا، وظلت الأيام حبلى بالمزيد من لسعات الألم. فالألم وحده يبقى حتى بعد أن تغيب الحروب والمآسي.

عادت قصة الشبح لحياة الناس ضمن القصص الكثيرة التي خلّفتها الحرب، إذ إن مصير الشبح وسبب اختفائه خلال الحرب وجدا حيزاً في نقاشات الناس. كأن اختفاءه مثل جملة الاختفاءات المختلفة التي عصفت بحياة الناس، ظل دائم التكرار والتردد في تفاصيلهم اليومية.

لكن للفرح دائماً نصيب في حياتنا.

صدقوا، أخيراً طرق الفرح باب الحارة. خلعه، عصف به مثل زلزال.

لم يمض على انتهاء الحرب أربعة أشهر حتى خرج حاتم، أكبر أبناء نبيلة من السجن. الأشياء الجميلة تحدث رغم قسوة الحياة. يحدث أن تهب نسمة خفيفة منعشة من النافذة تلاطف وجهك في ظهيرة صيف قائظ، ويحدث أن تشعر بالسعادة فجأة وبلا سبب. أتم حاتم ربع قرن من الزمن في السجن ثم خرج حين لم يتوقع خروجه أحد. وحدها نبيلة كانت تحسب الأيام يوماً بيوم منتظرة هذه اللحظة، لكنها لم تكن تتخيل أنه فعلاً سيخرج. كادت تؤمن أنها ستموت دون أن ترى أولادها طلقاء. لم يكن أحد ينتظره

في الطرقات، كما لم يقم أحدهم بتزين الشوارع أو بخط كلمات التهنئة والتبريكات على الجدران. فجأة وجدوه في الشارع.

في الحقيقة قد لا يبدو هذا الحديث دقيقاً إذا أدركنا أن نبيلة فعلاً كانت تنتظره عند النقطة العسكرية «إيرز» شمال قطاع غزة. استغرق الأمر نبيلة ساعات تشرح لضابط الأمن الفلسطيني أن ابنها الأسير سيُطلق سراحه بعد أن أمضى خمساً وعشرين سنة في السجون الإسرائيلية. ضحك الضابط وهو يسأل: «وين أهله؟». قالت نبيلة: أنا أمه. الضابط أجلسها على كرسي صغير بجواره وقال:

من غير المعقول يا أمي يكون مقضي خمس وعشرين سنة وما في حدا متذكره إلا أنت.

فشاب يمضي ربع قرن في السجن لابد أن يكون هناك المئات من الأهل والأحباب والأصدقاء في انتظاره، كما قال الضابط لنفسه.

الله يساعد الناس على أشغالها.

في الصباح حين أفاقت بحلقت غير مصدقة في الورقة الصغيرة التي تلصقها على باب الخزانة،

الريح تعوي في الشارع، والمطر الذي لم ينقطع طوال الليل هدأ، وظلت نسمة خفيفة تتسلل من فتحات النافذة غير المُحكمة، تداعب الورقة التي تكتب عليها تاريخ إطلاق سراح حاتم المتوقع. لم تصدق عينيها. أخذت تحسب السنوات الخمس والعشرين التي مضت. هُيّأ لها أن الورقة ليست ورقتها، وأنها لم تكن يوماً بعد يوم تنظر إلى التاريخ المكتوب عليها، وأن الأمر ليس أكثر من أحلام مشتهاة.كل يوم تمزق الورقة وتعلق ورقة جديدة تكتب عليها التاريخ مرة أخرى. لابد أنها نسيت تمزيق الورقة يوم أمس. لابد أن

أحدهم تلاعب في التاريخ المكتوب عليها. وبين الشك واليقين، قررت أن تذهب إلى النقطة العسكرية «إيرز» تنتظر الولد.

حين ألقت على حمدي تحية الصباح، وهو يتدفأ على نار أوقدها أمام بقالته، لم تخبره عن مشوارها المهم الذي تقوم به. عرض عليها أن تشرب الشاي. قالت: «لما أرجع». في الحقيقة نصري سألها قبل شهر عن موعد إطلاق سراح حاتم، لكنها لم تكن متأكدة من صدق حساباتها. قال نصري باستغراب إن الأمر ليس بحاجة لحسابات. قالت باقتضاب: ربما الشهر القادم. وكانت تعرف أنه الشهر القادم، لكنها تخاف أن تباغتها مفاجأة ما تحول دون أن يكون الأمر الشهر القادم. لو أنه يخرج فجأة. لو أنها تجده أمامها دون أن تنتظره.

ما إن أكملت الشمس سطوعها واهنة من خلف الغيوم حتى تذكرت كل الحارة. كأنهم فجأة استيقظوا على صوت سرى في آذانهم يقول إن اليوم موعد إطلاق سراح حاتم. دب الخبر في الحارة. حمدي ترك الشاي على النار، وهب واقفاً ليلحق بالجماهير الغفيرة من سكان الحارة التي ركبت في الباص الذي استأجره نصري وجمال لحمل سكان الحارة للمشاركة في استقبال ابن الحارة العائد من غياهب السجون. مئات الأشخاص بدؤوا بالوصول إلى «إيرز». الكل يقّبل نبيلة ويبتسم في وجهها. صفية فقعت زغرودة هزت المكان. على أطراف لسانها كان ثمة زغرودة أخرى مشتهاة: يوم يخرج ابنها من السجن أيضاً. نبيلة لا تصدق، ولم تصدق حتى ضمت الولد بين يديها.

كانت رائحة الحرب لم تزل تملأ الهواء، والغبار المتطاير من الأبنية المهدمة يجعل التنفس صعباً في بعض المناطق، وصور أكوام الدمار تقول إن الحرب لم تنته.

كان خروج حاتم مثل معجزة ما بعد الحرب، فهو قد نجا مثلهم، وها هو الآن يسير في الطرقات بعد ربع قرن من العيش بين أربعة جدران. من الصعب عليه أن يلمس حجم التغيير الكبير الذي مس غزة. فقط أطياف من رحلوا ترقص أمام عينيه، كأنها تتحسر أن الزمن لم يمنحها فرصة الاحتفال بتلك البرهة.

وجدوا في خروجه مناسبة للفرح. الحزن يملأ الشوارع، يطوف فوق الرؤوس، يغمر العيون بالدموع، يُغّلف أيامهم بالسواد. لكن ثمة أوقات للفرح أيضاً. ثمة أوقات ندرك فيها أننا بحاجة لنبتسم، وأن ندفع شراع شفاهنا فوق موج الدموع المتلاطمة. في الليل اجتمعت الحارة أمام بات البيت بعد أن قام حمدي باستئجار ألف كرسي بلاستيكي وشادر، ونصب صواناً زينته الأعلام واليافطات الترحيبية.

بدأت الناس تتوافد لتقديم التهنئة بسلامة الولد العائد من السجن. لم يمض النهار حتى أفاقت التنظيمات السياسية على الواقعة، فبدأت بحمل راياتها ويافطات تهنئتها الخاصة والقدوم إلى صوان التهنئة. الساسة يلقمون الميكرفون فور وصولهم مثل طفل يلتقط ثدي أمه، ويهيمون بخطب بلاغية وحماسية ووعود ومستقبل مجبول بنكهة الماضي. ثم يصفق لهم محبوهم، وتطفح وجوههم بالتواضع مثل قشرة قناع رقيق من الشمع فوق وجه سيدة في صالون تجميل.

اقترح جمال أن يتم تشكيل فرقة دبكة من فتية الحارة ليقدموا عروضاً خلال استقبال حاتم. كان من الصعب إيجاد فتية صغار يعرفون الدبكة بشكل جيد.

كل شباب الأيام ما بدبكوا ... برقصوا.

علق حسن الصياد وهو يتذكر كيف كانت المياه تكاد تخرج من جوف الأرض حين كان يضربها بقدمه، في مبالغة واضحة تشير لقوة ضربة قدمه حين كان يدبك. كان هذا في زمن مضى. صمت قليلاً واقترح بتردد، ولكن بفرح واضح، أن يقوم رجال الحارة بتقديم عرض دبكة، وهي فرصة يستعيدون خلالها شيئاً من شبابهم الذي مضى، ويُفرّحون ابنهم العائد حاتم، ويقولون له كم هم فرحون به. نظروا إلى بعضهم بعضاً. في داخلهم سيصرخون «نعم»؛ لكنهم آثروا التردد. فكل شخص كان ينتظر الآخر أن يستحسن الفكرة. حتى حسن اضطر أن يرجع خطوة للوراء حين علّق بتردد أيضاً: «هذا مجرد اقتراح». كأنه يريد أن يقول: «انسوا». جمال نقل الاقتراح مرة أخرى إلى الواقع حين قال إنه مستعد أن يدبك. وسرد كيف في السجن استطاعوا أن يستفزوا إدارة السجن حين اصطفوا في صف واحد، وبدأ عشرات السجناء يدبكون مجلجلين ومخلخلين السجن الذي بات للحظة مسرحاً لفرحهم ولغضبهم.

وهكذا كان الأمر، إذ في اليوم الرابع لاستقبال حاتم، دخل رجال الحارة واصطفوا في صف واحد، وبدؤوا في الدبكة على إيقاع عزف شبابة من جهاز التسجيل... الدلعونة وجفرا وظريف الطول. هاج وماج الصوان، وعلا التصفيق وزاد عدد النازلين للدبكة، خاصة من كبار السن الذين وجدوا فيها استعادة لأفراح مضت. صفية شقت طريقها وسط المتجمهرين حول حلقة الدبكة ووقفت بين الدبيكة، وأخذت تدبك معهم بحماسة، مما أشعل الجميع. ثم لحقتها لطيفة وبعض نسوة الحارة. لحظتها انسحب الرجال ليتركوا الساحة للنسوة يقدمن عرضاً رائعاً. بعيداً في طفولتها مازالت صفية تلتقط تلك الأغنية التي غنتها النسوة في عرس أخيها وهن يسرن بين الحقول في قرية «يبنا»، حيث موطن عروسه.

يا يمّى طلعت أتفـرّج سوسـحنى الهـوا ورمـاني

واصفرّيت كما الليمونة واخضرّيت كـما الريحانـة

جـابولي طبيـب زغـيّر واسـمه يوسـف الـنعماني

حطّ إيده على راس قلبي قال لي يا بنت انت هويانة

حضر أنطون مع الأبناء والأحفاد ونزل الجميع على خشبة الدبكة فرحين بالمتاح لهم من الفرح. تفاجأ الجميع بفتاة أجنبية تشق الصفوف وتمسك بيد صفية وتبدأ بالدبكة مع النسوة. لم تكن تعرف كيف تدبك. ترفع قدمها عن الأرض ثم تنزلها بقوة. تبدل حركة القدمين. تحركهما في تقليد لأقدام النسوة التي تطير في الهواء وتضرب الأرض بمهارة وخبرة. الفتاة باسقة الطول بشعرها الكستنائي وعيونها العسلية وصدرها النافر وبنطال الجينز يضم ساقيها بشغف، ألهب حضورها تصفيق الشباب وتهليلهم. ودوا كلهم لو نزلوا للساحة ليشاركوا. ثم سرعان ما نزلت مجموعة من الصحفيين شباناً وشابات ليشاركوا في العرس الصاخب الذي ظل حتى ساعات متأخرة ينشر رذاذه بخفة على المخيم.

مر أسبوع من الفرح كأنه غمضة عين. الفرح غيمة كثيفة تمطرنا بالرضا ثم تذهب، وسرعان ما تنشف ملابسنا إذا مسنا لهب خفيف من شمس الحزن والألم، يرافقنا حتى تنجح غيمة جديدة في غسلنا وتطهير جروحنا.

في الأسبوع التالي عادت الفتاة الأجنبية إلى الحارة مع الفريق الصحفي. انشغلوا في التقاط صور للبيوت المهدمة جراء العدوان الأخير في شهر تموز وأغسطس. قابلوا بعض من هُدمت بيوتهم. التقوا بنادية التي تحدثت عن معاناة المرأة في الحرب. تكلمت عن

كل شيء إلا الشيء التي ودت لو تستطيع التحدث عنه - عن أيمن الذي خطفته الحرب قبل أن تنعم باستنشاق عطر جسده، في تعويضها لسنوات الحرمان التي عاشتها.

تحس أن العمر لن يهبها لحظة فرح حقيقية، أن الشقاء مكتوب عليها. أن الفرح لحظة عابرة بين حزنين أبديين يُجملان حياتها، يحاصرانها، لا يدعانها تفلت من عقالهما. حين عادت للبيت فتحت كشكولها الصغير الذي تكتب فيها كل يوم رسالة لأيمن علها تصله هناك في ملكوت العالم الآخر. ترمي بحزنها بين الكلمات ثم تغمض عينيها تتخيله يقرأها، وتنتظر الابتسامة الجافة التي ستند عن شفاهه. تستعيد حلماً كان ممكناً للحظات قبل أن يخطفه القدر ويمضي خلف غابة الغياب السرمدية. كتبت:

اشتقت لصوتك، اشتقت لخطوات قليلة نخطوها سوية، نحتمي فيها من صقيع المسافات وجفاف الدعاء في الحلق. اشتقت للكثير من الصمت والتردد والضحكات الخافتة، ولضوء الأفق الضيق في ممرات العمر المبهمة، لكنها الوحيدة التي تحمل بعضاً من الأمل. وفوق كل ذلك اشتقت إلى البداية الخجلة والمشاكسة التي حملتنا إلى لقاء اكتشفنا فيه سخافة الحديث المبعثر الذي نداري فيه قلقنا.

كل ليلة تستعيد ألق ذلك اللقاء الأول بينهما. تحدثا لساعتين دون أن يلتفتا أنهما فعلياً لم يتبادلا أي حوار حقيقي. قال إن بعض طالباته في الجامعة متطوعات في الجمعية وأحب أن يجاملهن. ابتسمت وهي تقول: «محظوظات». جديته الصارمة تحرمه مرات كثيرة من التقاط الكثير من الدعابة في أحاديث الآخرين.

هل يمكن استعادة حب المراهقة بعد ثلاثين عاماً!. كثيراً ما يمر العمر وننسى، لكنه يعود مرة أخرى بعربة جديدة يسحبنا إلى

تلك اللحظات التي نظن أننا نسيناها. استيقظت مشاعر المراهقة في قلب أيمن الآن وهو يمج سيجارته ويخطو مع نادية بين ممرات معرض المشغولات الفنية التراثية. المشاعر التي آثر أن يدفنها منذ قرابة ثلاثين عاماً، فلماذا يدعها تتحرك الآن، وقد مضى قطار العمر وتزوجت نادية وتغير مسار حياتها وباتت شخصية عامة في غزة. لم يستطع أن يقاوم الرغبة في اختبار النسيم الخفيف الذي يهب على جدار قلبه. قدم لها كأس شاي آخر وهما يواصلان حديثهما عن العمل في الجامعة ومؤسسات المجتمع المدني والتمويل الأجنبي وقلة التمويل الوطني للعمل الأهلي. مواضيع متفرقة. تحدثا في كل شيء. بعد ساعتين جلسا على مقعد حجري قبالة المعرض. وقبل أن يبدأا حديثاً جديداً تلاقت عيونهما مثلما تلاقت ذات مرة وهي عائدة من المدرسة الثانوية. انفجرا ضحكاً إذ اكتشفا سخافة ما يتحدثان عنه، فيما بات النسيم الذي يهب على جدار القلب عاصفة صاخبة تكاد تقتلعه من صدره.

تأملت الكشكول الذي امتلأت صفحاته بالمناجاة والألم، بالشوق واللوعة، بالرجاءات والآهات. طوته وخرجت لتجلس مع الفريق الصحفي الأجنبي. قدمت لهم الشاي. الفتاة التي نزلت على الدبكة أحست أن شيئاً يمسك قلب مضيفتهم. سألت: «هل فقدتِ قريباً أو فرداً من العائلة». ردت بنفي من رأسها. واصلت الفتاة: «حبيب أو عزيز». واصلت حركة رأسها نفياً. الحب الذي لا يمكن التصريح به. هل يمكن لها أن تقول إنها تحب أيمن وتعبر عن ذلك جهاراً. غزة والناس وإن كانوا يتعاطفون معها، لكنهم لن يقبلوا ذلك. بعض الحب وُجد ليموت أو ليظل مجرد مشاعر، مثل نبتة الكالونيا وجدت لتنشر عطرها على من حولها. عربة القدر وهي

تمر تلوح لنا بالوداع، تضحك تارة وقد تذرف معنا الدموع تارة أخرى، لكنها تمضي ويظل أثر يدها في الهواء مُروّضاً للألم الذي سيخبو تدريجياً داخلنا.

بات تردد الفتاة الأجنبية على الحارة أمراً معتاداً، حيث صارت تأتي وحدها بعد أن غادر الفريق الصحفي الذي جاءت معه. ولم تعد بحاجة لأحد من أجل أن يصطحبها في شوارع المخيم، فهي تسير بين الطرقات والأزقة مثل من عاش فيها سنين. من الطبيعي أن تجد صحفيين وصحفيات أجانب في المخيم خاصة بعد كل تصعيد أو عدوان جديد على غزة. لكن الفتاة «التي نزلت على الدبكة» كما بات أهل الحارة يعرفونها ويشيرون لها، مع الوقت تحولت إلى شيء روتيني في الحارة، إلى تفصيل جديد من تفاصيلها. كانت تسير في الشوارع تلتقط الصور للبيوت والأزقة ولوجوه الناس وتمضي. عرفت نادية من صديقة مشتركة لهما أنها، أي الفتاة الأجنبية، تعمل متطوعة في مركز لحقوق الإنسان تكتب تقارير المركز باللغة الإنجليزية وتساعد في توثيق جرائم العدوان الأخير.

مرت ذات مساء فيما رجال الحارة يجلسون أمام بقالة حمدي. أخذت تلتقط صوراً لهم. أقلق الأمر الشيخ محسن الذي نفض نفسه ودخل داخل البقالة في غضب واضح. عاد بعد أن ذهبت الفتاة. نظر إلى جمال وقال بتودد: عاجبك هيك! ثم إلى حمدي: الحارة صارت سايبة.

لا سايبة ولا شي يا شيخ. بنت وبتصور.

يعني اللي بصور، بصور يوم أو اثنين وبروح. صارت سري مري. يوم يوم بتيجي هون.

عادي. غزة مصنع أخبار. والصحفيين هادا شغلهم.

فش وراها إلا احنا!

يخلف عليهم بكتبوا عنا.

هذه المرة نظر في عيني جمال: حكوماتهم الفاسقة الرجعية (استخدمها ليرضي جمال بالطبع) الاستعمارية هي من صنعت نكبتنا وساعدت إسرائيل.

يبدو أنه نجح في جر جمال للنقاش معه، فعلق الأخير: بصراحة احنا مش صورة. اللي بتعاطف معنا بطلع يحتج ضد حكومته. بعدين احنا فعلاً مش عارفين مين هي أصلاً.

حمدي: واحنا بنعرف كل الصحفيين اللي في البلد؟

بس هاي صارت يوم يوم في الحارة. أنا راح اقول للشباب يراقبوها.

ذهب الشيخ محسن لأبعد من ذلك، إذ قال إنه سيخبر قلقه لضابط الأمن الذي يصلي في المسجد الذي يؤم الصلاة فيه.

صرخ حمدي: يا جماعة لا تكبروا القصة. صحفية وبتصور. شو يا حسن ما عملت هاي الصحفية قصة عن ابنك اللي خطفه الجنود جوات البحر؟

هز حسن رأسه وقال: صحيح.

جمال: بصراحة زهقنا من اللي بيجو بضحكو علينا بكلمتين وبروحوا. هي مشكلتنا صارت معجزة صعب حلها.

الشيخ محسن: الحل في السماء ووعد الله قريب.

رد جمال بسخرية واضحة: طولت.

يمهل ولا يهمل.

أخرج جمال سيجارته وأخذ يداعبها بأصابعها، قبل أن يشعلها، وقال: يا شيخ محسن الحل بإيدينا نحن. نحن اللي بنقدر نغير.

نحن ننفذ القدر الذي كتبته لنا السماء.

نحن القدر ونحن السما كمان.

استغفر الله يا جمال.

لكان ليش محتج على الفتاة اللي بتصور. يا أخي القدر بعتها وهو عارف انها هون واحنا لازم نقبل.

ضحك حمدي على الطريقة التي انتهى فيها الحديث، إذ لم يعد يقتصر على الفتاة التي نزلت على الدبكة، بل صار حول الأيدلوجيا والصراع الفكري والعلاقة بين الماضي والحاضر.

أخيراً أصدر القاضي قراراً بتطليق نادية من زوجها. الفرحة الناقصة التي لم تنعم بها. تطلقت بعد أن استشهد أيمن. مسكت صفية يدها وهي تقول: «ريحة البر ولا عدمه». لم تفرح نادية بالقرار، لم تشعر بشيء. الأخبار المفرحة حين تأتي في الوقت الخطأ تفقد قيمتها. واصلت حياتها وعملها في المؤسسة، دون أن ترحل غمامة الحزن عن عينيها.

حاتم انشغل بترتيب أموره بعد أن خرج من السجن. حاول إعادة بناء بيت العائلة، لكن شح مواد البناء بسبب الحصار وعدم إدخالها حتى بعد وقف إطلاق النار في أغسطس 2014 والاتفاق على ذلك، جعل الأمر حلماً. وجدت نبيلة الكثير من السلوى في خروج حاتم. قالت لحمدي: «الله لا يبارك في حدا، الولد طلع بعد ما قضّي كل الحكم».

مر شهر الآن على خروجه من السجن. لقاءات مع رفاق الأسر السابقين وجلسات في المساء مع شباب الحارة. زيارات

خاصة من بعض المسؤولين في التنظيمات. انضم إلى إحدى الملتقيات التي تُعنى بشؤون الأسرى والمحررين. أحس أن عليه الالتزام تجاه قضية هو جزء منها.

بيد أن الشيء الأهم سيحدث عما قليل خلال وجوده في معرض صغير للكتاب ينظمه مركز ثقافي محلي في قاعة مركز المسحال قرب البحر. الأشياء الجميلة تحدث صدفة.

في أوقات معينة من حياتنا علينا أن نواجه الحب، أن نجده ينتظرنا على الطريق، أن يقتحم شباك غرفتنا إما مثل نسمة رقيقة تداعب الشرشف الرقيق الذي نتدثر به، أو مثل عاصفة تخلع استقرارنا. ثمة أوقات للحب لا يمكن لنا الهرب منها، وهي أوقات تحملنا، مرغمين أو برضانا، إلى أسئلة لا نجيب عليها بالضرورة. فقط حين يتعلق الأمر بالحب لا تعني كل علامة استفهام حاجةً للإجابة. ليس بالضرورة، لأن الإجابة تضّيع نكهة السؤال التي تعطي للحب طعمه ورائحته. إنه القلق الذي تحسه الفتاة الأجنبية وهي تتخيل تلك النظرات التي غمرتها في معرض الكتاب حين وجدت نفسها وجهاً لوجه مع حاتم. كانت رفوف الكتب تتزاحم الجدران الخشبية التي تقطّع المكان إلى مربعات وممرات غير متساوية، والعناوين المختلفة تسرق عينيها في كل اتجاه. وبين لحظة وأخرى تقف تتأمل عنواناً بالإنجليزية جذبها، ثم تسحبها نظراتها إلى عنوان آخر. وهكذا دواليك دون أن تعرف أن موعد النظرة الحقيقة التي ستتوقف أمامها دهراً لم يحن بعد.

شعر حاتم بالملل حين قرر أن يغادر القاعة ويعود إلى بيته في المخيم سيراً على الأقدام. المشي لمسافات طويلة بات هوايته الجديدة حتى يحس أنه لم يعد حبيس الزنزانة. عاد ليبحث عن صديقه داخل

المعرض، ليودعه قبل أن يخرج. لم يجده. أخذ يسير بين رفوف الكتب يبحث عنه. لفت نظره كتاب عن تاريخ مدينة يافا. مد يده ليتناوله. سحبه. في المساحة الصغيرة التي تركها الكتاب كان وجه الفتاة الأجنبية يطل كأنه موضوع في إطار. ابتسامة مرتبكة وتحية متلعثمة من الشفاه.

لا يعرف هذا الشعور. لم يخبره من قبل.دخل حاتم السجن وهو لم يبلغ السابعة عشر. حين كان يسمع الفتية في الحارة يتحدثون عن فتيات الحارة أو طالبات المدرسة الثانوية كان يشعر بخجل شديد وينسحب. لا يعرف كيف يدق القلب، ولا كيف تنقبض الروح أمام طيور الحب حين تحط ترحالها في الجسد، فيرتجف من البرد، ثم يتصبب عرقاً من الحر. لم يعرف ما الذي أحس به. كما لن يكون بمقدوره أن يقول إنه شعر بالحب، فهو لا يعرف ما الحب أصلاً. انسحب فيما صورة وجهها ظلت معلقة على رموش عينيه. التقيا على طرف الممر. بادر بتلعثم:

كيفيك؟

كانت الفتاة قد تعلمت بعض الكلمات العربية منذ وجودها في غزة. ردت: منيحة.

أي حوار طويل بينهما سيواجه طريقاً مغلقاً بعد ربع ساعة، إذ إن الفتاة ستستنفذ كل رصيدها من الكلمات العربية، كما أن معرفة حاتم بالإنجليزية التي تعلمها في السجن على يد رفيقه هناك أيضاً لن تساعده كثيراً. لغة العيون وإشعاع القلب وحدهما لا ينتهيان. ليس من المؤكد أن أحداً يعرف المستقبل، لكن الشيء الثابت الوحيد أننا في لحظات معينة نشمه، نتلمس شكله.

ستكثر اللقاءات خارج الحارة... في كافتيريا على البحر، أو مطعم في «الرمال»، أو قد يزورها في مركز حقوق الإنسان. سيجد الحب طريقاً سهلة يغرس نصله أكثر في قلبيهما. وستبدأ الحياة دورة جديدة من فصول السعادة التي يعيشها منذ خروجه من السجن. أما الفتاة الأجنبية فستجد في الحب الجديد سبباً آخر حتى تمدد فترة تطوعها في المركز، حيث بدأت تنسج علاقات متزايدة مع زميلات وزملاء العمل ومع بعض العائلات التي تزورها.

كل هذا لم يخفف من الممانعة والرفض الذين بدأت تراهما في عيون أهل الحارة، المكان الأثير بالنسبة لها حيث تجد متعة في التقاط الصور للبيوت وللشوارع والأزقة ولوجوه الناس. وحده حمدي كان يبتسم لها حين يراها. أما الآخرون فيرسمون على وجوههم كل آيات الغضب والسخط والنفور، ربما في تصنع زائد يقصد دفعها لعدم العودة.

لم تمضِ خمسة أشهر حتى حان وقت الرحيل. قالت إنها يجب أن تسافر. وعدته أن تعود. عانقته للمرة الأولى وهي تعيد وعودها بالرجوع. ثم اختفت خلف الحدود مثل كل الفرح الذي يفر من حياتنا. نبيلة لم تعد تصبر فهي تريد أن يتزوج الولد حتى تفرح بأحفادها قبل أن تموت. بعد خمسة وعشرين عاماً الولد أحب فتاة أجنبية! لم تصدق نبيلة هول المصاب. فالأسرى عادة ما يتزوجون بعد خروجهم من السجن حتى يعوضوا سنوات السجن بالمتاح من الفرح. حاتم قال إنه سينتظر الفتاة الأجنبية.

وداد قالت لنبيلة: «الحال من بعضه»، في إشارة لتعلق ابنها بمشيرة. لكن الفرق كما ستستدرك وداد أن الفتاة الأجنبية وعدت بالعودة، أما مشيرة فقد اختفت في معمعان الحرب الدائرة في سوريا.

لابد أن أحدهم قد يعتقد، محقاً، أن الرجل الإيرلندي الذي قابلته كريستينا في الحانة قرب المحيط جنوب غرب اسكتلندا مازال موجوداً حتى الآن في غزة. وأنه وصل إلى الحارة - دون أن يعرف بالطبع أنها حارة المرأة السبعينية التي قابلها والمطر ينقر على نوافذ الحانة- خلال الحرب للمساعدة في تنظيم حياة المشردين الذي تركوا بيوتهم هرباً من الموت وبحثاً عن النجاة.

في مقهى الكروان سيلتقي الرجل، بعد الحرب، وبعد نهار طويل من العمل، بصحفي بريطاني منشغل بقراءة كتاب عن تاريخ الشرق الأوسط. لن يخطر بباله، رغم كل هذه المصادفات، أن يكون هذا الصحفي جاء يبحث عن كريستينا في غزة، أو أنه يعرفها، أو أنه أول من دلها على كيفية العودة عبر البحر. لم يخطر في باله أنه في مقهى شعبي في مدينة غزة، وسط ضوضاء لاعبي الورق وقرقرة الماء في الأراجيل وسحب الدخان وروائح التبغ، يمكن له أن يجد كل هذه الصدف. لاعبو الورق، مدخنو الأراجيل، جلبة شارع عمر المختار، وحركة العاملين في المقهى كل ذلك يبعث قلق أكثر في حوار الاثنين. منذ وصوله قبل ثلاثة أيام أنجز تقريراً عن مقبرة الجيش البريطاني شرق مدينة غزة والمقبرة الأصغر قرب دير البلح. خلال الحرب عام 2009 تكسر قرابة 350 شاهداً في المقبرة شرق مدينة غزة.

- وهل كتبت عن الناس الذين قتلوا في الحرب الأخيرة!

- طبعاً .. طبعاً

لكن الشيء الأساسي الذي جاء من أجله لم يعرف كيف يستدل عليه: كريستينا. لا يعرف كيف يبدأ. لم يخطر بباله أن الرجل الإيرلندي، الذي يجالسه الآن على مقهى وسط مدينة غزة، بعد أيام من الحرب، والذي يعمل متطوعاً في أحد المراكز في المخيم، هو من

أشعل شرارة فكرة العودة عبر البحر في عقل المرأة التي يبحث عنها. تحدثوا عن الحرب وعن الحدود المغلقة وعن المستقبل الغامض. بدا الأمر أبعد من مجرد حوار عابر. خارطة الشرق الأوسط على غلاف الكتاب الموضوع الآن أمامهما على الطاولة، تعكس آخر من تبقى من أشعة الشمس وهي تغيب خلف شجرة الظل بجوار المقهى، ثم تعتم الخارطة وتبدو ألونها باهتة تتحلل في العتمة.

خلال الحرب كتب في الصحيفة التي يعمل فيها في لندن تقريراً مفصلاً عن امرأة بريطانية قررت العودة إلى غزة عبر البحر. لفت انتباه الصحفي، الذي قابلته كريستينا خلال المظاهرات المندّدة بالعدوان على غزة في لندن، والذي أخبرها أنه سيتجه إلى المكسيك لعمل تحقيق صحفي من هناك، أن أحداً لا يذكر شيئاً عن المرأة البريطانية العجوز التي ركبت البحر لفك الحصار عن غزة كما كتب في تقريره. سأل كل أصدقائه الذين اعتاد أن يقابلهم في المظاهرات عنها، لكن لم يخبره أحد بأي معلومة جديدة. كل ما نجح في الحصول عليه هو تأكيدات أنها ذهبت لليونان حيث صعدت إلى سفينة صغيرة قبالة جزيرة كريت مع مجموعة من المتضامنين. حتى إن التقارير الصحفية لم تشر إلى إبحار السفينة لغزة ضمن ما بات يعرف بأسطول الحرية. راجع كل التقارير السابقة عن السفن التي أبحرت لغزة، لم يجد إشارة إلى وجود المرأة العجوز التي يبحث عنها.

نجح في الوصول إلى أحد المتضامنين الذي أكد أن المرأة التي يبحث عنها أبحرت معهم إلى غزة. السفينة كانت تحمل مساعدات إنسانية وأدوية طبية وألعاب أطفال. البحرية الإسرائيلية هاجمت السفينة واقتادتها إلى ميناء أسدود حيث تم الاعتداء على المتضامنين والتحقيق معهم ومصادرة ما تحمله السفينة من مساعدات وأدوية

وألعاب. بعد أن أفرجت السلطات الإسرائيلية عن المتضامنين، أنكرت وجود كريستينا من الأساس ضمن المحتجزين، رغم إصرار قبطان السفينة والمشرفين عليها على وجودها. حتى حين هاتف الصحفي المتحدث باسم الجيش قال إن جميع من على السفينة المذكورة قد تم إطلاق سراحهم وترحيلهم إلى بلدانهم. أحد المتضامنين قال إنه رأى المرأة تقفز في البحر. «يبدو أنها سباحة ماهرة». متضامن آخر قال إنها تعاركت مع أحد الجنود الذي بدوره دفعها من فوق السفينة إلى البحر. «ربما تكون غرقت»، قال المتضامن وهو يعيد تثبيت الكوفية حول عنقه. صمت طويلاً قبل أن يستطرد: «أو يكون الجندي قد أطلق النار عليها.. الجنود كانوا يحملون أسلحة كاتمة للصوت». وقبل أن ينتهي الصحفي من ارتشاف كأس الشاي ويهم بالوقوف شاكراً المتضامن على تعاونه معه، قال الأخير وابتسامة أمل تزحف بضعف ووهن على شفتيه: وربما نجحت في الوصول لغزة سباحة.

قد تكون قد وصلت إلى غزة فعلاً، كما استنتج. على الأقل هذا الاحتمال الوحيد الذي مازال قائماً ويمكن البحث للتأكد منه. نقد الرجل الإيرلندي صاحب المقهى ثمن المشاريب وهو يقترح أن الحياة في غزة مليئة بالقصص التي يجهلها الناس. ستتكرر لقاءاتهما اليومية على المقهى خاصة في آخر النهار، يتبادلان القصص والحكايات التي يمران بها خلال عمليهما.

ترك الصحفي غزة في مايو 2015 صوب الفاتيكان من أجل حضور إعلان الراهبتين مريم بوادي وماري ألفونسين غطاس قديستين. القديسة غطاس هي ذاتها الراهبة سلطانة غطاس التي منحت عائلة سلطانة صديقة كريستينا اسمها لطفلتهم. ستصبح سلطانة إذاً مع مريم بوادي أول قديستين معاصرتين من فلسطين، وستحتفل

كل كنائس فلسطين بتطويبهما، بما في ذلك الكنيسة القديمة في قلب مدينة غزة التي أقيم قداس وفاة سلطانة فيها وحيث تعرفت سلطانة على أنطون ونما الحب في قلبيهما. سيقف أنطون وأبناؤه وأحفاده يرتلون ويحتفلون بقديستهم التي كانت تسكن معهم.

أما منار فقد اختفى فجأة. بعد أن وضعت الحرب أوزارها، نجحت ترتيبات صديقه في تأمين قارب يحمله عبر البحر إلى مصر حيث كان ينوي أن ينطلق من هناك شمالاً نحو إيطاليا أو اليونان. لا أحد يعرف تحديداً ماذا جرى لمنار. يمكن سماع عشرات القصص عن حالات الغرق الجماعية للمهاجرين. مرت أربعة أشهر ولم يسمع أحد خبراً عنه. لطيفة ندبت حظها وهي تسأل كل من تعرف له أقرباء هاجروا أو يعيشون في أوروبا إذا ما كان سمع خبراً عن ابنها. «يا خوفي البحر يكون أكله». وبكت. وبكت صفية وسهيلة ونادية وبكت كل نسوة الحارة، وخبت النار في الموقد أمام بقالة حمدي. لم يعرف أحد كيف يجيبها. وظل السؤال المعلق ينتظر إجابة لا يعرف أحد متى تأتي.

كأن الأشياء يجب أن تصل إلى نهايتها.

عادت الفتاة الأجنبية إلى المخيم مرة أخرى. الشباب منشغلون بتثبيت اليافطة الكبيرة فوق سطح بيت الحاجة كريستينا. اليافطة تقول إن المكان بات «مكتبة المخيم». جمال منشغل بحمل الكتب وترتيبها على الرفوف الخشبية. حسن ينفض الغبار عن الطاولات المستديرة، بعناية من يرتق عيون الشباك. سامي يشرح لمجموعة من الصحفيين الحلم الذي بات حقيقة. جاءت وداد بكل الكتب التي تزخر بها الرفوف الثلاثة في صالون بيتها. صفية تبتسم وهي ترتشف اليانسون مع لطيفة وسهيلة.

نزلت دمعة من عيني نادية وهي تبحلق في صورة أيمن معلقة على جدران الحارة. البوستر المزخرف بشعارات البطولة. عينا أيمن تبرقان لها وسط الصخب، فتُنزل في قلبها طمأنينة تلسعه ثم تشعل فيها نيران تضطرم. وحده الحب الذي يبقى.

ظن حاتم أنها لن تعود. قالت إنها ستسافر شهرين ثم سترجع. الخطط والمستقبل اللذان حلما بهما سيتحققان. عند معبر رفح الحدودي ظلت يده معلقة في الهواء. شعر أنها لن ترجع. عيناه اللتان أطلتا من خلف رفوف الكتب في ذلك النهار، حيث كوى الحب قلبه، تذويان الآن خلف الحدود مسلمتان بواقع الفراق الذي تنشره أسلاك الحدود ورائحة الصحراء وتكدس المسافرين على المعبر. قالت له صفية: «اللي بروح برجعش». نبيلة مسحت على رأسه وهي تسأله عن الحياة داخل السجن، عن أخويه الآخرين اللذين مازالا خلف القضبان. هوايتها المفضلة هي سماع تلك القصص التي تروي قلبها بالقليل من السعادة، فقد يحدثها لساعات تظن أنها دقائق معدودة. انتبهت إلى عينيه السارحتين. أحست بألم ابنها. مالت عليها وداد وهي تسأل ما الذي أصاب الأولاد يتعلقون بفتيات من «آخر الدنيا»، لا يسكنّ في غزة، في إشارة إلى حظ ابنها سامي وتعلقه بمشيرة.

طبعت وداد قُبلة على رأس حاتم وهي تقول: «إذا بتحبك راح ترجع».

القليل من الكلمات قد تُحيي أملاً يحتضر.

صفية قالت إن المرأة حين تحب تفعل المستحيل.

ها هي تعود الآن. تسمر في مكانة حين لوحت له بالتحية. وضعت صفية كأس اليانسون على الصينية ووقفت مرحبة. أحاطت

النسوة بالفتاة وهن يتبادلن معها الحديث. مفرداتها من اللغة العربية توسعت وزادت. ثم أخذت تساعد أهل الحارة في ترتيب المكتبة.

مرت نصف ساعة وهي تتحيّنُ الفرصة لتختلي بحاتم. تبادلا النظرات سرقة وجهاراً، إلى أن جاءت اللحظة المناسبة. كان منهمكاً في ترتيب مجموعة من الكتب على الرفوف حين جاءت حاملة مجموعة أخرى منها. ناولته بعضهم وهمست خلسة بالعربية «بحبك». وقعت الكتب من بين يديه، ووقعت الكتب من بين يديها أيضاً. ضجيج كبير ملأ المكان. دخل جمال ثم انسحب ليترك لهما فرصة ترتيب الكتب وفرصة الهمس وحدهما.

فكرتك مشراح ترجعي.

كنت بديش ارجع... بس قلبي.

نهضا والارتباك يأكل وجهيهما. ركضت الفتاة إلى الخارج.

الشيخ مسحن امتعض وهو يحلق فيها. نظر إلى جمال بغضب:

شو اللي جاب البنت الأجنبية.

يا شيخ أجت تساعدنا.

ليش الحارة فش فيها رجال!

ردت صفية: وفيها نسوان كمان.

لم يرفع الشيخ عينه عن الفتاة وهو يواصل حديثه مع جمال.

طب احنا عارفين هي مين؟

تدخل حمدي الذي وصل لحظتها:

فاعل خير يا شيخ.

الخير بجيش منهم.

مش كل أصابعك واحد.

تكهرب الموقف. الفتاة واقفة متسمرة في مكانها تراقب الحوار العنيف الذي يدور عنها. ثم قالت فجأة:

يا مولانا أنا بنت الحارة.

ساد صمت كثيف، بدده صوت جمال:

قصدها إنها صارت واحدة منا.

ردت الفتاة بقوة: لأ، مش هيك. أنا بنت الحارة فعلاً.

الشيخ: على راسي يا بنتي، بس هاي حارتنا...

الفتاة: وحارتي.

نبيلة: ما هي يا شيخ راح تتجوز حاتم.

الفتاة بقلق هذه المرة: لأ مش هيك كمان.

ظللت المكان سحابة أكثر كثافة من الصمت. أشعل حسن سيجارة فيما واصل نصري مداعبة مبسم غليونه. حاول جمال أن يعود إلى عمله حاضاً الجميع أن يُكملوا تجهيز المكتبة قبل غروب الشمس.

الكهربا قاطعة يا جماعة خلينا نخلص شغلنا قبل ما تعتم.

وقفت الفتاة على باب بيت الحاجة الذي يصير الآن مكتبة الحارة. أغلقت الباب بجسدها الطويل فيما شعرها يسافر بفعل الريح داخل البيت. نظر الجميع إليها. تبادلوا نظرات الحيرة كأنهم يستشعرون صوت الانفجار القادم.

أنا كريستينا. أنا كريستينا بنت ياسر ابن الحاجة كريستينا.

H A J J I K R I S T I N A

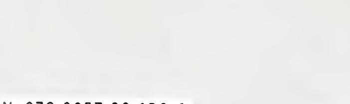




الحاجّة كريستينا

وبطريقةٍ أو بأخرى بات لكريستينا عالمان تعيش فيهما بطمأنينة واستقرار، تتنقّل من واحد إلى آخر بسلاسة. كما أنّهما لا يتعارضان داخلها، فهي تشعر بالرضى والسعادة في كل عالَم، غير أنّها فعلاً لم تكن تشعر بأنّهما عالمان منفصلان، بل كانت ترى واقعها مثاليًا ومناسبًا لشخصيّتها ولماضيها. أهمّ شيء أن يكون ما نفعله منسجمًا مع أرواحنا. كانت تشعر بأنّ روحها راضية، وأنّها عبر هذا التوازن الدقيق تحافظ على الهارمونيا والتناغم بين أطراف الماضي المختلفة وبين واقعها وحاجتها لتتواصل مع هذا الماضي. بذلك فمن غير الصحيح القول إنّه بات لكريستينا عالمان، وإنّها تبرع في التوفيق بينهما. صحيح أنّ الأمر قد يبدو غريبًا للكثيرين، وقد يبدو مستهجنًا لبعض، وربّما يذهب طرف للقول إنّه ضدّ الدين. لكن سيزول الشكّ إذا ما تمعّنا حقًّا في تاريخ كريستينا الشخصيّ وخطّ حياتها وتعرّجاته. من الصعب التصديق بأنّها، بعد كل ذلك، استطاعت أن تواصل الحياة، ومن شأن استعادة تفاصيل الحكاية مرّة بعد مرّة أن يدفعنا للشكّ بأنّها فعلاً نجحت في أن تظلّ واقفةً على رجليها. كيف تتصالح مع كلّ هذه المتناقضات، وتجمع بين كلّ تلك الأطراف، وتظل على علاقة جيّدة مع الجميع؟

ISBN 978-9957-39-138-6





9 789957 391386



الأردن، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2016
الغلاف: ® ☎ 95297109 7 00962